سعد مكاوي

السائرون نياما

مكتبة علي بن صالح الرقمية

سعد مكاوي

السائرون نياما

رواية

1963

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الفترة التاريخية التي تدور فيها أحداث هذه القصة لا تكاد تتجاوز ثلاثين سنة (1468 ـ 1499م) من عمر سلطنة المماليك التي حكمت تاريخ مصر والشرق 267 سنة.

القسم الأول

الـطـــــــاووس

(١)

قال أيوب لصبيه يوسف وهو يرفع يديه عن النعش الذي كان يصقل خشبه الجديد:

ـ قمْ وتفرج، فقد دنا الموكب.

وكان رنين الأبواق المقبلة قد أخذ يتعالي مع إيقاع الطبلخاناه، فوثب يوسف إلى منصة دكان النجارة العالية وصاح في ابتهاج:

ـ عقبي له يوم يجهز له هو الآخر نعشه!

رشف صانع النعوش الثمالة الباردة المتبقية من قهوة العصر في قاع الفنجان الفخاري قبل أن يلحق بصبيه في مرصده العالي:

ـ أمسك لسانك يا ولد.. فالبصاصون أكثر من الحصي.

كان هناك صفان من العبيد السود حفاة الأقدام عراة الصدور، يتقدمون في اتجاه قلعة الجبل في خطوات بطيئة وعلى أكتافهم وأيديهم جوارح الصيد جامدة كأنها طيور محنطة، معقوفة المناقير متعاظمة، والسلاسل الرفيعة رابطة بين يد كل عبد وساق طائره، وحول خصر كل عبد مئزر قصير أصفر تلمع صفرته في شمس آخر النهار المائلة لمعان صفحة من ذهب، ومن وراء الطليعة الصفراء جموع من كلاب الصيد الهائجة، يمسك بسلاسلها الباذارية (1) في أقبيتهم المزركشة وهم يحاولون السيطرة عليها في نطاق الموكب، وكوكبة من الخيل المجهدة يقودها من أعنتها المرسلة جفتاوات (2) راجلون، ويحمل كل حصان منها ظبيًا في عنقه السهم أو نعامة صريعة.

همس يوسف في أذن معلمه:

ـ سرحة صيد موفقة، فما أوفر صيد السلطان الجديد!

وجعل يُحصي الصيد في انبهار ساذج:

ـ أكثر من عشرين ظبيًا.. وست نعامات!

قال أيوب وهو يحرص على خفوت صوته:

ـ يا غبي! إنه يصيد من الحيوان قدر ما يشاء.. يضرب له الجند حلقة في الصحراء ويطلقون داخلها الظباء وبقر الوحش والنعامات وما شاء السلطان ثم يطاردها هو وأمراؤه وكلابه وطيوره وعبيده!

وارتفع قرع الطبلخاناه عندما ظهر فَرَسَان أشهبان يركبهما اثنان من أوشاقية الإسطبل السلطاني، على رأسيهما قبعتان مزركشتان وكل منهما متقمط في قباء من حرير أصفر، وفي يده رمح طويل تتماوج في ذؤابته راية صغيرة صفراء، ودوّت على الطريق فجأة زغرودة امرأة كأنها تفتح الطريق لصفوف الركبدارية (3) المتتابعة في موجات بعد موجات من اللون الأصفر حبيب السلطنة.

ـ اللعنة على هذا اللون وأصحابه!

وعند هذه اللعنة التي أطلقها صوت مغمور في زحام الناس تراءت القبة السلطانية متهادية في أبهة، يتقدمها العملاق حامل الدبوس رمز السلطنة، وعبرت القبة التي تُظل ركب السلطان بحريرها الأصفر المزركش بالذهب أمام دكان أيوب محمولة بأيدي جماعة من أمراء المائة، ومن فوقها التمع في وهج الشمس تمثال الطائر الفضي الضخم المطلي بالذهب، وصاح رجال في الزحام لا يراهم أحد ولا يجيب دعاءهم صوت:

ـ عاش مولانا السلطان! عاش السلطان بلباي!

وجهد أيوب أن يرى لمحة من وجه الحاكم الجديد الذي تعلوه صفرة القبة، لكن الركبدارية كانوا محدقين بها في إحكام غيور، فما استطاع صانع النعوش أن يرى غير العصائب السلطانية على رأس السلطان، مطرزة الحواشي باسمه وألقابه، ثم وجوه القضاة الأربعة تحت عمائمهم الهائلة، وسحنة تمربغا الرومي أتابك العسكر، والرءوس التي تعلوها الكلوتات والقواويق، والوجوه المضناة العابسة لمقدمي الألوف وأمراء المائة وأمراء الطبلخانات وأمراء العشراوات وكل تلك الصفوف التي لا تنتهي من أصائل الخيل، وكل تلك الأرجال من الجراد المملوكي الذي يسد عين الشمس.

وزفر أيوب في همسة وهو يتلفت حوله:

ـ كل هؤلاء السفّاحين.. ولا مائة من أمثالي ولا ألف فيهم الكفاية لصنع هذه النعوش كلها.. داهية تأخذهم!

وأخذت ذيول الموكب تتواري مخلفة وراءها فرحة يوسف الذي استطاع رغم الزحام أن يلمح شارب السلطان الجديد:

ـ في وسع صقرين أن يقفا عليه بكل راحة!

وهبط أيوب صامتًا وامتدت يده إلى النعش:

ـ يا مغفل! صاحب هذا الشارب آلة في يد خير بك الدوادار، وهذا هو ما رشحه لمنصب السلطنة!

(1) الخدم الموكلون بكلاب الصيد في قصور الأمراء.

(2) السياس.

(3) الفرسان.

(٢)

قبيل الغروب ابتلع باب القلعة الكبير كل ضجة الموكب ودخلت المماليك السلطانية إلى طباقها كما دخلت الخيل إلى الإسطبلات الشريفة بإشراف أمير آخور صاحب المذاود الموكل بعلف الدواب، وأدخل الصيد إلى المطبخ السلطاني بإشراف الأمير الجاشنكير المتولي على جميع الأسمطة، ودخل السلطان إلى الآدر الشريفة، حيث يسمع الحريم خرير المياه الجارية التي ترفعها السواقي من النيل إلى القلعة.

وعبر بلباي بساتين الحريم مسرعًا دون أن يلقي نظرة على الطواويس والظباء، ومر بباب زوجته الأولى خوند الكبرى دون أن يخطر له أن يدخل قاعتها، ولم ينظر إلى باب قاعة رمضان حيث تقيم خوند الثانية، ولا إلى باب القاعة المظفرية حيث تعيش خوند الثالثة، بل اندفع إلى القاعة المعلقة، جناح زوجته الرابعة التي دخلت في عصمته يوم تتويجه سلطانًا على البر، منذ تسعة أيام، فما إن رأته جلبهار داخلا عليها بوجهه اللحيم المحتقن وجِرْمِه الضخم حتى أزاحت بيدها ستر المخدع الشفاف وطعنته بنظرة نافذة، قائلة:

ـ سبع يا مولاي أم ضبع؟!

ـ بل كان صيدي حمولة رتل من الخيل، وفوق قدرة السِّباع يـا سلطانتي!

أدركت الجركسية المتنمرة أنه لم يفهم عنها شيئًا فتمطت في استخفاف عارضة عليه فتنة صدرها الذي انحسرت عنه غِلالـتها الدمشقية الباهرة:

ـ سبع يا مولاي أم ضبع؟!

وضحكت في وجهه هازئة وهي تضرب الوسائد بقبضتين دقيقتين، ثم انكفأت على وجهها وهي لا تزال تطعنه بضحكها الساخر، وكأن كل شيء في القاهرة تراخي وهجع بدخول بلباي إلى القاعة المعلقة، وكأن كل حي داخل سور القلعة وخارجه قد علق أنفاسه، آلاف البسطاء المحبوسين من ساعة الغروب وراء أبواب الحارات العطنة، والقتلي والمكلبون والموسطون على أسوار القاهرة وأبوابها وأسبلتها، والمسجونون في أبراج القلعة، وما يضمه سورها العظيم من قصور خواص الأمراء ونسائهم وأولادهم ودوابهم، وطباق (4) المماليك السلطانية الاثني عشر، التي تتسع مساكن كل منها لألف مملوك، والإسطبلات الشريفة مقر الخيول السلطانية، وساحات الأغنام والطيور والحيوانات النادرة، حتى البساتين والحمامات والأبراج والمآذن، حتى دار الوزارة ودواوين الحكومة وبيت المال.

لم يعكر صمت الليلة الوليدة غير دق الكوسات عند أبواب القلعة في موعده المألوف بعد صلاة العشاء، ثم عاد السكون بعد إمحاء دويها النحاسي الرنان، وطال في هذه المرة قبل أن

يمزقه صوت الأغا الرفيع الذي اندفع في لهفة من باب القاعة المعلقة وهو يصرخ في وجوه الحرس:

ـ الدوادار!.. هاتو الدوادار من تحت الأرض؛ فالسلطان يريده في الحال!

تحطم السكون تحت نعال الجند المضطربة، لكن ضحكات هازئة كانت تجد سبيلها إلى الانطلاق من فوق تلك النعال مرددة:

ـ لماذا لا ينام الدوادار معهما ونرتاح نحن من إيقاظه كل ليلة وعودته!

قال الأغا وهو يدفع جلفًا منهم نحو السلم في حركة مخنثة:

ـ هاتوا له الدوادار يا ناس وخلصونا!

قال الجلف الجركسي وهو يدغدغ خصر الأغا:

ـ أنت وسيدك في الهم سواء يا طواشي القاعة المعلقة!

واندفع هابطًا في السلم الحجري وهو يهز ردفيه متخلعًا:

ـ حكمتك يا أحكم الحاكمين! حتى في مخدع السلطان لا بد لخير بك أن يدس أنفه الطويل!

وهمس زميل له: «قل له!!» لكن همسته ابتلعتها زمجرة حيوان ذكر يريد أن يخمد الصيحة الشاكية في نواح امرأة تعالي من وراء الباب المغلق، شكوي عروس تسعة أيام تندب سوء بختها.

ـ حتى في الصيد نغرس له بأيدينا السهام في أعناق الظباء!

ـ اخرس، فالبصاصون في كل مكان!

---

(4) الطباق: مدارس الناشئة الخاصة الملحقة بقصور الأمراء.

(٣)

ـ هات لي عشرة منهم يا إيواظ ولا تقل لهم إنك تسعي بهم إلى حضرتي، ولا ترفع عنهم قيودهم حتى يأتوني.

قال إيواظ جبار أبراج القلعة وكبير السجانين:

ـ سمعًا وطاعة يا مولاي!

لم يكن في الحوش السلطاني في تلك الساعة المظلمة غير حفنة صغيرة من المماليك، تتطاول ظلالهم في أضواء المشاعل القليلة المثبتة في الجدران الحجرية العالية، وهم يأتمرون بأمر سلطانهم الذي لا يجهل منهم أحد أن الوصفة السودانية التي جاءه بها الدوادار خير بك، وقال له إنها لا تخيب أبدًا، كانت نتيجتها خيبة ثقيلة جديدة.

وكان بلباي قد اتخذ مجلسه على كسوة القطيفة الحمراء في كرسي من الأبنوس المطعم، وتحت قدميه جلد نمر، والسيف بين ساقيه، ولا تزال في سمعه أصداء من نواح الحسناء الكاسرة التي هبط عن فراشها منذ قليل ذليل النفس مكسور الخاطر، فلما اندفع جلاده مع بعض جنده نحو الدهليز المعتم المؤدي إلى البرج الغربي، وساد الحوشَ السكونُ، زاغت نظرات السلطان من عيون حاشيته طويلا قبل أن يرفع بصره عن جلد النمر الذي يطأه وقال شيئًا يقطع به الوقت في انتظار المساجين:

ـ صدت اليوم وحدي أربع نعامات وعشر ظباء!

تبادلت جماعة المماليك نظرات مستخفية قبل أن يتكلم منهم من أدرك حاجة السلطان إلى تطبيب جرحه الدفين:

ـ وهل تربّع على الأريكة السلطانية قبل مولانا من هو أسرع سهمًا إلى الفرائس أو أحكم منه يدًا!

لكن نظرة السلطان القلقة كانت قد تهاوت مرة أخرى نحو الأرض قبل أن يبغت الذين حوله بسؤال غير منتظر:

ـ من صاد هذا النمر؟

ووقعت لحظة حرج لم يكن بلباي يتوقعها، فجاهد نفسه حتى وسعه أن يرفع رأسه وينظر في عيون مماليكه:

ـ ما لكم سكتم؟ لعل صائده صاحب أمسكم، الرومي خشقدم؟

قال مملوك منهم وهو يتحسس الكلمات قبل أن تُفلتها شفتاه:

ـ بل كان هدية إليه من شيخ كردفاني كانت له عنده مسألة!

ومد بلباي قدمه ليطأ رأس النمر المحنطة عندما ارتفع من فوهة دهليز البرج الغربي رنين سلاسل، وظهر إيواظ في مقدمة صف من أشباح تجر قيودها، وتتراقص على الجدار في ومضات المشاعل ظلالها الناحلة، فلما سكنت ضجة القيود عندما لصقهم الجند بالجدار صفاً في مواجهة السلطان توقدت الحمية في عينيه وهو يفحص لحاهم الطويلة وعظامهم البادية من أسمالهم وعيونهم التي تطرف أمام النور من طول ما ألفت الظلمة، وجاء إيواظ فوقف راضياً عن نفسه ينتظر الأوامر بين يدي مولاه.

ـ قرب مني صاحب اللحية البيضاء، هذا الذي يعصب رأسه بالخرقة. صار الرجل راكعاً على ركبتيه أمام السلطان وعمامته بلون التراب، مغلول القدمين واليدين، وفي وجهه سكينة عجيبة.

وتأمل بلباي هزاله المفزع وسلاسله الغليظة وعجب لهدوئه بين يديه:

ـ هل تعرفني يا رجل؟

ـ لا!

غطت همهمة المماليك على زمجرة السلطان، لكن بلباي لم يلبث أن أشار بيده إلى رجاله يأمرهم بالصمت، وفي عينيه نظرة تريد أن تقول لهم إنه سعيد بهذه اللعبة التي وجدها في ليلته التاسعة:

ـ لا تعرفني؟!

فأجابه ذلك الصوت المطمئن:

ـ لا أعرفك!

ـ ألا تعرف سلطان البلاد؟

رفع السجين عينيه لأول مرة ورشق في عيني السلطان نظرة فاحصة قبل أن يقول له:

ـ كيف لي أن أعرفك وأنا هنا منذ سنين لا أعرف عددها؟ هل أنت عثمان بن جقمق؟ هل أنت إينال أم ابنه السلطان أحمد؟ أم لعلك خشقدم الرومي لا تزال متربعاً على العرش السلطاني؟ قل لي أنت من تكون؟!

برطَم إيواظ وهو يتحفز من وراء عنق السجين الذي لم ير لجرأته مثالا:

ـ يا ابن الحمقاء آكلة الخبيزة! هذا مالك رقبتك وسيدك ومولاك بلباي!

أطرق السجين ولم يتكلم، لكن السلطان تكلف السرور وهو يتبسط معه:

ـ ما اسمك يا رجل وما حكايتك؟

ـ أنا الشيخ علاء الدين، وقد قلت رأيي في السلطان جقمق بعد صلاة الجمعة في صحن المسجد الأكبر فجاء بي رأيي إلى هذا المكان، وكان ذلك في يوم من أيام الشتاء في سنة ١٤٣٨ وكان عمري أربعاً وعشرين سنة، وهذه هي حكايتي، فما حكايتك أنت؟

فكر بلباي لحظة قبل أن يتكلم:

ـ فأنت الآن في الرابعة والخمسين يا شيخ علاء الدين، لكن قل لي ماذا كان رأيك في السلطان جقمق، هذا الذي جاء بك منذ ثلاثين سنة إلى برج القلعة؟

وفكر السجين لحظة هو الآخر قبل أن تصغي كل الأسماع في الحوش السلطاني إلى صوته المطمئن:

ـ لو أني قلت لك رأيي الآن وأنت هذا السلطان وأنا هذا السجين لما أفدت منه شيئًا ولا أفاد منه الناس، فما جدوي أن تعرفه؟

ـ يا حرفوش! أترى هذا السيف؟

ـ وأعرف أنه على عنقي!

ـ ولا تفارقك السكينة؟ أتراك تحسب أنك لا تزال في صحن المسجد؟

سكت السجين ومرت لحظة توقع فيها الجميع أن يأمر بلباي على عادته ببطحه أمامه على الأرض حتى يذبحه بيده كما ألف أن ينفث نقمة لياليه في رقاب المساجين، لكن السلطان لم يقل غير كلمة واحدة قذف بها في وجه الرجل دون أن ينهض من كرسيه أو تمتد يده إلى سيفه المستند إلى فخذه:

ـ اسجد!!

والتقت عيناهما في الحال، والسجين يسأل بصوته الذي شابت هدوءه هزةٌ خفيفة:

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول لك اسجد فتسجد!

ـ لتذبحني؟

ـ بل لتسجد لي!

ـ بئس تاجرك الذي جلبك وأستاذك الذي اشتراك بماله ويوم النحس الذي رفعك على الرقاب!

ماجت الساحة بمن فيها وزأر بلباي وانتفض شاهراً سيفه وبين عينيه طيف الجركسية وهي تحسر الغلالة عن عريها العصي المتحدي:

ـ يا إيواظ اطرحه لي أرضًا!

لكن الشيخ علاء الدين مال للرقاد من قبل أن تدفعه يد الجلاد الفظة فذبحه السلطان بيده أمام مماليكه والتسعة المساجين المنتفضين لصق الجدار، ثم انقض عليهم في نوبة هياجه وسيفه في يده يقطر بدم الشيخ:

ـ ما أنا بضبع يا أبناء الكلاب بل سبع هذا البر إن كنتم لا تعلمون! وسقط أحد المساجين إلى الأرض منسحقاً بضعفه ورعبه فوطئ السلطان وجهه بنعله في نشوة جنونية وهو يصرخ من أعماق وجوده:

ـ يا حرفوش يا ابن الحرفوش!

وصار هياجه ملء الحوش السلطاني وهو يطعن الرقاب ويطأ الوجوه والزبد يتفجر من فمه، ومماليكه جامدون من حوله كالأصنام وهم يرون رذاذ الدم على عباءته البيضاء دون أن يتكلموا.

(٤)

كان الانتهاء من إنجاز النعش في موعده قد حكم على أيوب وصبيه أن يبلغا حارة الحمام في بركة الحبشي متأخرين عن ميقات إغلاق بابها، فتصدي لهما الطواف رافعًا مصباحه في يسراه، ويمناه ممدودة بغير سلام ولا كلام، فأسقط فيها أيوب المعلوم وهو يفشخ حنكه عن ابتسامة نفاق كبيرة:

ـ مسا الخير يا زين الرجال!

ضم حارس الباب الأشقر يده على القطعة المعدنية المعهودة بعد أن فحصها بركن عينيه:

ـ أين كنتما يا أزعر حتى هذه الساعة؟

ـ كنا أمام أحد أمرين، إما أن يتأخر دفن أحد المسلمين إلى الغد أو أن نلوذ بشهامتك!

وارب الحارس باب الحارة الثقيل وهو يدفعه بكتفه ناقمًا على صريره العالي، ثم دفع بقبضته في كتف صانع النعوش:

ـ ادخل دخل عليك المغسل!

ـ عاشت لنا همتك يا سيد الناس!

وانفلت يوسف في ذيل معلمه متلقيًا في امتثال صفعة الطواف على مؤخرته، وضحك في ارتياح لظلام الحارة الذي تلقاهما بعطنه:

ـ جاءت سليمة يا معلمي!.. ابن الحرام استعمل في هذه المرة كفه كله!

وبين البيوت المتلاصقة في الظلام كالأقزام المتساندة كانا يعرفان طريقهما المتلوي إلى البيت، مستأنسين على مألوف العادة بطيف من ضوء أعمش يأتيهما على البعد من مقهى زين الدين الناتئ عند أول منحنيات الحارة، حتى بعض أكوام القذارة الأزلية كانت أقدامهما تعرف بالاستشعار مكامنها لصق الجدران وتعرف كيف تتفاداها بخفة، وكأن في أنف المعلم وصبيه مصافي تلغي الشعور بالرائحة الزخمة وتحتجز عفونتها، لكن يوسف أمام الكتاب المغلق انكفأ على وجهه متعثرًا في لحم سخن مشعر قابع في التراب، وضحك وهو ينهض من كبوته:

ـ صلاة النبي أحسن! حمار أم الخير حلا له الليلة أن يغير مرقده!

وهفت عليهما رائحة الحشيش المحترق عند زين الدين، واستقبلهما عند مصباح المنحني الكئيب نباح الكلب «كافور» وضجة الحرافيش المقامرين من الزُّعْرِ والسريحة والمكاريين،

وتبدت دكة الشاعر في صدر المقهى خالية حتى من حصيرتها، وركل زين الدين كلبه بطرف البلغة وهو يبصق بلغمه على الأرض فوق ماء الجوزة الذي كان يدلقه ورد السلام في بشاشة:

ـ مساء الأنس يا أمير، تفضل عطر أنفاسك!

اعتذر أيوب وهو يمرق ساحبًا غلامه ولاجئًا إلى خفة ظله المألوفة:

ـ خالتك ست الكل طابخة لنا الليلة خبيزة!

وبالفعل كانت رائحة التقلية تفعم الدهليز وست الكل منهمكة في وسط الدار تشطف كوز أيوب النحاسي في طست صغير تحت الزير:

ـ إيش أخّر المعلم وصبيه؟

كان وجهها الأسمر ناطقًا بالشوق وفي قلب ذقنها الموشوم نغزة ضاحكة، فمسح أيوب بكفه على رأسها وأجابها وهو يخلع مداسه عند الحصيرة:

ـ جاء بختنا يا ستي في ميّت مشاكس رأسه وألف برطوشة قديمة أن يستلم نعشه الليلة أو يشكونا إلى السلطان «قل لهَ»!

ضحكت غمازة ست الكل وشمشم يوسف الصغير بأنفه كالقط الأليف:

ـ الله! حلوة رائحة طبيخك يا خالة ست الكل!

نهضت ست الكل فخطفت الطبلية المربعة التي كانت مستندة إلى ركن الجدار العاري، وجاءت بها فوضعتها في وسط الحصيرة أمام زوجها وهي تلحظ يدي الغلام بركن عينها النشيطة:

ـ يوسف! اذهب فاغسل يديك في الدهليز ونظف وجهك.

قال أيوب وهو يضحك مخفيًا يديه تحت الطبلية:

ـ أنا يا اختي لم أعانق حمار أم الخير في الظلام، ويداي مثل الفل والله العظيم!

وجاءت ست الكل بطبق الخبيزة الكبير فوضعته في وسط الطبلية وصفت حوله فروع الفجل المغسولة النضرة وأرغفة الخبز، وناولت زوجها كوزه الكبير ووضعت كوزها في مكانه وارتفع صوتها مناديًا الغلام:

ـ هات كوزك معك من الطاقة يا يوسف!

والتأم شمل الأسرة الصغيرة حول طعامها، وما إن استراح كل منهم على فخذه اليسري حتى امتدت من كل يد ثلاثة أصابع قابضة على لقمة صغيرة غاصت في سطح الخبيزة الأخضر، وقال يوسف لخالته وهو يمضغ لقمته في انشراح:

ـ أنا شفت السلطان الجديد يا خالة.. عليه شوارب لم يرَ مثلها البر!

قالت ست الكل وهي تتوجه بكلامها إلى زوجها:

ـ النسوان في الحمام كن يتكلمن عنه هذا الصباح.. وامرأة جيزاوية من بلدياتنا قالت إن زوجها يقسم أن الدوادار الكبير يشخط فيه الشخطة فتسيب مفاصله!

سألها أيوب وفمه محشو برأس فجلة كبيرة:

ـ جيزاوية؟ من ميت جهينة؟

ـ قريبة منصور، وزوجها يعمل سروجيًا في إسطبل السلطان.. كان ذاهبًا في أي داهية؟

ـ كان راجعًا من سرحة صيد، بالموكب والقبة والهيصة والركبدارية، بقي كنتي في الحمام يا حلوة؟

رمقت المرأة الغلام بنظرة تحتية قبل أن تنهر رَجُلَها الذي استروحت اتجاه خواطره:

ـ إيه؟ عجبة؟ ألا تعرف أني أقصد حمام السوق صباح كل ثلاثاء؟ وأيوب لعّب لها حواجبه في مرح ومكايدة:

ـ كل صباحية ثلاثاء يا بنت ميت جهينة وانت طيبة!

وارتج باب الدهليز فجأة تحت ضربات قوية بالعصا وارتفع في الحارة صوت هادر ينادي في إلحاح خشن:

ـ يا أهل الخبيزة!.. يا موصدي أبوابهم في وجوه أهل الله، يا طعمة جهنم!.. يا ست الكل.. يا عبدة أيوب.. يا ساكنة النعش!. يا أيوب يا حاملا مدى العمر على كتفك نعشك!.. افتحوا الأبواب وحضّروا الخبيزة واستفتحوا بعفو الله!

تفجر الضحك حول الطبلية وشاع البشر في الحجرة العارية:

ـ الشيخة زليخة!

اندفعت العجوز الضامرة إلى الضلع الفارغ من الطبلية وتربعت وأراحت المقرعة الغليظة على فخذيها بعد أن لمت خرقها المرقعة:

ـ بسم الله الشافي الذي لا يحب الشيخ عباس!

وكانوا يعرفون أنها ستقول ذلك ويدخرون لقولها ضحك الاستمتاع والطرب، وتأمل يوسف رأسها الحليق بالموسي ولقمتها الهائلة قبل أن يرحب بها بالكلمة التي يعرف أنها تعجبها:

ـ أنا يوسف وأنت زليختي!

وكانت تعرف أن وجودها يسعدهم وأن هذا البيت يحبها كما تتبارك بها كل بيوت حارة الحمام، وقالت وعيناها المتوقدتان تضيئان ركنها:

ـ شفت الملعون الجديد يا أيوب؟

ـ الله يبارك فيك يا ستي الشيخة!.. إن كنت تعرفين أن عندنا خبيزة من رائحتها فكيف عرفت أني رأيت بلباي؟ إنت رأيت الموكب؟

ازدردت الشيخة مضغة الفجل وتجشأت:

ـ إني رأيت ما وراء الموكب! رأيت السجن والسجان وبلباي المجنون في السلاسل!

تنهدت ست الكل وهي تدفع برغيف آخر أمام ضيفتها المباركة:

ـ بشرة خير يا ستي الشيخة، ومتي نري نحن ذلك إن شاء الله؟

قال يوسف الصغير مسترجعًا بعض كلمات معلمه:

ـ كلما وقع عجل طلع لنا غيره! ما الفائدة؟

فردت زليخة اللقمة من فمها المزرور كفوهة الكيس العتيق ورفعت عقيرتها فملأت المكان كله بهديرها الرنان:

ـ «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين».. صدق الله العظيم!

وكما انقضت على الطعام فجأة شبعت فجأة:

ـ الحمد الله الذي لا يحب الشيخ عباس!

وقال لها أيوب وهو مستمتع بإسراف الصبي في الضحك:

ـ أنت ويوسف أشد الناس كراهية للشيخ!

فدعك الصبي ذراعه مما يلي الكوع:

ـ بعثتم بي إليه ليعلمني القراءة والكتابة والقرآن والحساب فلم يفعل من ذلك شيئًا بل كسر لي ذراعي بعصا أغلظ من مقرعة ستنا زليخة!

وصحت على هذه الذكري نقمة ست الكل هي الأخرى:

ـ وهل عنده وقت لتعليم أولاد الناس؟ يكفيه تطيير الحمام على السطح! عقبي له يوم ينكسر حقه!

قال أيوب لصاحبة الكرامات:

ـ الحق معك يا ستنا.. أهل العمامة هؤلاء أمرهم عجب.. عندما كسر الشيخ عباس ذراع يوسف جاءني زميله الشيخ عبد العليم فقيه كتاب بركة الحاج متشفيًا ومتطوعًا بدفتر لوائح الكتاتيب السلطانية، وما زال بي حتى حفظني نص لائحة الضرب طالبًا مني أن أضعها في عين الشيخ عباس إذا لم يدفع لي التعويض: «على الفقيه ألا يضرب صبيًا بعصا غليظة تكسر العظم ولا رقيقة تؤلم الجسم بل تكون وسطًا، ويعتمد في ضربه على اللوايا والأفخاذ

وأسفل الرجلين، لأن هذه المواضع لا يخشي منها مرض ولا غائلة»!.. وحفظتها وزغدت الشيخ وأخرجت الولد من الكتاب!

قال يوسف وخالته ترفع الطبلية بطبقها الفارغ:

ـ نفسي ومُني عيني أصنع له نعشه بيدي!

ونهضت الشيخة ولفعت مقرعتها على كتفها:

ـ شبعت وحان خروجي إلى الله!.. أما الشيخ نسناس عدو الله وحبيب المماليك فهو لا يكتفي بنهب حمام البلد وقبض الأجرة منكم سكان هذا البيت، فقد سمعت من خليل عريف الكتاب أنه بدأ يراهن في السر على نطاح الكباش ومناقرة الديوك!

وعند الباب التفتت العجوز ذات المقرعة إلى الصبي وقالت له في صوت خلا من خشونته الطبيعية ومسته وداعة طفولية:

ـ يا يوسف! لا تنس أني زليختك!

فتبسم لها ورح الصبا البكر في عيني الولد الجميل.

(٥)

عندما حميت الدعكة وصهلل المنشد وترنحت الحلقة على إيقاع الذكر العنيف، ودخل السقاء عبد الجليل في غيبوبته الروحية المعهودة انفلت منه صاحبه خليل عريف كتاب حارة الحمام واخترق صفوف الذاكرين وجموع المتحلقين حولهم، ثم عبر ساحات المولد في عجلة من أمره دون أن تجذب انتباهه ألاعيب المشعوذين وفنون الحواة أو تستوقفه الدعوات الملحة من محترفي الدعاية إلى مشاهد التشخيص وتهاويل خيال الظل، وظل منطلقاً في الليل بخطواته الواسعة حتى اعترضته عند سبيل ست الملك زمجرة كلاب شرسة، فلما تمهل في خطوه ونظر رأي تكة سروال مدلاة ووجد الكلاب المتناوشة متوثبة على رمة إنسان عفنة معلقة بالسبيل بين عدد من الرءوس البشرية المقطوعة.

وكان هدفه الذي يسعي إليه وراء السبيل بخطوات قليلة ولا مفر له من العبور بتلك الوليمة الشنيعة أو يعود فيدور دورة كاملة حول تربيعة سوق النخاسين، ولقد رأي خليل من أهوال زمانه الكثير الذي تفتر معه صدمة كل بشاعة، وما كانت المرة الأولى التي يقع فيها بصره على رمم المصلوبين أو أشلاء الموسطين، كما كان من نصيبه ذات مرة أن يحضر في عهد السلطان الأسبق تنفيذ عقوبة في كنفاني تعرض لمملوك خطف ابنه الوسيم وانتزع منه الولد، فخلعت أضراسه وأسنانه وسط حلقة من الناس عند سكة الخيامية لتدق في رأسه بالشاكوش، لكن معدته جاشت لمنظر الكلاب الناهشة في الرمة التي تفوح منها العفونة، وإن كان قد وسعه مع ذلك أن يرفع عصاه ويشق طريقه بين كل تلك الأنياب النشيطة التي كانت العظام تقرقع بين بعضها، كما وسع هدفه أن يظل جاذبا له بالرغم من غثيانه وصدمته:

ـ لا فائدة يا كلاب! رائح عند هاجر يعني رائح عند هاجر.

وبصق على الأرض وتلفت وهو يقاوم ذلك الانقباض الموجع في معدته، فخيل إليه في الغبش المعتم الذي تلقف المشهد المقزز أنه يرى أحد الكلاب المتوثبة مطبقاً بأسنانه على طرف التكة وهو يشدها وكأنه يوشك أن يفكها. فأشاح ببصره في انفعال وكبت مشاعره وهو يهرول نحو الباب الخفيض الذي يعرفه، وتريث قليلا ليسترد أنفاسه قبل أن يهبط الدرجتين وينقر على خشب الباب المدهون باللون الأحمر الفاقع ثلاث نقرات متقاربة وهو يتلفت، نقرة منفردة قوية، ثم نقرتين متتابعتين خفيفتين.

ومرت لحظة قصيرة قبل أن تنفتح في الباب الموصد طاقة صغيرة ويظهر فيها قطاع من وجه أبنوسي، عين واسعة وأنف أفطس وطرف من شارب أبيض كثيف متهدل على ركن شفة غليظة:

ـ هل انتصف الليل؟

وكان خليل عليما بكلمة السر فأدني أنفه من فرجة الطاقة المربعة وترنم بصوت مكبوت وهو يشم من الداخل شذي بخور نفّاذ:

ـ ونامت الخنافس!

وانفرج الباب الصغير ولقف عريف الكتاب الذي تبسم في الدهليز المفعم بعطر فاغم تعرفه حواسه، وربت كتف العملاق الأبنوسي في مودة:

ـ صدق من أسماك رضوان!

وباستثناء النعل الخفيف لم يكن على جسم رضوان الهائل غير مئزر قصير أصفر ترتج في زنقته متى مشي أمام الزبون عجيزة مثل قبة السلطان، وصوته المخنث متعارض مع بياض الشارب وبسطة الجسم:

ـ وحشتنا دراهمك يا خليلي!

مشي خليل وراء القبة الأبنوسية الرجراجة، وقد ضربته رائحة الحشيش الكثيفة في صميم خياشيمه الظامئة نحو ضجة مبهمة تتعالي فيها ضحكات كالعواء ولغط نزق يكاد يغطي على إيقاعات مضطربة لزمر وطنبور وطبلة، وفي آخر الدهليز رفع رضوان بيده ستاراً بسيطاً كشف عن قاعة فقيرة يعبق فيها دخان أزرق تتبدي فيه شخوص مذكرة ومؤنثة يتوسطها جسم امرأة يتلوي في شبه عري، فما إن مرق خليل وراء الستار حتى شم أيضاً رائحة الكحول القوية المغثية، وسمع صيحة الراقصة:

ـ كأس للشيخ خليل يا بنت!

وصوت بنت من وراء ضبابة الدخان التي تنفثها نرجيلات الحشيش من أركان القاعة:

ـ مرحباً به يا ست هاجر!

بنت في ثياب غلام، قصيرة الشعر غلامية، لم تلبث أن جاءت بالكأس والابتسامة:

ـ ونرجيلة من جوز الهند يا شيخ خليل؟

لم يكد صدرها ينهد، كأنها على حدود الجنس، لا بنت ولا ولد، طاقة مفتوحة على الغيبوبة.

ـ ما اسمك يا حلوة؟

تأودت الغلامة ونفحته بلمسة من أناملها في عنقه:

ـ اطلب لي كأساً وأنا أقول لك اسمي وأشياء أخرى تعجبك!

آه! أشياء أخرى تعجبني!

آه! والجوزة أيضاً يا ولد! وعري هاجر يتلوي والمزمار في الضباب ينوح ورضوان في مئزره الأصفر بباب الغيبوبة والنسيان!

آه! وخذ هذين الدينارين يا خليل وإياك أن تقول لأحد إن شيخك عباس يقامر في الخفاء واذهب إلى زريبة المعلم جرجس في كفر الطماعين وراهن على الكبش الأبيض بطل النطاح والديك الأحمر بطل المناقرة ولك المكافأة!

آه! وكأس أخرى! وثالثة!.. وأنفاس وأنفاس!.. هلمي يا غلامة وكل ما لا يعجبني وهم من الأوهام!.. لم تكن هناك كلاب يقطر من أشداقها فتات اللحم، ولم تنفك تكة سروال الرمة ولا دقت أضراس الكنفاني في رأسه والناس شهود والشمس طالعة!

آه! هاتي أشياء أخرى تعجبني!

هاتي كل الغيبوبة وكل النسيان!

وبعد الرقصة الطويلة طافت هاجر بشعبها الصغير ثم جاءته وهي لا تزال تمسح عرقها وجالسته وهو في عز سلطنته:

ـ أعجبتك البنت؟

ـ بكم تبيعينيها؟

ضحكت ربة الماخور:

ـ عهدي بك تعض على الدرهم الواحد بأسنانك؛ فمن أين لك كل هذا السخاء إن لم يكن في هذا السؤال قلة أدب مني؟

ـ فيه!

قالها والدنيا بكل ما فيها دوارة، فطوت المرأة كتفيه بذراعها الساخنة وهي لا تزال تضحك:

ـ هل سرقت شيخك على آخر الزمن؟

ندت عنه ضحكة بالغة القصر كأنها صيحة مخنوقة، وسكت لحظة قبل أن يقول للمرأة وهو يتأملها:

ـ بل سرقت رمة مصلوب على سبيل ست الملك، أنا وكلاب الحي!

دقت بكف غير مصدقة عري صدرها:

ـ قل كلاماً معقولا! وهل يترك الجند على أبدان المصلوبين والمشنوقين والموسطين والمخوزقين برونزة واحدة!

لكن أسطورته المختلقة بنت الضباب والغيبوبة كانت قد أعجبته:

ـ صدقيني يا هاجر! كان في عقدة تكة لباسه كنز صغير لم ينتبه إليه زبانية السلطان فأخذته في الظلام وتركت اللحم والعظم للكلاب!.. لكن هناك وسيلة أخرى للحصول على دراهم ودنانير كثيرة.. هل تحبين أن تعرفيها؟.. راهني على الكبش الأبيض وعلى الديك الأحمر!.. خذي.. ها هو عنوان المعلم جرجس في كفر الطماعين!.. قولي له إنك من طرف شيخي فينفتح لك باب الرزق!. هذا أسهل من أن تنبشي في ظلام الليالي عقدة تكة كل مشنوق ومصلوب!

وروعت المرأة وفلول شعبها عندما رأوه في نهاية موعظته القصيرة ينكفئ على وجهه فوق أرض الماخور القذرة مضروباً بنوبة عنيفة من الصرع.

(٦)

عند الدرجات الحجرية القليلة وراء خميلة الريحان وجدا في انتظارهما العباءتين ومناشف وقناني عطور بأيدي جاريتين تلبسان على هوي الدوادار سراويل الغلمان وعمائمهم اللطيفة، ودون أن تغض إحداهما البصر قبل أن يدخل كل من الرجلين في العباءة المفتوحة أمامه بين يدي الجارية قالت إحداهما وهي تتكسر مستضحكة نفسها:

ـ سيدي الدوادار ازداد سمنة وروعة!

وكان الدوادار يحب هذه الرياضة الصباحية وطقوسها الناعمة، ويقول لمملوكه الأسباني الأهيف «أحمده» وهو يسبح معه عائدين من نشاط السباحة إلى الشاطئ:

ـ لا يعيش في مصر إلا من بيته على النيل!

وفي كل صباح يمشي أمامه مملوكه في اتجاه الشاطئ متخطراً في عباءة قصيرة وهو ينحي الطواويس بيده من طريق مولاه، والصبح في بستان قصر الدوادار جميل، وما إن ينزلا تلك الدرجات حتى تبل مياه النيل أقدامهما الحافية ويتخلص المملوك وأستاذه من عباءتيهما ويعانقان الماء الأسمر متجردين ضاحكين.. ويلمع جسماهما في سمرة الماء وهما يبتعدان سابحين بقوة كسمكتين شاهقتي البياض، وبين لحظة وأخرى يضحك «أحمده» ملء النيل ويغطس مختبئاً من صاحبه ثم يظهر له من حيث لا يتوقع فيبغته ويضحكه ويدغدغ مكامن الانتعاش في نفسه.. ويتكلمان في حرية.. ويذكر «أحمده» ما يتناقله المماليك عن الظاهر بيبرس الذي كان يسبح في النيل بلباس الحرب وهو يجر خلفه طوفاً يجلس فوقه بعض رجاله، أو يتنهد خير بك ويزعق فجأة في غضب والموج يجبره على جهد شديد في المقاومة:

ـ أسبوعان مرا على طلوع ابن المجنونة للأريكة!

ويضحك المملوك الفتى وهو متعلق بذراعه في عنق خير بك وشعره متساقط مع الماء على وجهه:

ـ ما الذي ينقص أستاذي حقاً؟ الصنجق وقطيفة العرش؟ لماذا تذكر دائماً ذلك المجنون الذي صنعته بيدك؟

ـ استرجع لنفسك صورته على الأريكة السلطانية يا أحمده!.. هذه أشنع فعلة في حياتي!.. وضعت على البلور قرداً يسحل!

لكن المملوك الصغير يغمز خصر الدوادار:

ـ دعه هناك يتعفن واحكم كما أنت حاكم!.. اسمع كلامي! الكلام المخلص!

ويبصق خير بك ما تسرب إلى فمه من الماء:

ـ إن وجوده هناك غير مبلوع!.. هذا شعب النكتة ومع ذلك كنا نحن الذين رفعوا أمامه على العرش بلباي الهزأة، نكتتنا الكبرى!

ويسترد أنفاسه قبل أن ينفض على الماء كل ما في صدره.. أمس فقط قال له الخاسر الحقير ـ دون أن يطلب هو منه شيئًا ـ إنه مهر بالخاتم السلطاني وثيقتين إحداهما تجعل زمام إقطاع الدوادار عشر قري من أعمال الجيزة تشكل مستطيلا حسن الري والصرف ويفلحها أكثر من ستة آلاف فلاح وفلاحة.. والوثيقة الثانية تجعل لك أنت يا «أحمده» إقطاع قرية ميت جهينة، كما ترتب لك جمكية شهرية وكسوة سنوية وراتبًا منتظمًا من اللحم والخبز والتوابل والشمع والعليق والزيت.. ولم يكتف الجبان بهذا بل سأل إن كان عنـد الدوادار العزيز رغبة أخرى يقولها فينالها!.. لا لا!.. إن وجـوده هناك غير مبلـوع!.. إنه لا ينزل من زور أحد، لا الأمراء ولا الأتباع ولا الزعر ودود الأزقة.. هي غلطتي وإصلاحها واجب عليّ!.. وأنا هناك والله أعز وأنسب!

ويشطح مخ المملوك أيضًا وراء شأنه، فما إن يسكت مالكه بعد ثرثرته العصبية لينظم لهاثه حتى ينتهز الفرصة:

ـ بلا جدال يا أستاذي! بلا جدال!.. أما أنا فلا أعرف مكان ميت جهينة هذه!

ـ مجاورة لإقطاعي.. أنا بنفسي اخترتها!.. في كل مكان وفي كل شيء ستكون في جواري يا أحمده!.. أحمده أحمده!

ولا ينسي الأمير ـ وقد التف بعباءته عند شط البستان ـ أن يداعب وجنة الجارية التي امتدحت رجولته وفتحت نفسه للدنيا قبل أن ينقض مع مملوكه على خميلة الريحان حيث أعدت مائدة الصباح، ولا ينسي «أحمده» أن يخرج للجاريتين لسانه.

وعلى الطعام قالت الجارية الخفيفة وهي تصب لهما عصير الفاكهة في كئوس من فضة:

ـ منذ ظهر القمر غارت النجوم!

ـ يا حمقاء! ليس «أحمده» شيئًا في اليد مثلكن حتى تغرن منه، إنه اليد اليمني نفسها!

قالت الجارية الثانية وهي تسحب من أمام الدوادار كومة من عظام الكتاكيت المشوية:

ـ هل أنسحب من لساني أنا الأخرى لأقول كلمتي؟

ـ انسحبي منه إلى الأبد تكونين أجمل!

فأخرجت لسانها للمملوك المدلل قبل أن تتكلم مائلة بصدرها على كتف الدوادار:

ـ نحن لا نكره «أحمده» يا مولانا الدوادار لكن الشيء الخطير هو أن يكرهه خشداشيته!

وغضب «أحمده» في هذه المرة ونهر الجارية:

ـ كاذبة يا أنثي! كاذبة!.. زملائي يكرهونني؟.. هذا كذب.. لولا خشية الدوادار لعبدوني!.. سواء منهم الذين تربوا مثلي في أستاذيته أو الذين تجمعهم الزمالة عند سائر الأمراء، إلا القليل.. أنا حبيب الكل فازدادي غيظًا وانفلقي نصفين إن شئت واخرسي!

والتفت غاضبًا إلى أستاذه:

ـ اصرفهن عني واطلب لنا الشطرنج وتجهز للهزيمة مثل كل يوم!

قال الدوادار وهو في نشوة من هذا الصراع المذكر المؤنث:

ـ هاتي الشطرنج يا جلنار واشهدي على الفتي!

لكن الحصي الملون في ممر الخميلة كشف اقتراب قدم مسرعة، ولم يلبث أن ظهر مملوك من حجاب الدوادار يستوقف النظر بعينيه اللوزيتين وقصره الشديد وملامحه المتعاظمة وعلى رأسه طرطور مغولي من رقع صفراء وخضراء يعتلي قمتها جرس صغير حساس لطيف الثرثرة:

ـ ناظر ديوان الأحباس في بهو الاستقبال ينتظر تشريف مولانا الأمير.

قالها القزم ورقص طرطوره حتى صهلل الجرس، ولم ينصرف قبل أن يتلقي الإشارة من الدوادار الذي تبسم وغمز «أحمده».

ـ الأمير نادر الألفي في هذه الأيام مشوق إلينا!

لمس «أحمده» بأطراف أصابعه شعر الجارية الرابضة على الوسائد الصغيرة عند قدميه:

ـ خذ حذرك من نعومته فما أحسبه إلا بصاصًا لصاحب سره الرومي!

ـ بل هو أنعم من هذا، وأنا أفهم نادر هـذا وأعرف كيف ألعب معه على المكشوف.. إنه يلعب على حبلين حتى يتبين أي الفريقين أدني إلى الانتصار، فريقنا أم فريق تمربغا وباقي أبناء الزنا.. وهذا الذي أعرفه عنه يعرفه أيضًا بلا مراء تمربغا الرومي.. إن ناظر الأحباس مفضـوح لي فـلا تخـف عليّ!... ناظر الأحـباس معروض للبيع وعلى المشترين المزايدة والله المستعـان!.. انتظرني هنا حتى أذهب إليه ليعجم كل منا عود الآخر مرة أخرى، واستمتع بوقتك وإلا قطعت عنقك يا جلنار أنت وصاحبتك هذه ذات الردف الضاحك.. ما اسمك يا بنت؟

ـ اسمي نغم، عبدتك.

أجابه بذلك صوت في خفوت ضوء الشمعة، ورشقت قلبه نظرة عطشي جعلته ينطلق نحو القصر وهو متوقد الحس كما لو كان ذاهبًا لعناق حسناء لا أفعي من جب الأفاعي، وكان الآخر هناك في صدر البهو ينتظره، فدخل عليه وهو فاتح ذراعيه:

ـ أهلا بمنشار الأحباس الأعظم!

وفتح الآخر ذراعيه وهو يضحك في ثبات:

ـ يا سيدي! إن كنت أنا آكل أوقاف المسلمين فأنت آكل البر وما حمل.. دعوا لغيركم لقمة!

وجلس الأميران بعد القبلات متقابلين فلم يتريث خير بك واقتحم الحديث من حيث انقطع في آخر لقاء لهما:

ـ أتعرف لماذا أحبك يا أمير؟ لأنك مثلي تلعب بمزاج!

تمهل نادر على عادته قبل أن يرد:

ـ اسمع يا خير بك!... أنا لا ألعب أبدًا... ليس في طبعي اللعب... طفولتي مطموسة... لم أكن قط طفلا!

قال خير بك وهو مطرق:

ـ لست في هذا وحدك!.. أنا مثلك ابن دكة المماليك، ومثلك لا أعرف إلا اليد التي خطفتني صغيرًا من أرض بعيدة!

ورفع رأسه وواجه ضيفه:

ـ وحتى في البيع لم يكن لي مثل حظك... أنت اشتراك بلباي يوم لم يكن غير أمير وسط الأمراء ودفع فيك ألفا صارت جزءًا من اسمك... وهو اليوم على الأريكة متسلطن وأنت بحمد الله فارد يدك في خيرات الأحباس وأراضيها وجوامعها وربطها وزواياها وحوانيتها وخاناتها وحماماتها ومعاصرها وطواحينها وسائر ما هو مكتوب في كشف موجود عندي!

وقال نادر الألفي في بساطة هادئة:

ـ عظيم جدًا... وفي يدنا أيضًا دفاتر لا كشوف، وعندنا دائمًا أشواق إلى أخبار سيرتك العطرة!

وضحك الأميران وربت كل منهما ركبة الآخر في مناقرة ديوك مدربة، ضحكة سلطانين مختصرين.

وبدأت المفاوضات.

(٧)

حميت الشمس واستراح بلباي في ضجعة على الأريكة في صدر الخيمة الصفراء الكبيرة التي ضربت في ميدان القبق الفسيح بجهة باب اللوق، وانتظم الفرسان أمام الخيمة صفاً على ظهور الخيل وخلف كل منهم مماليكه يحملون له قسيه وسهامه وانتظر الجميع إشارة السلطان التي ينفخ عندها في النفير لتبدأ المباراة على القرعة الذهبية.

وكان القبق الذهبي المرفوع على قمة عمود عال من الخشب منصوب في قلب الميدان متوهجًا في ضوء الشمس على شكل قرعة عسلية، وبداخله طير حمام متفزز في محبسه الذهبي كأن في قلبه المضطرب علماً غريزيًا بأنّه عما قليل سيكون هدف عشرات السهام.

ـ متى ينتهي من أكل العنب فإني أشعر أن القرعة اليوم من نصيبي!

تبسم أتابك العسكر عند هذه الهمسة من جاره في الصف والتفت إليه بوجهه الوسيم الذي يتدفق إليه الدم عند النشاط كأنه يحاول الوثوب من تحت الجلد في وجه من يخاطبه:

ـ عندما ينظر في فضة الطبق فلا يجد فوقها حبة عنب واحدة، عندها فقط يعتدل في جلسته ويتجشأ ملء الخيمة ويعطي الإشارة.. ألا تعرف يا عزيزي «بظلم» غرامه بالعنب حبًا وعصيرًا وخميرًا؟

التمعت عين الفارس الأعور القميء الذي لا تخفي العباءة الفضفاضة نحوله الشديد، وتقلصت شفته وهو يقذف رده في ازدراء:

ـ أعرف يا عزيزي تمربغا أنه البطين السكير، لكننا هنا لرمي القبق!

تمهل أتابك العسكر قبل أن يقول لصاحبه في مكايدة:

ـ واعلم يا سيدي الوالي أنك واهم في ظنك أنك حائز السبق، لأن في نيتي أن أظفر اليوم بالقرعة وبهدية السلطان!

والخيل تدق الأرض بحوافرها القلقة، ومملوك مديد القامة في مقدمة قاووقه شارة صغيرة معدنية اندفع من خلف الصف نحو الجواد العصبي الذي يعتليه والي القاهرة، ورفع إلى رئيسه ورقة مطوية معقودة من منتصفها برباط أحمر، فتناولها الأعور ونظر فيها قبل أن يقول لمملوكه في غضب مكبوت:

ـ الحمير!.. ما الفائدة من قتل لصين أو ثلاثة إذا كان قد أفلت منهم شيخ المنسر بالغنيمة!

وبإشارة من يده صرف المملوك الذي تواري في زحمة الأتباع الراجلين خلف صف الإمارة الراكب، والوجع المعهود في معدة الفارس القميء يتجاوز طاقة الاحتمال إذا امتطي صهوة جواده، لكن ما من قوة في الأرض يسعها أن تمنعه من الظهور بمظهر المعافي في صف الأمراء البارزين تحت عين السلطان، ولا كان في القاهرة كلها من يعرف الألم الفظيع الذي يفري أحشاءه غير جاريته عبير التي صارت كاتمة سره منذ عرفت حكاية السم الذي دُس له في كأسه وكاد يُجهز على حياته.

ـ خيراً يا سيدي الوالي؟ حريق أم فتنة؟

كان في بطن «بظلم» مثل وخز السكين، لكن قدرته على كتمان عذابه هائلة:

ـ لا هذا ولا ذاك، بل كنز فضة طار من يدنا بغفلة من رجالي الأغبياء!

ضحك تمربغا مستمتعاً بامتقاع الوجه الضئيل المجرد من كل وسامة:

ـ تقصد أنه طار من يدك أنت يا سيدي الوالي؟!

ووسع «بظلم» أن يرسم هو الآخر على وجهه طيف ابتسامة:

ـ لا تكايدني يا تمربغا فأنا أعلم من شأن يدك الطويلة في شئون العسكر ما لا يرضيك أن يلفظ به لساني!

عندها التمع في عيني الرومي وميض خبيث وهو يتظاهر بأنه يتشمم الهواء بأنفه الدقيق:

ـ أعرف يا عزيزي «بظلم».. أعرف أن لك زبانية استخبار في كل شبر من البلد، لكن قل لي!... ما هذه الرائحة الزكية التي تشمل الميدان؟ لكأني أشم جبلا من الحشيش!

وتلقي «بظلم» الوخزة بثباته الطبيعي، فإذا كان صحيحاً أن من مهام منصبه مقاومة مناسر اللصوص وأوكار الفساد وكهوف الحشيش، فما يجهل أحد في القاهرة أن جهة باب اللوق عامرة مع ذلك بمزارع الحشيش الذي يحتمي كبار زُراعه وتجاره بوالي القاهرة ويقاسمونه أرباحهم الكبيرة واستضحك وهو يتلفت نحو باب الخيمة:

ـ حمداً لله! صاحبنا يداعب الآن آخر حبات العنب!

قال أتابك العسكر في إصرار على أن يكون صاحب الكلمة الأخيرة في موضوع الحشيش:

ـ أسأل الله ألا تكون براعتك في قمع الزعر وأبناء البلد من نوع براعتك في تغيير موضوع الحديث!

ونفخ فجأة في النفير فتداعت لرنينه الحاد أبدان الخيل الذكية ودنا من ظهرها الأتباع حملة السهام، وكأن وهج القرعة الذهبية ازداد فجأة أمام عيون الأمراء، وبرز السلطان والعبيد يسعون بحصانه الأبيض ويهيئون لجلالته الركاب.

وافتتح بلباي الرمي فواري المماليك ابتساماتهم إذ يطيش سهمه الرشيق الصنع ساعياً في غباء إلى صفاء السماء، وتتابعت السهام متدانية من القرعة الذهبية دون أن ترن القرعة ولو

بلمسة من أحدها.. وطير الحمام فيها، على ما به من خوف، آمن من سهم يمرق من داخلها فيخرج به من طرفها البعيد ميتًا، وتبسم «بظلم» هازئًا بسهم «تمربغا» الخائب كما تبسم تمربغا هازئًا بسهم بظلم، حتى كان السهم المسدد الذي مر من داخل القرعة وخرج بطير الحمام الأبيض دامي الفؤاد وعندها ارتفعت صيحة عامة رجت الميدان:

ـ القرعة اليوم للدوادار! عاش الدوادار!

ومال الأعور على جاره في الصف لينفث غيظه:

ـ لا أنا ولا أنت! أخذها ابن اللئيمة!

تضاحك أتابك العسكر وهو يلتقط الغمزة:

ـ يا راكب السلطان، يا راكب القرعة!

وتأمل بظلم صاحبه تمربغا الذي يتدفق جسمه القوي بالعافية: تُري هل يعرف هذا الرجل الجميل المرح أن الدوادار وعدني بمنصب أتابك العسكر إن صارت إليه السلطنة، وماذا يكون قوله لو عرف؟.. أكبر الظن أنه سيقهقه ضاحكًا دون أن يفقد سكينة نفسه قائلا في طمأنينته الهازئة: وعد لص كبير للص كبير!

وخرج من الصف حصان الدوادار الأسود وتقدم مختالا في مشيته المستعرضة حتى وقف بفارسه إزاء حصان بلباي الأبيض، ورفع خير بك يمناه بتحية السلطان:

ـ المجد لبلباي المجيد سلطان البلاد!

وعمامة السلطان اهتزت وكأن شواربه تحتها ترتخي:

ـ مبروك يا خير بك! موفق! هاتوا الفرس لسيد الرماة!

وبظلم من مكانه في الصف راشق عينه الواحدة فيهما لا تفوته من شأنهما لفتة: أي الحصانين، الأبيض والأسود، يحمل سيد البلاد؟ وهل يسعه هو لو اختفي تمربغا من الوجود وصارت الأريكة لخير بك أن يكون في الظاهر صاحب الجند وفي الباطن السيد الفعلى وصاحب الكلمة العليا في أهل البلاد وفي هذا القطيع الممتاز الفارض سيادته على البلاد وأهلها؟.. آه!.. ما أبعد المسافة، لكن ما أسهل الوثوب!.. هي ذي الأريكة وما على الأريكة!.. نظرة بين عيني رجلين، وفي عين بلباي صاحب الصنجق والعصائب السلطانية ارتخاء وانكسار وفي عين خير بك دواداره وحاجب بابه وكاتم سره ثقة وهيبة وتسلط، ولم يعد في البلاد مملوك ولا حرفوش لا يسمي بلباي «السلطان قل له!» من كثرة ما أشار إلى خير بك في كل مسألة وقال كلمته الذائعة: «إيش كنت! قل له!».

وتنهد «بظلم» إذ يرى الحياة كما رآها دائما من خلال كل تلك السيوف، ونفضه من أحشائه الوجع:

ـ آه! ثمالة السم القديم لا تزال في بطني!

وفي موقفه عند الخيمة السلطانية كانت جاريته عبير حاضرة في أفكاره وهو متصلب فوق الحصان، ها هي بكلامها الساحر تدني منه العرش وتعطر له الأماني وتقنعه بطيب الرقاد الذي ينسيه عينه العوراء وهموم القاهرة التي يحملها منذ صارت إليه ولايتها، ها هي تمرضه، ها هي ترقص بين يديه في عريها العنبري، ها هو مطاع ومهاب ومحبوب، وها هو النفير يدوي معلناً ساعة الانصراف من الملعب وبظلم يتنهد مرة أخرى وهو يغمز بطن الحصان بمهمازه ويتحسس مقبض سيفه، شاعراً أن الشقة بعيدة وإن تكن قبضته على السيف قوية.

(٨)

ـ ربنا يا معلم يجعل استفتاحك لبنًا! يا صباح الخيرات!

دفس شنودة أنفه في أوراق القضايا المفتوحة أمامه دون أن يزيد رده عن همهمة كالزمجرة قاطعة الطريق على كل استطراد، وغمز عمر الحانوتي صديقه صانع النعوش:

ـ ينطق حجر الطاحون ولا ينطق هذا العجل!

وقال أيوب وهو ينحشر مع صديقه بين بائع بخور شاب وسقاء شيخ يحمل في قمة ظهره حدبة في حجم القربة:

ـ ربنا يلطف بعيسي الغلبان ويحنن عليه قلب القاضي!

كان الهم الذي جاء بهما مبكرين أخطر من أن يشغلهما معه في ذلك الصباح شأن آخر من شئون الحياة والموت، ولم يكن في دار القضاء عندما دخلاها غير عدد قليل من الباعة وأشباه المعدمين والشطار، وشنودة كاتب المجلس ومحرر الدعاوي والأحكام.. وفي انتظار ظهور القاضي من الباب الداخلي الذي يقف عنده الحاجب متصلبًا كان كاتب المجلس على عادته منكبًا بوجهه السمين فوق تلال الأوراق التي يحتمي بها من فضول المتقاضين الذين لا تنتهي لهم أسئلة ولا تفرغ لهم تحية، وكانت حدبة السقاء قد تكورت وهو ينكمش مفسحًا بعض المكان، فالتفت إليه عمر بوجهه الودود وحياه في أذنه:

ـ شد حيلك يا عم جمعة.. خير إن شاء الله؟

تهللت الأخاديد في وجه السقاء للكلمة الطيبة وقال وهو يهرش في الخرقة القذرة المحبوكة حول شعره الأبيض القليل:

ـ الأمر لله يا ابني! والله أنا ما ضربت حصان المملوك على كفله إلا بعد ما رفس الحصان جنبي وأنا رجل كبارة ولا أستحمل زقة!

وتدخل أيوب في الكلام مائلا بوجهه أمام صدر صديقه الحانوتي حتى يضمن وصول همسته إلى سمع السقاء الضعيف:

ـ سمعت يا عم جمعة إنك لما رفست الحصان بعزم ما فيك انقلب المملوك بوجهه على الأرض فانعوج منخاره!

فرفع السقاء يديه أمام وجهه مفتوحتين على السماء:

ـ ربنا أعلم!.. هل أقـدر أنا على قلب قطة على وجهها!.. الولد المملوك هو المعتاد على هذا الانقلاب، وأنا يا جدعان ما لي دعوة!

ضجت المحكمة بضحك عام وأدته صيحة هادرة من الحاجب الواقف على باب القاضي:

ـ اخرس يا حرفوش يا ابن الحرفوش إنت وهو.. اخرسوا! هذه محكمة لا غرزة!

وصفق بيديه في عظمة:

ـ يا أعوان! أسكتوا الحشاشة!

وكان شنودة وأوراق الدعاوي بين يديه قد رفع رأسه قليلا وشمل الجمع بنظرة من بين الجفون، هادئة عليمة:

ـ لماذا تأخر الجلواز؟

لم يسمع الحاجب فصاح من عتبته بصوته المتعاظم:

ـ ماذا تقول يا حضرة كاتب المجلس؟

فرفع شنودة هو الآخر صوته الرتيب المنغم:

ـ هات لهم الجلواز، وحرك لنا فضيلة القاضي!

أشار الحاجب إلى أحد الأعوان وأسر في أذنه كلمات قليلة فانطلق الرجل من باب القاعة تشيعه همسات مكبوتة:

ـ الجلواز راحت عليه نومة!

والتوي عنق بائع البخور نحو جيرانه في الصف ليلقي بهمسته:

ـ يحدث له كثيراً أن يتأخر إلى ما بعد ظهور القاضي ويسمع له من فضيلته كلمتين في العظم، ولا فائدة!

وفي السكون الذي سقطت إليه همسات المتهمين والمتقاضين والنظارة كانت همهمات عم جمعة المتكررة لا تفتأ تستفز غمزات وضحكات مخنوقة، لكن عاصفة أخرى من الضحك تفجرت من الحناجر عندما ترنحت حدبة السقاء الظريف وهو يمصمص بشفتيه:

ـ بقي جمعة الذي فات الستين يقلب الولد المملوك؟... يا ريت يا اولاد!

وإذا بصرخة مفعمة بالألم تنبعث من آخر الصفوف ليموت بانبعاثها المرح العصبي وتلتوي الأعناق إلى الخلف، فقد ظهر الجلواز ولذع أقرب الظهور إليه بعصاه الرفيعة الطويلة إيذانًا بقدومه!

ولم يستخدم الجلواز عصاه بعدها ولا كانت له حاجة إليها، إذ سقط المكان بمن فيه في صمت تضخم فيه وقع خطي الجلواز وهو يمشي في اتجاه المنصة على مهل، في يده العصا

الخيزرانية المجزعة وعلى رأسه قاووق الوظيفة وفي ملامح وجهه الصارم كبرياء إله مختصر، وكان الصمت والخوف وتوضحت حدود الأدب.

والكل في انتظار الحركة العصبية التي تنفض جسم الحاجب عندما يستشعر خطو القاضي من وراء الباب، وفي نفس الحانوتي مع الرحمة بشيخوخة السقاء الأحدب إشفاق على مصير صاحبه عيسي الذي لعبت بعقله امرأة.. والكيس المزرور على بعض أنصاف الدراهم وأرباعها انتقل في السكون المعبدي من حزام المكاري المتهم باستغفال الزبائن إلى جيب الشاطر الذي تشق خده الأيمن ندبة من أثر طعنة سكين قديمة، وتشق زفراته الخافتة سكينة الصمت:

ـ الطف بعبيدك يا رب!.. الناس تأكل بعضها!

وانتفض الحاجب فجأة وزعق زعقته التي تمهد لظهور القاضي بموجة من رهبة تسري في الأوصال، وظهرت العمامة الكبيرة في وقار، وعبق السكون بآيات سورة الكرسي التي تناقلتها الشفاه المطبقة كالسر الروحي، إلى أن استوت العمامة على الكرسي وألقت في بحر السكون بمجداف الحركة:

ـ همتك يا شنودة فأنا لا أحب أن تفوتني صلاة الظهر!.. هل أحضر الأعوان جميع المتهمين والشهود أم الحال المائل يا شنودة طول عمره مائل؟

وبدأ الترتيل بصوت شنودة الغنائي، وتدافعت الأسماء وصيحات إثبات الحضور، حتى هز الغضب العمامة الكبيرة عندما تبينت أن أحد المتهمين غير موجود في المجلس، ونادت العمامة الكبيرة رئيس الأعوان وأوقفته أمامها ومالت عليه تستجوبه:

ـ إيش تقول؟.. طفش؟.. يعني عجزتم وبؤتم بخسران مبين؟ هرب منكم المكفتاتي اللئيم الغشاش؟

أرهف أيوب وعمر سمعهما لكلام القاضي عن صديقهما المختفي، ومال صانع النعوش على أذن الحانوتي:

ـ نطق ابن خربة الذمة بالحكم على عيسي من قبل أن ينظر قضيته! وظلت عين الحانوتي على القاضي وهو يهز رأسه في أسي:

ـ والله ما غشاش إلا عمتك!

وطوح الجلواز بعصاه الأفعوانية في الهواء فكان لها أزيز خاطف فوق الرءوس:

ـ سكوت! سكوت!

وغمت نفس أيوب الذي يعلم براءة صاحبه.. إن عيسي صادق في قوله، وكان على حق في اختفائه.. لم يغش الفضة التي استخدمها في عملية تكفيت الصينية.. والحكاية فيها لعبة والدعوي كيدية من جانب الست، الله يلعنها.. حرم نائب كاتم سر ديوان الإنشاء، الله يلعنه.. لكن عيسي بحمد الله في أمان ولن يلقي به مع وطاويط السجن وقبائحه وذله، ولن يجلد

أمام الناس حتى يصوت كالنساء، ولن يزفه المنادون وهو على حمار التشهير والتجريس.. زوجة نائب كاتم السر لعبية وكاتم السر غبي، أما عيسي فلا يمكن أن يغش أحداً في الفضة!.. كبرياء صنعته الجميلة المتوارثة تمنعه من الغش فيها، لكنه يسقط في الحب مثل الرطل.. هو حقاً في قوة الثور لكن قلبه فيما عدا صبابات العشق شريف وأبيض من اللبن الحليب.. وهذه العمامة لن تنصف عيسي لأنها تهضم الزلط، وأصحاب الدعوي من عتاة اللصوص وعندهم زلط سهل الهضم.. مسكين يا عيسي يا أخي.. ومال على صديقه بهمسة حازمة:

ـ لن يرتاح قلبي قبل أن يفلت عيسي من القاهرة!

(٩)

باب الزاوية عند العمق المسدود لزقاق الناضوري لا يفتح إلا بإذن من بهلول حليق الرأس لا تستر مرقعته الصوفية القصيرة غلظ لحمه، مهزار طروب:

ـ اطلبوا الصدقة من الباب المجاور عند الفاسد ابن الفاسد الحاج سليمان لأن العيش والملح خلص من عندنا!

ضحك الصديقان لأول مرة منذ تركا دار القضاء وتفتحت نفساهما لمن صحت له مقامات الولاية، وقال له عمر من خلال الباب الموارب:

ـ يا سيدي الدرويش! هذا أول وقوف لنا ببابكم، والضيف لديكم لا يضام.. ونحن محاسيب الشيخة زليخة ولنا عندها كلام!

والمجذوب يضحك في مرح صبياني مطلق وهو يصفق بيديه:

ـ يا ميتًا يحمل موتي!.. يا ميتًا يحمل موتي!

ـ أنا في عرضك يا سيدي الدرويش! أين الشيخة زليخة؟

ـ رح لها من باب النسوان!

وانفجر البهلول في وجه أيوب بضحك طفولي:

ـ هل محاسيب زليخة كلهم موتي يحملون موتي؟

ـ يا سيدي الدرويش! نكلم الشيخة كلمتين!

والضحكة الطلقة التي تسد الباب جلجلت فجأة كالنبع الفوار:

ـ تعالي يا زليخة كلمي المحاسيب حملة الأخبار!.. يعني الجدع ستدخلونه الجنة؟! هنا سجن وهناك سجن.. الأحسن له أن تتركوه هنا في سرداب زليخة!... محاسيبك يا زليخة بالباب، يا زليخة نظرة!

وما لبث الباب أن انفرج وظهرت رأس العجوز المحلوقة بالموسي واليد حاملة المقرعة:

ـ سلام مجاذيب يا جدع!

وقبلت العجوز كتفي الرجلين قبل أن تقودهما في حوش الزاوية الداخلي خلال جماعات من حليقي الرءوس حملة مرقعات الصوف، وإذا بصوت يلقي السلام الذي طلبته الشيخة:

ـ ما عليه شيء يا حضرة القاضي! ما عليه شيء!

ومثل بهلول الباب كانوا خفافًا كالمعتوهين في مرقعاتهم التي تختفي فيها معالم الرجل والمرأة وتنبههم، عفويين عند الحركة والكلام.

وصوت آخر عارف بالهدف الذي يسعي إليه ضيفا زليخة حياهما في تهليلة:

ـ الوقف المحبوس على زاويتنا سخي، والفقر بعد ذلك شعار الصالحين، فإذا لم يرغب صاحبكم فيما جئتم من أجله حلقنا له وحفظناه هنا في عيوننا.

كان قلباهما يخفقان بعنف موجع، عمر وأيوب، عندما فتح باب في أقصي سرداب، في حمي زليخة، وظهر فيه عيسي بوجهه الذكي اللهفة وقامته الشامخة:

ـ الحكم في عيونكما ناطق والحمد لله!

وانفجر الرجال الثلاثة ضاحكين في العتمة العطنة، ثم دخلوا الحجرة الأرضية الصغيرة وتجمعوا على الخشبة البالية المطروحة فوق حصيرة، وقامت الشيخة بين أيديهم بالمقرعة على كتفها في وقفة انتباه، وأصوات الدراويش تقتحم عليهم فرجة الحائط العليا كأنها رميات هينة برشاش ماء منعش:

ـ احلقها يا عيسي!

ـ أقول لك لن يحلقها.. عيسي سيشرق ويغرب ويلعق الدم ويسف التراب.. عيسي أمامه جهاد!

ـ احلقها يا عيسي!

ـ أقول لكم الحق إن عيسي أحسن عند الله بشعره في رأسه!

وزأرت زليخة كي تسكت بهاليل الحوش:

ـ تأدب يا متطرف والزم حدودك!

سكتت الأصوات، وقال عمر في هدوء وهو يأخذ كتفي عيسي المتينتين بين يديه:

ـ أريد منك أن تقسم أمامنا الآن أنك لن تقع بعد اليوم في غضب امرأة تطاردك بنقمتها بعد إعراضك عنها، وأنك ستتزوج في حياتك الجديدة وتغض بصرك عن نساء الغير!

قال عيسي وهو يغالب الضحك:

ـ أتزوج إن وجدت في ميت جهينة هذه التي تتكلمون عنها امرأة تناسبني، من السمان البيض!

رفعت الشيخة مقرعتها فوق رأسه في حركة عنيفة أخافته، ووضع أيوب يده على كتفه:

ـ الفلاحين؟.. لم يعد عندهم شيء سمين.. لا المرأة ولا البهيمة.. اسألني فأنا أزور بلد زوجتي كل سنة مرة.. الجلد على العظم والعود يابس.. لكن في نسوة ميت جهينة وكل تلك المنطقة في قلب الجيزة حلاوة لا يبددها العمر، وخالتك ست الكل من بناتها، وأظن أنها تعتبر حلوة؟.. هل تحب أن أقول لها إنك تجدها محرومة من كل حلاوة؟

ـ خلاص!.. أتزوج بنتًا من قريباتها وأسمنها أنا بمعرفتي!

لم يعد في نفوسهم حزن، وتحت المقرعة المرفوعة فوق رءوسهم ردت إليهم الطمأنينة، ووسع عمر بعد قليل أن يعلن الحكم:

ـ عليك يا أخ أن تختار: إما أن تدفن نفسك في ميت جهينة وتتزوج ناشفة من نسائها وتنسي كل شيء عن الفضة والنحاس والتكفيت والفن، وإما أن تدفع فرق ثمن الفضة لكاتم سر الديوان وتسلم بدنك وروحك وكرامتك لأربعين جلدة بالسوط أمام بيت القاضي.

قال أيوب وهو يطوق كتفي صديقه بذراعه:

ـ المهم هو أن تعيش.. ألا تخلو منك حياتنا.

وأطرق عيسي لحظة قبل أن يتكلم في بطء كأنه ينتزع الكلمات من غور سحيق في وجدانه:

ـ إن شئتم الحقيقة فإني لا أستطيع أن أتصور حياتي في قرية.. أصابعي ستجن عندما لا تجد نحاسًا ولا فضة وتعرف أنها لن تشتغل بالتطعيم الجميل مرة أخرى.. أنا لا أصلح فلاحًا.. ولا درويشًا.. ومع ذلك لا بد مما ليس منه بد، وسأحاول أن يكون عندي لحم طري ودقيق أبيض عندما تشرفوا كفرنا بالزيارة!

ضحكت زليخة ضحكًا كالعواء وهي تنتفض كما لو كان في لحم ظهرها لسعة سوط جبار، ثم قالت دون أن تخفض مقرعتها التي احتفظت بثباتها فوق رءوسهم في وضع انجذابي عنيد:

ـ إن شئت الحقيقة فإن وليمة الفلاح التي لا ينالها كل يوم هي الجبن القريش والبصل ورغيف الشعير.. والكرباج من وراء ذلك محيط، كما تحيط بكم الآن مقرعتي.. لكن هناك في انتظارك الكلمة الطيبة والأرض البراح ونسمة الهواء والمكتوب على الجبين.. انتظرني آتيك بمرقعة سترت قبلك عورات عدد من فقراء الله، وأزودك قبل رحيلك بضربة مباركة على مؤخرتك الكبيرة من مقرعتي، لعل وجعها يكون معك يوم تنصب قامتك في وجه الباطل وتكون رجلا!

وتركتهم حاملة المقرعة لصمت عميق لزمهم إلى ما بعد دخول عيسي في مرقعة وسخة تفوح منها رائحة زنخة مغثية، وظل معهم في خروجهم حتى حطمه بهلول الباب الطروب:

ـ العيش والملح خلص من عندنا والموتي يحملون الموتي!.. نظرة يا ستي زليخة!.. سلام مجاذيب يا جدع!.. سلام مجاذيب!.. سلام!.. سلام!

(١٠)

على وجه النيل أسرجة موقدة من قشور بيض عائمة تشتعل فيها فتايل بالزيت، وتجوس خلال أضوائها المرتعشة مراكب مزينة بالألوان والخوص والأزهار، وعامرة بالرجال والنساء والقناني والمناقد والجوز والشيش والدفوف والصاجات والطبول، وخليج الزعفران يملأ ليل القاهرة صخباً وأنواراً منذ افتتح واليها «بظلم» المهرجان الكبير تحية لشفاء السلطان بلباي من الوعكة التي دهمته قبل أن يملأ الأريكة شهراً، والموج الهادئ عاجز عن ابتلاع الزغاريد والضحكات والأغاني ودفنها على طمي القاع.

ـ يا رب اكتب لهما السلامة!

وكان أيوب وعمر ينفضان هموم النهار على عتبة الغيبوبة في قارب صغير يعاني بحاره المسطول في السيطرة على شراعه ويسهر على جمرات موقده غلام خفيف الحركة وثاب المهارشة كأن في فمه سبعة ألسن، عندما قطعت الطريق سفينة يضرب الهواء في أشرعتها الكبيرة وعليها قطيع جن جنونه بعربدة الموسيقي والأنفاس والكئوس والليل الحر، وامرأة في قلب جمعهم السعيد على ردفيها حزام عريض من الشاهي الأخضر، منكوشة الشعر في رقصة عفريتية وهي بقميص أبيض تلعب به نسمات النيل، لوحت بيدها للقارب الصغير البليد وصاحت بركابه صيحة منادية ضاعت في عجيج السفينة العابرة.

وقال الغلام وهو يحيك حزامه على قفطانه:

ـ عزومة مراكبية!.. هل يترك عاقل المزاج الرائق ويندس في مثل هذه الهيصة بين السكاري ونسوان الليل!

ـ ولا مزاج رائق إلا مزاجنا!

قالها أيوب في حزن ساخر وتنهد من أعماق بدنه المخدر، وعاد يدعو ربه:

ـ اكتب لهما في كل خطوة سلامة، عيسي ابن نفيسة ويوسف حبيب محسوبتك زليخة!

وبجهد شديد اعتدل عمر المسطول في ضجعته المتعبة على دكة القارب الخشبية، وتمطي:

ـ تطلع عليهما شمس الغد إن شاء الله وهما عند أخوال الست جماعتك في ميت جهينة.. المهم هو أن يوفق الله يوسف الصغير إلى شط الأمان، ولكل ظلم نهاية!

ـ بودي أن أصدقك!

مصمص الولد بشفتيه وهو يدنو منهما بغابة الجوزة في خلاعة:

ـ صدقه واستريحا!.. للهم ساعته يا أهل مصر وللحظ ساعته!.. نحن هنا!

فتلقي قفاه وهو راكع صفعة بكامل الكف من يد مدربة على تناول الأقفية حية وميتة، وزجره الحانوتي:

ـ قلت لك يا سي محرم من أول دقيقة إننا من أهل الأنفاس وحدها، ملعون أبو خالتك!

ومن صانع النعوش جاءت قفاه الصفعة الثانية:

ـ أصدق ماذا يا ابن الرفضي!

دفس الولد رقبته بين كتفيه وتضاحك قائلا:

ـ إن للظلم نهاية كما يقول المعلم!

ضحك صانع النعوش في وجه صاحبه:

ـ يريد ابن المائعة أن أصدق نغزات الحشيش في مخك يا عمر! يريد أن أكذب أصابع الدنيا المغروسة في عيوننا!

وارتطم القارب فجأة بجنب قارب آخر تعلوه أيضاً في تسكعه الهائم على الماء سحابة من دخان عطر، وصاح من الجانب الآخر صوت يرجف منه الغضب:

ـ الأعمي يحاسب!

فارتدت الكلمة في الحال بزمجرة ليث يتأهب للوثوب، إذ صاح الحانوتي وقد عدلته صدمة القاربين:

ـ طويل اللسان يختشي!

والزورقان يتعانقان في رقصة على موج النيل رتيبة، وشعل الأسرجة تخبو وتندثر، وأصداء الدفوف تتلاشي هاوية إلى طمي القاع المتراكم مفسحة الطريق لصوت الحماقة:

ـ اخرس يا قليل الأدب!

ـ الزم حدودك يا ولد!

وفي القارب الآخر ظهر شاب طويل القامة يجاهد للثبات في وقفته المترنحة مع حركة الزورق كراقص مخبول مضحك الأداء، وتكلف على افتضاح سكره وقار أهل الأدب عندما نهض له قفطان الحانوتي وغمزه بصوت من أعماق المنخرين قبل أن يفرد له ذراعيه على وسعهما في دهشة راضية:

ـ يا ابن القديمة!.. أهو أنت؟!

والتفت عمر إلى أيوب المتوسد قاع القارب في نعيم اللامبالاة:

ـ هذه إحدي بنات الخنا مع خليل عريف الكتاب!

ولم يتحرك أيوب وهو يتنهد في سأم:

ـ انظر لعل في زاوية القارب أيضًا سيدنا فقيه الكتاب نفسه!

(١١)

خيول عربية في سن الفتوة المتطاوسة تجري في فناء الإسطبل الداخلي في سرعة رشيقة وهي غير مسرجة، ومماليك في سن البلوغ خفاف كالقرود يتدربون على الوثب إلى ظهورها، والطواشي الذي يسعي بين يدي مولاه إلى شرفة مطلة على درس الفروسية يبرطم في زمجرة ناعمة الجرس كأنها نهنهات امرأة تتشكي:

ـ الولد مراد يا سيدي الوالي!.. غضبان وممتنع عن الأكل وعن الركوب وعن درس القرآن.

وقف «بظلم» عند سور الشرفة يتأمل فتيانه المرد النشيطين كالديوك وهم يتلقون درس الحرب:

ـ مراد؟ الولد الذي في خده شامة؟

ـ آه يا سيدي الوالي!.. هو بعينه أبو شامة.. كاد يضرب الفقيه المسكين عندما سأله عن «عبس وتولي».

ترنح «بظلم» في طرب وشاعت الابتسامة في دمامة وجهه:

ـ وما سبب غضبه يا إيهاب أغا؟

ـ ماذا أقول يا سيدي الوالي!.. دلع!.. إني من ساعة ما وضعتني ثقتك مقدماً على طباق مماليكك ومسئولا عن تربيتهم لم أجد دلعاً مثل دلع مراد هذا!

التمعت عين بظلم الواحدة:

ـ اسمع يا إيهاب أغا!.. للأولاد دلعهم مثل البنات تماماً!... وهم حتى في هذه السن الصغيرة يحلمون أحلاماً كبيرة.. كل واحد من هذه الديوك ينتظر اليوم الذي يصل فيه إلى مرتبة الإمارة.. كل واحد منهم يحلم بزمن قريب يغدو فيه سلطاناً مختصراً له مماليكه وإسطبله وطباقه ومطامعه.. أو سلطاناً حقيقياً له الأريكة والصنجق والقبة السلطانية.. وأنا في نظرتي للمستقبل أعتمد قبل كل شيء على هذا الحلم!.. أين مراد الغضوب؟

يئس الطواشي من المقاومة، لكنه عنيد:

ـ محتجب في العنبر بحجة أنه لا يزال محموماً.. كان مريضاً وشفي، فلماذا لا ينزل مثل باقي الأولاد ويحضر الدروس ويتلحلح!. دلع فارغ!

ـ خذني إلى عنبره يا إيهاب أغا فإن للولد عندي ما يطيب خاطره!

برطم إيهاب أغا وهو يتحرك ممتثلا للأمر:

ـ بدلا من أن تلهفه كفين يصلحان مزاجه!

ـ لك في مماليكي يد من حديد لكن مخك أيضًا حديد يا إيهاب أغا!.. أنا لا أصفع مماليكي.. أنا أرشقهم بالورد وأرشهم بالعطر.. أنا أفيض عليهم الرغد.. داخل الطباق وخارجه.. وألمحهم بعين الرضي وهم يكبرون سنة بعد سنة ويتنقلون من دنانير الجمكية القليلة إلى الإقطاعات وإمرة الجنود ومراكز السلطة.. هذه الأرض لهم فلينتشروا فيها فإن لهم يومًا!.. أريدهم فرسانًا جبابرة لا علماء ولا رهبانًا ولا مجاذيب!

وكانا قد بلغا آخر ردهة طويلة عندما سمعا صوت المملوك الصغير المحتدم وهو يطرد شخصًا من العنبر.. اخرج يا شيخ نسناس!.. اخرج قبل أن أمزق عليك مركوبي!.. لا أفهم عنك أصول الشريعة ولا أحكام الدين، ولا أريد أن أري وجهك أو يخاطب لسانك لساني.. ثم إن رائحة فمك بصل!.. دائمًا بصل!.. اذهب فعلّم الآخرين كما تريد.. كما يريد مولانا الوالي.. أما أنا فلا أطيق وجهك ودمي يفور لسماع صوتك.. اخرج أو أخطف عمامتك يا أقرع!

عندها كان بظلم قد بلغ الباب وتلقي بيديه كتفي الفقيه المذعور المرتد بظهره في هرولة وبسملة:

ـ كدت تفقد العمامة يا شيخ عباس، كدت تفقد العمامة!

ـ مولانا الوالي؟!

وانحنت العمامة التي لم تكد تنجو من أذي الولد:

ـ الولد شقي يا مولانا!

ـ شوف يا شيخ عباس!.. هناك في الكتاب تضرب عيال الزعر، أما هنا فالمعدن أنفس!

وتضرع الفقيه في الحال وهو متضائل لصق الحائط:

ـ مفهوم يا مولانا الوالي.. مفهوم.. هذا صنف وذاك صنف، «وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات».. ومراد هذا ابن حلال.. فقط تركبه أحيانًا جنونة البلوغ فيصير مثل الديك الشمورت المتعافي. وكلهم في الحقيقة أولاد حلال ونعم الناس!

التفت بظلم إلى مقدم مماليكه وهو يضحك:

ـ خذ الشيخ وأكرمه حتى أملص للولد أبي شامة أذنه الصغيرة وأعلمه الأدب.

هرول الفقيه في حمي الطواشي وهو يتمسح به:

ـ ربنا يزيدك من نعيمه يا إيهاب أغا يا مهاب!

ومن بين أسنانه برطم الطواشي دون أن يتنازل بالالتفات إلى المخلوق اللائذ بعظمته، لكن الشيخ لم ينكسر نفاقه:

ـ ربنا يقدرنا على خدمة الناس الأكابر!

في اللحظة نفسها كانت أذن الولد أبي شامة في اليد الحنون الملاطفة:

ـ غضبان يا مرادي؟

خلص المملوك الصغير أذنه بحركة ناعمة من عنقه، وأعرض بجانبه وقال في دلال:

ـ وهل أنا أهمك!

ـ لن يطول غضبك على كل حال.. سوف أخرج من مقابلتي للسلطان اليوم بكل ما يرضيك.

ـ لا يرضيني إلا أن تطرد لي ناظر المطبخ السلطاني نفسه.

ـ سأسعي في طرده فلا تغضب يا مراد.. أريد للابتسام أن يعود إلى حسن محياك.. واسمع كلام إيهاب أغا من أجل خاطري أنا.. إنما أريدك في المستقبل القريب فارساً مقاتلا وسيفاً بتاراً.. في غد أريدك رجلا!

ـ وإذا رفض السلطان؟.. ألا تقولون إنه مجنون؟

ـ إنه لا يملك أن يرفض!

قال مراد الصغير في مكايدة واستفزاز:

ـ لا يرفض إذا كان المتكلم هو الدوادار!

ـ إذا كان الدوادار يملك أذن السلطان وكان تمربغا هو صاحب القوة الضاربة فإن كلمتي أنا أيضاً لها وزنها، فالقاهرة في قبضتي والأمن فيها لعبتي!.. كل ما أريده منكم هو أن تثقوا بي وتطيعوني.. فهمت مرادي؟

وقرصه في خده من تحت الشامة.

(١٢)

أشار شيخ أمناء السلطنة إلى باب مغلق في صدر بهو الاستقبال الكبير:

ـ هل لسيدي الوالي أن ينتظر في هذه القاعة حتى أستأذن له في الدخول؟

ـ قل له إني لا بد أن أراه في الحال، فالمسألة التي جئته من أجلها أخطر من أن يقال لي إنه مشغول.

لم تتخل عن شيخ الأمناء سكينته الباردة:

ـ سيادة الوالي يعلم أني أؤدي مهام وظيفتي بكل دقة.. أستأذن للدخول عليه فإن سمح بالمقابلة مشيت أمام الزائر حتى أبلغ به عتبة السرير.. والحقيقة أنه في وعكة وعسر هضم، لكني سأقول له إنك في عجلة من أمرك، فانتظرني قليلا.. تفضل.

وفتح شيخ الأمناء باب القاعة التي أشار إليها فاندفع من الداخل نشيج رجل ينوح في حرقة.

ـ ما هذا؟

ألقي «بظلم» سؤاله في دهشة وهو يتوقف عند الباب ملتفتًا إلى شيخ الأمناء الذي شاعت في وجهه الوقور ابتسامة هادئة وهو يقول:

ـ هذا الأمير الجاشنكير وهذا حاله اليوم منذ صفعه مولانا السلطان!

دخل والي القاهرة ليجد أمامه فوق البساط جرمًا هائلاً من لحم رجراج أبيض في عباءة من زركش، وامتدت إليه كف سخنة كالرغيف فأطبقت على يده العجفاء التي غابت في لحمها الطري، وطالعته دموع منثالة في غزارة على وجه مشرب بالحمرة في حجم البطيخة الكبيرة.

ـ الحقني يا بظلم!.. خلصني يا زميل!.. ليت رتبة الإمارة لم تلحقني!.. ليتني ظللت راعي خيل في سهوب بلادي.. بل ليتني يوم دخل زبانية الجلاب محلة قومي كنت حصانًا عليلا لا يختطف ولا يباع لينتهي به الحال إلى مثل هذه الوظيفة!.. أنا واقع في عرضك يا خشداشي فخلصني تكسب فيّ ثوابًا!

كتم «بظلم» رغبته في الضحك وحاول أن يكون صوته جادًا:

ـ ويل لك يا عتلم!.. ما التقينا مرة إلا وجدت فيك على الأقل زيادة عشرين رطلا!

تماوجت كرة اللحم داخل العباءة وهي لا تكف عن الأنين، فاستروح الأعور من ثنايا العباءة ريحاً عفناً.

ـ ماذا أفعل يا زميل!.. دبرني!.. لعل أمي التي لا أذكرها دعت عليّ في طفولتي في لحظة كان باب السماء فيها مفتوحاً!.. دبرني!

جلس «بظلم» على البساط في ظل الجبل الطري الباكي الذي تفوح منه موجات من رائحة مقززة:

ـ اهدأ يا عتلم!.. اهدأ وقل لي لماذا صفعك المجنون؟

ـ لا أعرف!.. عنده مغص.. وهل أنا مسئول عن مصارينه!..

ومن يسأل عن مصاريني أنا؟

وتعلق كالأطفال بعباءة الوالي:

ـ المطبخ السلطاني كله يشتغل على معدتي.. تأمل هذا يا زميل!.. كل هذا الوارد الهائل من اللحوم والخضر والحلوي والسمن والتوابل. يطبخون هنا في اليوم الواحد عشرة آلاف رطل من اللحم.. ويذبحون ألف دجاجة.. وهذا من صنف اللحم فقط.. أي معدة كمعدتي يا زميل!.. إن لها وزيراً خاصاً هو ناظر المطبخ.. هو الوزير وأنا المعدة!.. أنا في عرض فرج الله ناظر المطبخ وفي عرضك يا والي يا قريباً من أذن السلطان!

لمح الغضب في عين «بظلم» الواحدة:

ـ آه! فرج الله!.. إنه فعلا سبب حضوري اليوم.. وأنا أنوي أن أؤدبه أو أتسبب له ولسلطانه في فتن تزعج هضمهم ليالي وأياماً! اطمئن.

مسح الجاشنكير دموعه في كم العباءة:

ـ إني أحسدكم على راحتكم ونعيمكم.. كلكم.. احمد ربك لأنك لم تقع عليك إرادة الله لتكون جاشنكير السلطان!.. ما عليك إلا أن تسيطر على القاهرة!.. ما أسهل هذا!.. يطوف لك الأعوان والجند بالدروب والأسواق والأبواب ويتصيدون لك اللصوص والعابثين وأعداء السلطنة.. ثم تأوي إلى نوم هنيّ بعد لقمة تتعاطاها آمناً مستطعماً وتهضمها بالهناء والشفاء!

ـ لا تكفر بالنعمة يا رجل!

ـ لا تهزأ بي!

ـ أيشكو عاقل من خمر الملوك المعتقة والمأكل الفاخر السلطاني؟

ـ لا تهزأ بمصيبتي فأنا قرفان.. قرفان من الأكل السلطاني.. هل تفهم يا زميل معنى أن أربعة من السلاطين تبدلوا عليّ، كل سلطان بمزاجه في الأكل؟.. أنا مجبر طوال السنين على أن آكل ما يحب السلطان لا ما تريده معدتي أو تشتهيه نفسي.. والموت في كل لقمة..

هل هذه حياة؟.. أن تكون ملزماً بتذوق كل طعام وشراب قبل أن تمتد إليه يد السلطان بساعتين؟.. واليد أكولة والسلطان بطين وشره!.. أن يكون عملك هو أن تأكل وتأكل وتسمن وتسمن ثم تموت بدلا من السلطان إذا كان قد دس له السم في مشروب أو مأكول؟.. أن تعيش في رعب.. في دسم.. في بطن؟!

طفح الاستمتاع على وجه «بظلم» بالرغم منه:

ـ وغيرك يشكو من قلة اللحم!

ـ لا تنطق بهذه الكلمة أمامي من فضلك وإحسانك!.. لا تفقدني صوابي!

قال «بظلم» وهو يبتعد عن رائحة الجاشنكير:

ـ لم تقل لماذا صفعك ابن المجنونة؟

ـ وجع في مصارينه..أنا لم يكن لي نفس للجدي المشوي.. كان عندي تلبك وتخمة ونفسي مسدودة.. نهشت من هنا هبرة ومن هناك هبرة.. على قد نفسي.. والجدي كله في بطنه، فما ذنبي؟.. صفعني وهددني بالتعذيب حتى أعترف بشركائي.. أنا ما لي شركاء فخلصني من هذه المصيبة.. «قل له» يعفيني من الوظيفة!.. أشتغل في أي عمل آخر أو أنزوي للأبد في جامع أو أموت فالموت أرحم!.. أي شيء إلا هذا العذاب!

وفتحت القاعة عند ذاك وظهر شيخ الأمناء بالباب:

ـ الوالي يتفضل للتشرف بمقابلة مولانا السلطان.

تشبث عتلم بطرف عباءة «بظلم» ودموعه لا تزال تغسل لحم وجهه الغليظ:

ـ «قل له» يا زميل!.. لينقلني إلى أي عمل آخر يعجبه.. إلى إدارة فرقة الراقصات السلطانية إن شاء وتفضل.. أي شيء إلا الجديان المشوية على ريق النوم والحمام المحشي!

(١٣)

كانت المباخر تنفث في الإيوان شذاها وعلى البساط الشيرازي الأحمر أمام سرير الملك سجد «بظلم» خضوعاً لمراسم الاستقبال وقبل الأرض، بعد أن سجلت عينه اللماحة جلسة «الأستادار» المنكمشة على الدرجة السفلي لذلك المنبر الرخامي المغطي بالمخمل الأخضر، وضجعة السلطان على السرير وبطنه بين راحتيه.. ثم انسحب شيخ الأمناء متراجعاً بظهره، على حين أشار «بلباي» إلى الدرجة الثانية من درجات منبره، فاعتدل «بظلم» متناسياً الألم الذي عصف بأمعائه عند حركة السجود واتخذ مجلسه وهو يصلح من وضع عمامته.

واختلس نظرة إلى بطن السلطان كما لو كان يتوقع أن يرى فيها الجدي المأكول، لكن السلطان تلوي فجأة وتجشأ ملء الإيوان.

وقال «الأستادار» في ذلة مرتعدة:

ـ صحة وعافية!

فكانت الكلمة التي أطلقت براكين الغضب السلطاني:

ـ اخرس يا ولد!.. لا تسمعني صوتك أبداً.. هي غلطتي أنا.. لم أحسن اختيار الأستادار القادر على إدارة شئون البيوت السلطانية.. الغلمان يسرقون الطبيخ... والجاشنكير لا يتذوق الجدي... آه يا بطني.. واللحم إن لم يكن مسموماً فهو مشموم!.. قسما بالله العظيم يا أستادار الكلب لأوسطنك بالسيف نظير إهمالك في فحص الجدي!

عندها انبطح الأستادار على الأرض وهو يبكي مستغفراً:

ـ أنا أستحق أن توسطني لكن رحمتك تشمل عبدك!

تجشأ السلطان ورفس برجله في غضب:

ـ ناحت عليه أمه من اشتراك صبياً بدينار واحد!

تلفت الأستادار بركن وجهه وهو منبطح تحت المنبر وتوسل إلى والي القاهرة الذي لم يفتح فمه منذ دخل في انتظار إذن السلطان له بالكلام:

ـ الشفاعة يا زميل!.. والله ما دخل الغلمان بالجدي على مولانا إلا بعد أن ذاقه الجاشنكير بمعرفتي وبحضور ناظر المطبخ واستطابه واستظرفه ورضي عنه وهضمه!

لكن السلطان زأر في وجه الوالي قبل أن ينطق حرفاً:

ـ شفاعة غير مقبولة لأن إدارته للبيوت السلطانية تستحق التوسيط بالسيف بدون إمهال.. وإذا كان الحال كذلك في المطبخ فلا بد أن الحال في سائر الخانات لا يسر القلب.. أشربتي وأدويتي نهب مباح للجميع.. نصف الطشوت والأباريق على الأقل بيعت في سوق النحاسين.. الأبسطة تأكلها الفيران.. آه يا بطني.. لعله يتستر على من يدس لي السموم في مأكولي.. يريدون الأريكة قبل أن أمسها أربعين ليلة!

وجد بظلم فرصته فلم يفلتها:

ـ إن أذن لي مولاي في الكلام فهو يضرب السرج ويغضي عن الحمار، ولا مؤاخذة!

ـ أي حمار؟

ـ ناظر المطبخ!

ـ فرج الله؟.. إنه فوق علمه بالأسمطة الملوكية خير من يفهم في البهارات!.. ماله فرج الله؟

ـ هذا صحيح يا مولاي.. لكن في يده عهدة المطبخ وحدها، بينما يقوم الأستادار بمسئولية البيوت السلطانية كلها، كان الله في عونه. والمغص السلطاني في الحقيقة هو ذنبه لا ذنب الأستادار أو الجاشنكير المسكين الذي يبكي بعد صفعة مولانا السلطان الأفخم:

تفكر بلباي برهة قبل أن يتفتق ذهنه عن رأي:

ـ لكني لا أستطيع أن أذبح ناظر المطبخ الذي يعجبني ذوقه في انتقاء البهارات وتوليفها وسبكها!

قال بظلم وكأن الرد جاهز:

ـ في الإمكان تأديبه بغير الذبح يا مولاي، فلتأذن بادئ الأمر لعبدك الأستادار أن ينهض ويقبل طرف ردائك ويخرج حامداً آمناً، ثم نبحث مسألة ناظر المطبخ الذي ما طلبت الإذن الشريف اليوم إلا بسبب ظلمه وغبائه!

كانت كلماته الهادئة كافية لبزوغ العفو السلطاني، فقبّل الأستادار الأرض وطرف العباءة السلطانية وكتف الوالي، وعندما سقط مرتين على مؤخرته وهو يتراجع ناجياً برقبته أشرقت أسارير بلباي بالضحك وهو يعتدل داعكاً بطنه بيديه:

ـ ما ألذها ساعة عندما ترى أمامك رجلا خائفاً على عنقه!.. إني أحب مثل هذه الساعة!

واختصر بظلم بحركة طبيعية درجتين من درجات المنبر وهو يقوم بدور المستشار:

ـ ناظر المطبخ أولي في الحقيقة بهذا الخوف يا مولاي!

ـ أما أنا فلا أخاف شيئاً خوفي من السموم، أليس كذلك يا سيد العارفين؟

ـ كفانا الله شرها يا مولاي! ومن أين لي أن أعرف؟

ورشق في وجه السلطان عينه الثعبانية اليقظة.. حتى هذا الغبي يريد أن يتظاهر بالذكاء والمعرفة.. حتى هذه الألعوبة المضحكة التي يحركها الدوادار المستخفي وراء العرش تريد أن تستعرض استخباراتها ويا عجبًا للعرش نفسه كيف احتمله أربعين يومًا وليلة!

ـ لم تره في حياتك؟ لم تمسكه في يدك؟ لم تذقه بطرف لسانك؟ لم تقصد به أحدًا ولم يقصدك به أحد؟ لا تعرف السم يا بظلم؟

ـ إنما يعرفه أمثال فرج الله.. وخوفي على حياتكم يلزمني أن أنبه مولانا إلى ضرورة نزعه من مكانه في نظارة المطبخ.. حياة مولانا هي كنز الأمة!

ولحظت نظرته الذكية اضطراب بلباي وهروب الدم من وجهه، فلا بد من إخافة هذا العتل المخبول على عمره حتى يطير فرج الله من المطبخ السلطاني ويرضي مراد عن أستاذه ويحملها الأستادار جميلا يطوق عنقه ومعروفًا يحدد موقفه في الغد القريب عند درجات هذا المنبر الذي ينتظر السيد الحقيقي ليزينه ويملأه ويشتار عسله ويحلب لبنه ويغوص في زبدته.

ـ ومن أين لي بعده علم كعلمه بفنون البهارات؟!

ـ ومن أين لنا سلطان مثلك لو نفذ سهم القضاء لا قدر الله؟

ـ أنت معي يا بظلم؟

وامتدت يد السلطان البضة إلى يد الوالي المعروفة فأطبقت عليها إطباق المخلب القانص على اللحم السهل:

ـ ألا يعلم مولاي أن أعداءه كلما أشعلوها فتنة أطفأتها، وإني أقبض لك على أم البلاد بيد متينة؟

ـ معي؟ دائمًا معي؟

ـ ما خاب من استشار!.. ورأيي في موضوع الجدي هو أن يسجن فرج الله عقابًا له على تستره على من كان سببًا في المغص السلطاني.. ولو سألتني في كبير الأمور وصغيرها ما ضننت عليك بالرأي، لكنك تتباعد عني يا مولاي!

هبط بلباي عن مخمل السرير حتى صار جالسًا لصق بظلم على درجة المنبر العليا:

ـ اسمع يا بظلم!.. إن كان لنا عمر فأنت نائب السلطنة.. سأعينك نائب حضرة لا نائب غيبة.. ستكون وكيلي وساعدي الأيمن ويسميك الناس السلطان الثاني.. وتأمل فخامة اللقب نفسه:«كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأميري الآمري»!.. فقط لا تذكر هذا الآن لأحد.. وما خاب من كتم سره!

وطاب الحديث فاستراحت يد الوالي أثناء الكلام على مخمل السرير السلطاني، وكان قلبه مليئًا بالارتياح وهو يخرج إلى البهو ليجد الدوادار واقفًا مع شيخ الأمناء وبينهما همس.

وتصافح الأميران وقال الدوادار لوالي القاهرة:

ـ هل قضيت حاجة الأمير؟

ـ نعم!.. لي مملوك نقله ناظر المطبخ من باب اللحم إلى باب المرق، وقد تفضل مولانا السلطان فأمر بأن يعاد إليه راتبه اليومي وينقل اسمه من باب المرق إلى باب اللحم!

قال الدوادار مخفيًا إحساسه بأن الوالي يختزن أسرار المقابلة:

ـ كنا نحب أن نقوم بأي خدمة!

ـ نحن ندخرك لكبار الأمور يا خير بك، وعاشت الهمم!

وما إن حيا وابتعد حتى التفت الدوادار إلى شيخ الأمناء:

ـ بإذنك يا صاحبي!... لا بد لي في الحال من أن أدخل على ابن المجنونة وأنقب في مخه مستخرجًا سر هذه الخلوة مع ابن العوراء!

(١٤)

مرت لحظة وجيزة بعد صلاة العصر ثم تحسست عصا الأعمي باب المقهى فنهض له في الحال عبد الجليل السقاء وفي خياشمه دخان الجوزة:

ـ يا مرحبًا بسيد الشعراء!

وأشرق وجه الأعمي بالطمأنينة وهو يسلم خطواته القليلة داخل المقهى لليد الصديقة التي أمسكت ذراعه في رق وألفة، وقال بصوت عاتب:

ـ فرغت للجوزة يا عبد الجليل وتركت القربة فارغة؟

ضغطت أصابع عبد الجليل ذراع الأعمي النحيلة وهو يضحك في خجل:

ـ اشتغلت من الفجر للضحي يا شيخ حمدان.. وعندي وجع في جنبي والقربة ثقيلة.. وفي الجيب دراهم ونحمد الله!

فارتفعت من ركن النصبة ضحكة همجية:

ـ هع!.. كالعادة!.. وتخلص الدراهم فيخف وجع الجنب ويلفع القربة مثل القرد!

لم يرد عبد الجليل على رذالة جعران المكاري حتى تمكن الشاعر الأعمي من دكته وأراح ربابته على ركبته ودعا له بالهداية والستر، ثم تظاهر بتوجيه الكلام إلى صاحب المقهى نفسه:

ـ رص يا معلم زين الدين ولا تجعل بالك مع الحمير!

شخشخ صدر المعلم وهو يضحك ويلفظ بلغمه على الأرض ويدهسه بنعله:

ـ والله تستاهل يا جعران!.. مسحوب من لسانك مع إنك متسلطن هنا طول النهار مثل حمار أم الخير الذي من تعبه وشقاه تأكلان أنت وهي.. والحمار مثلك يقضي يومه متسلطنا في تراب الحارة وهو أكسل من أن يهش الذباب عن دبره.. يا رجل حسس على البطحة التي في رأسك!

لم يفقد المكاري حماسته الخشنة للمناوشة:

ـ ما العمل يا جدعان إذا كان كل زبون أعرض عليه حمار أم الخير يقول لي لا يا عم هات لي سقاء أركبه أحسن! هع!

جاءت الكلمة في هذه المرة من دكة الشاعر:

ـ نخزي الشيطان ونصلي على الجميل.. اختشي يا جعران وتعلم أدب المجالس.. عندي الليلة يا سادة قصيدة جديدة في مدح الكرام أهل الجمال، إن شاء الله بعد القرفة!

وفي الخارج زام كافور كأنه يذكر صاحبه بمرضه الذي طرحه من طلوع الشمس على تراب الحارة، فقال زين الدين في أسف ودون أن يجهز القرفة للشيخ حمدان:

ـ ما للكلب ولا مؤاخذة؟.. من صباحة ربنا وهو على هذا الحال، وكل ساعة نكنس قيأه.. كان في أول الليل مثل الأسد يا إخوان!

قال عبد الجليل وهو يدق بطرف الماشة هامة الجوزة المتوقدة:

ـ لعله مسموم يا معلم والعياذ بالله!

ـ هع!.. إذا تكلمنا قالوا لنا اسكت يا جعران وتعلم الأدب!

غضب المعلم في هذا المرة من رذالة المكاري وصرخ في وجهه وهو ينحي الجوزة عن متناوله:

ـ تكلم يا لوح!

ـ أقول لكم ما رأت عيني!

ـ يبدو أنك تعرف من فعل هذا بكلبي؟

ـ وأنا راجع الليلة بحمار أم الخير وجدنا عند كوم الصنادقية رمة حمار، وشفت السيد كافور من ضمن الناهشين... هذا ما رآه اللوح يا معلمي!

أخذها المعلم من فم المكاري واندفع ليصب نقمته على الكلب الراقد على جنبه كالميت لولا لهاثه القليل:

ـ خيبة الله عليك!.. كأنك لا تأكل معنا من زاد واحد!.. مثلك مثل واحد من أولادي!.. رمة يا ابن النتنة!.. كنت قل لي على رطل لحم بيني وبينك وكنا دبرناها يا قليل الطهي!... والله لا أزعل عليك إن مت!

وقال عبد الجليل وهو يصطنع تطويحة انجذاب من فرط سروره بالقفشة:

ـ داهية تلم الحمير وأصحابها، الأحياء منهم والأموات!

ـ هع!.. لن أتكلم.. مع أن كافور لم يكن وحده على الحمار الميت.. آه.. لا لن أقول.. رص يا معلم.. الكلام خسارة فيكم.. آه.. لن تعرفوا من كان يقطع من ذلك اللحم ويحجل في الظلام بما حمل.. والله أنا كمان لا أزعل عليكم إن متم!.. رص يا معلم قبل ما نموت!

وجاء صوت الشيخ حمدان من أعلى الدكة في همسة شاحبة:

ـ افرجها يا كريم!.. اشتدت فافرجها!

وارتجت الحارة فجأة بضجة عظيمة، فهب من في المقهى ليجدوا جمعاً شديد الجلبة، تتكشف نواته عن ثورة جنونية مصدرها عريف الكتاب، كامل الهيئة إلا من العمامة.

وعند باب المقهى رفع الشيخ خليل ذراعيه نحو السماء ورج المكان بصيحة هادرة:

ـ يا ناس!.. خيول المماليك ترمح في الشوارع!.. ينهبون الدكاكين، ويضحكون لرؤية الدم على أسنة سيوفهم، إذا قاومهم أحد!.. يخطفون الغلمان!.. ويخطفون العمائم!.. عمّتي يا ناس!.. خطفها المملوك ابن الهالكة الذي اقتحم تحت الربع بحصانه وهو مخمور.. خطفها ولعب بها ضاحكاً كما لو كان يمزق عرض المسلمين!.. خطف عمامتي!

ـ المملوك مسلم مثلنا!

ـ اخرس يا جهول!

كان فظيعاً في غضبته التي جمعت حوله مع أهل حارة الحمام كهولا ونساء وصبية غرباء عنها، وانحسرت أكمام الجبة عن ذراعيه إلى قرابة إبطيه وغسلت الدموع وجهه المنفعل وبللت لحيته الصغيرة:

ـ لو كانت المخطوفة زوجة واحد منكم لنفر فيكم عرق الغضب، لكنها عمة الشيخ خليل!.. نشترى له عمة جديدة وننجعص في الكراسي ونشد في الجوزة وننام عن عربدة أولاد الحرام في البلد.. لا.. أنا لن أقبل هذا بعد اليوم.. أنا وحدي بغير سلاح إلا غضبي، أخفت اليوم مملوكاً بسيف وحصان وعنجهية!.. قلت له هاتها يا ابن اللئيمة وشدته يدي من حزامه فجاءت به أمامي على الأرض.. ووقف تحت الربع كله يتفرج!.. وما كان معي إلا غضبي!

غابت معالم الحارة في الزحمة وارتفعت من مساحة الرءوس التي تملأ فراغ الحارة الضيق أصوات كثيرة تؤيد رواية العريف وتهلل له، فامتدت يد المعلم زين الدين إلى أقرب كراسي المقهى، وحايل الشيخ خليل حتى أقنعه بالجلوس في مواجهة الشريط الآدمي المضغوط بين عطن الجدران المتقاربة:

ـ أعمل لك الفنجان السادة الذي يليق بالمروءة!

وزاحمت الناس امرأة مجذومة متآكلة الوجه يسندها عكاز قميء، حتى صارت إزاء صدر المقهى وزغدت الشحاذ العاري الذي زحم طريقها وتسلخ صوتها وهي تهتف:

ـ أنا شفتك يا حبة عيني! شفتك وأنت تجبده من حزامه يا ولد! أنا شفتك ولحظتك!

وقف عبد الجليل وجعران وراء كرسي خليل في صحوة موجعة.. هل هذا الكلام صحيح؟ خليل ضرب المملوك؟

وتماوجت أمامهما الرءوس والأصوات، وخليل ينتفض في الكرسي ووجهه في وجوه الناس حتى جاءه السؤال من المعلم الذي انحني له بالصينية:

ـ والمملوك لو عرضوك عليه يعرفك؟

تفصد العرق على جبين خليل وهو يزأر وينتفض واقفًا في احتجاج فظيع، وشيء كالجنون المخيف برق في نظرته الرافضة الهائلة:

ـ ماذا تقول يا معلم!.. ومن يعرضني عليه؟!.. لن يمسكني أحد.. هذا لن يحدث وأقسم على ذلك أمامكم كلكم، من يعرفني ومن لا يعرفني.. وأين يعرضونني عليه وهو ملك يدي؟

لطم جعران خديه وهو يقول:

ـ يا نهارك الأسود يا عريف كتابنا ويا نهارنا الأسود كلنا!

لكن عبد الجليل زغده في جنبه وهو ينحني على صديقه المحتدم مطوقًا بذراعيه عنقه:

ـ كفي يا خليل.. لا تزد كلمة!.. ربما كان نصف هؤلاء الذين تبعوك من تحت الربع إلى بركة الحبشي من البصاصين.. والقلوب متغيرة والطباع نافرة والنيات سيئة!

لكن المجذومة تحنجلت بوجهها المبهم في وسط الناس:

ـ الله يبارك فيك لأمك!.. أنا لحظتك يا فتي لما جبدته من فوق الحصان ولويت ذراعه وسقته أمامك إلى زقاق الناضوري!

ـ اخرسي يا مخبولة!.. أنت!

فالتفت خليل إلى صديقه السقاء الذي أغضي ولم يحتمل نظرته:

ـ كلهم شافوا المملوك ويعرفون أني تركت العمة على الأرض حيث سقطت من يده وأخذته هو بدلا عنها.. كلهم يعرفون.. ليس فيهم بصاص ولن يقول أحد إنه رآني أدخل بالمملوك إلى زقاق الناضوري.. وإذا لم تصدق أنت فأنا مصدقهم ومطمئن.

تردد عبد الجليل لحظة قبل أن يغلبه قلقه:

ـ لكن.. ألا ينصرفوا عن الحارة؟.. أريد أن نتكلم ونري لنا رأيًا.. المسألة ستفوح رائحتها يا خليل!

فجاء من ورائهما صوت من داخل المقهى تجاهد رقته للظهور على عجيج الحارة:

ـ أمامهم وقت قبل إغلاق باب الحارة، فلنمدح لهم أهل الجمال ونسعدهم ونقول لهم بعدها مع السلامة!

لأول مرة أحس خليل، ونفسه تجنح إلى الهدوء بعد الغليان، برغبة الأعمي الشديدة في ترتيل أشعاره بعد مرضه وغيبته الطويلة عن دكته، فرفع صوته القوي داعيًا الناس إلى الهدوء، وعالجهم بصبر حازم حتى أسكتهم ليقول لهم وهو يتنحي بكرسيه إلى ركن الباب حتى يتجلي للناس مقام الشاعر:

ـ هس!.. سمع!.. سيدنا الشاعر!

(١٥)

في الصباح كانت حارة الحمام قد استعادت هدوءها المألوف عندما تفجر الموقف مرة أخرى بظهور فتي هائج اقتحم مقهى زين الدين في غضبة كاسحة:

ـ يا ناس!.. أختي!.. أختي.. يا عالم!.. المماليك هاجموا النساء في حمام الخيامية وخطفوا أختي عزة!

ـ ماذا تقول يا خالد؟!

وسقط فنجان القرفة من يد الشاعر، وانبعث الأعمي واقفًا ويداه أمام وجهه مرتعدتان كما لو كان يبغي بهما عنقًا يقطمه، فصرخ الفتى في وجه المعلم زين الدين الذي سمرته قسوة المفاجأة في مكانه وراء النصبة:

ـ أختي.. أختي يا معلم!.. خطفها المملوك من الحمام!

ألقي زين الدين بالماشة في ركن الموقد وخرج له من وراء النصبة وأحاط كتفيه بذراعه:

ـ يا ولدي ما أكثر كلام الناس في هذه الأيام التي سرح فيها المماليك في الشوارع.. ربما كانت شائعة من أقاويل الناس.. من ساعة واحدة جاءنا على صباحة ربنا من يقول لنا إن مماليك نهبوا بيوت السكرية ثم ثبت لنا كذبه.. من قال لك هذا؟

زأر الشاب وهو يضرب صدره بقبضة قوية، فتقدم منه عبد الجليل وهو لا يدري ما يقول:

ـ اهدأ يا خالد حتى نتبين الحقيقة!

نفرت العروق في وجه خالد المتضرم وفي رقبته المتينة وهو يخلص نفسه من حضن صاحب المقهى:

ـ اهدأ؟!.. تقولون لي اهدأ يا رجال وأختي البكر في قبضة حيوان خسيس حملها من الحمام عارية؟

والأعمي لا يزال واقفًا عند دكته ينتفض وهو يضرب كفًا بكف:

ـ من أين لك الخبر يا ولدي المسكين؟

تفززت الدموع في عيني الشاب القوي الثائر:

ـ من أين لي الخبر؟.. من جماعة عم أيوب.. خالتي ست الكل كانت في الحمام عندما دهمه أولاد الحرام، ووسعها هي وبعض النسوان أن يهربن من باب الحمام الخلفي في درب نعناعة.. آه! لا بد أن أشرب من دم أولاد الزنا ولا بد من عزة سالمة العرض!

قال السقاء وهو يحمل إلى الفتى كوز الماء:

ـ قالت لك بعظْمة لسانها إن المملوك خطف عزة؟

ـ رأيت النسوان يمرقن فجأة في فزع من أمام دكاني، ولمحتني خالتي ست الكل فلطمت وجهها وصاحت بي: أنت قاعد هنا تبيع كيزان الخروب وأختك على حصان المملوك؟.. ما العمل! ما العمل يا إخوان في عرض عزة؟

ـ عزة أختنا كلنا يا خالد!

ـ لا بد أن أشرب دمهم ولا بد من عزة سالمة العرض!

وتجاوبت أرض الحارة بوقع خطي كثيرة مقبلة، وظهرت جماعة من أهل الخيامية يتقدمها الحاج عمر الحانوتي وصانع النعوش الذي قال من الفور وهو يقصد خالد فيحتضنه ويضمه في صدره:

ـ الخبر صحيح يا جدعان ولا بد من عمل شيء!

وارتفعت من خارج المقهى صيحة تتلمس الطريق إلى حل معقول:

ـ إلى الأزهر، فلن يجيء لنا بعزة إلا المشايخ!

لكن خالد ملأ المكان بصرخاته الرهيبة:

ـ المشايخ!.. إلى أن يتحرك منهم فرد شجاع تكون عزة قد أكلتها الذئاب لحمًا ورمتها عظمًا!

ـ وماذا أمامنا نفعله غير هذا يا ولدي؟

ـ آه لو كنت أعرف أين ذهب بها ابن الكلب الهالك!

اعتلي أيوب أحد الكراسي وحاول أن يتحكم في المشاعر المحتدمة والرغبات المتعارضة:

ـ أنا أعرف الشيخ الإمبابي الكبير، فلنقصده لعل لشيبته قدرًا عند بعض كبار القوم فيكون على يديه خلاص البُنيّة.

قال خالد وقبضته لا تزال تدق صدره العريض:

ـ أين نجده، شيخك هذا!

ـ في الأزهر يا خالد، هلموا بنا جميعًا!

وخرجت هذه الجماعة الصغيرة من حارة الحمام فصارت تكبر في كل خطوة وهي تخترق قلب البلد حتى بلغ تعدادها عند مشارف الأزهر أكثر من مئتي رجل وامرأة، وكانت الشوارع والدروب تشغي بتكتلات هلامية من اللحم البشري ولهجات شتي من الدلتا والصعيد، وقد امتلأت على غير العادة بجموع من الرجال والنساء والأطفال والفلاحين العراة وأولادهم المتساقطين من الضعف ونسائهم المهزولات، وكان الكثيرون من أولئك الوافدين قد عبروا النيل من بر الجيزة الذي أجلتهم عنه المظالم والشراقي إلى معادي الخبيري المقابلة لها، ثم انتشروا منها إلى أحياء القاهرة كانسين في طريقهم ما يجدونه في الطرقات من نفايات الدكاكين وقشور البطيخ وزبالة البيوت، ومنجذبين بحركة هلامية إلى حي الأزهر.. وفي قلب الزحام الذي صارت له في مسيرته ضجة عظيمة أمسك الحاج عمر بذراع صاحبه صانع النعوش وقال له في صوت تقطر منه الحسرة:

ـ بيني وبينك يا أيوب عزة راحت والعوض على الله!

تنهد أيوب في زفرة موجعة:

ـ هل تعرف من كان على فكري الآن؟.. عيسي المسكين.. كان مفتونًا بعزة، وكان يقول لي إنه ينوي أن يتوب عن الخبص إذا رضي خالد أن يزوجه من أخته الجميلة.. آه! ملعون أبو هذا الزمن!

ـ وانظر أين هما الآن!.. عيسي مدفون بالحياة في موقعة المجاذيب، وعزة يا حسرتي على عزة!

وسكت الصديقان والحشد الذي يحتويهما يدنو بهما من مآذن الأزهر، وصورة واحدة تلوح لخيالهما الهائم وراء الصبية الحلوة المخطوفة، شبابها النضر الذي كان فتنة القلوب مهتوك العفاف مسفوح الدم عند وحش بهيم، والصورة البشعة تلج على ذهن صانع النعوش وتجيش بها عواطفه:

ـ أتعرف يا حاج؟ عندما عادت ست الكل من الحمام الأغبر ناجية بعرضها حمدت الله على هزالها وكل ما فعلته حياتنا الشقية بشبابها.. وهي على كل حال آخر مرة ترى فيها ست الكل حمام السوق، وعندها في البيت الطشت والكوز والكانون، بل إن لها إن شاءت ألا تستحم بقية عمرها بالمرة!

وعادت حركة الزحام المتزايدة التي كانت قد فصلت بينهما وبين رفاق حارة الحمام فلفظت أمامهما في موجة من موجاتها العفوية عبد الجليل وهو يسحب الشيخ حمدان من ذراعه، فقال السقا عندما وجد في رؤيتهما بعض راحة النفس المفقودة:

ـ احترسا في الكلام فإن بعض هؤلاء الذين اندسوا بيننا من البصاصين!

وأضاف الشاعر الأعمي وهو يتخبط في خطوه:

ـ أحدهم زغدني الآن في جنبي وصب الفزع في قلبي عندما سمعته يقول لي: ويل للأعمي عندما يحمي له الخازوق النحاسي المعتبر في حفل كبير ويريحه عليه الجند راحة

الأبد!

قال الحاج عمر وقد لاحت له قمة المئذنة:

ـ نصرك اللهم فقد طفح الكيل!

وقال الشاعر وهو يتعلق بذراع السقاء:

ـ «إنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور»!

وإذا بصرخة جبارة كأنها رد على همسة السقاء وشكاية الأعمي وضراعة الحانوتي، وظهر خالد الذي كان الزحام قد غيبه معتليًا مصطبة أمام باب مغلق وهو يرفس ظهر مخلوق ملوي الذراع في قبضته القوية، ووقعت عند صرخته المدوية لحظة من هدوء نسبي توضح خلالها رنين صوته وهو يخاطب الجموع عارضًا عليها مخلوقه العاوي من الألم:

ـ يا أهل البلد!.. أتعلمون ماذا قال لنا هذا البصاص الحقير الذي وقع في أيدينا؟

فجاوبت سؤاله صيحة من مجذوب:

ـ اسمعوا يا جياع ويا عرايا!.. اسمع يا بلد!

ـ قال البصاص إن الأعور والي القاهرة وراء هذه العصابة المملوكية التي تفترس منذ أيام أرزاقنا وأعراضنا، وإن بعض مشايخنا الذين مسهم ذهبه قد أقفلوا أبواب الأزهر ومنعوا منه الصلوات بحجة الثورة على خفض الجراية في رواق العميان، ولن يسمعوا لكم قولا فماذا أنتم فاعلون؟

هبت عاصفة من زئير، وجأر مجاذيب بالدعوات، وبكي المشوهون العرايا، والعميان دقوا الأرض بالعكاكيز في غضب، والمجذومون الكثيرون ضربوا صدورهم المتآكلة بقطع الحجارة في مرارة، ومن بين الفلاحين الذين في عيونهم لظي محموم ويأس متعلق بقمم المآذن التي انقطع منها التكبير بزغ فلاح طويل الشعر واللحية وصدره عار مشعر وفي يده بلطة صدئة ووثب إلى المصطبة:

ـ أنا وأهلي لم نأكل منذ يوم الجمعة غير رمة جمل ميت قطعناها بهذه البلطة ونهشناها، فأعطني رقبة هذا الكلب فالموت بعدها سهل!

ومن أطراف الجمع تعالت صيحات منذرة:

ـ أعوان الوالي!.. أعوان الوالي!

(١٦)

على وجوه الرجال الثلاثة خفقات متراقصة من نور عليل تلقيه في حيز صغير من عتمة السرداب بقية شمعة في فجوة الجدار، ودموع أيوب تحاول أن تتواري في كم قفطانه:

ـ يا ولداه يا عمر!.. يا ولداه يا عبد الجليل!.. من غير المعقول أن يكونا قد تحملا كل هذا الضرب الوحشي الذي انهال به عليهما أعوان الوالي!

لم يرد خالد الذي طواه يأسه في صمت حزين، فقال خليل وهو مطرق يتأمل أرض السرداب الرطبة:

ـ إن لم يكونا قد ماتا في أيديهم فهما عما قليل ميتان في جب السجن.. من يصدق أننا لن نري بعد اليوم رجلنا الطيب الحاج عمر ولا عبد الجليل الشهم المرح الذي كانت ابتسامته بلسما لجراحنا.. أنا لا أصدق!.. لا أصدق!

وتكسرت في صوت صانع النعوش نبرة حزينة:

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل.. أتعرف يا خليل يا أخي؟.. أنا قلت للحاج ونحن نجري لما كبسنا الجند تعال من وراء الجامع لكنه أصر على الفرار من جهة الصاغة التي قال إنه يعرف أزقتها كما يعرف جيوب قفطانه.. وما إن مرق بيننا الحصان ولسعني الكرباج في قفاي حتى لمحته تحت أقدام الزبانية قبل أن يفصل بيننا الهول..وهل لكِ من بعد عشرته الحلوة طعم يا دنيا!

قال خليل وقلبه يتفطر أسي على صمت خالد المنكسر:

ـ كان عليكم أن تعملوا حسابًا للبصاصين!

وتنهد أيوب في حسرة!

ـ نعم.. ما أحمق اندفاعتنا البلهاء.. هل حسبنا القاهرة ملكًا لنا!.. نحن مسئولون عن القبض على عمر وعبد الجليل والآخرين، بل مسئولون عن مصرع شاعرنا حمدان.. يا حسرتا على الأعمي وهو يتخبط بين حوافر الخيل مستنزلا لعنة الله على الظالمين.. كيف سمحنا لأنفسنا أن نأخذه معنا؟

وظهرت زليخة بالباب وفي يدها مقرعتها فنظرت في ضيوفها الثلاثة، ثم سعت نحو خالد فركعت أمامه وانحنت في خشوع فقبلت يمناه المسترخية فوق ركبته في يأس كأنها يد ميتة:

ـ يا ولداه يا ضنايا.. يا ولداه يا عزة!

شهق خالد شهقة موجعة، فتنهد خليل من قلب مجروح:

ـ حكمتك يا رب!.. الذي خطف عمامتي مدفون هنا في أرض زليخة، وخاطف عزة التي فداها ألف عِمة طليق لا تبلغه أيدينا!.. وطوق أيوب بذراعه عنق خالد عندما دفن الشاب وجهه في يديه وهز البكاء جسمه القوي:

ـ كفي بكاء يا ولدي، ولا تفكر فلها مدبر!

غالب خالد شهقاته وهو يرفع وجهه المبلل بالدموع:

ـ هل ترى هذا ممكنًا الآن يا عم أيوب؟ لا أفكر؟ لها مدبر؟ كيف؟

وغاص السرداب عند السؤال في صمت عميق إلى أن عاد خالد يتكلم:

ـ لنعترف في آخر هذا النهار الأسود أن عزة ضاعت!

حاول أيوب مرة أخرى أن يلطف من مرارة الحقيقة:

ـ لله عاقبة الأمور، فلا تقل هذا الكلام يا ولدي.

فتناول خالد بين يديه مقرعة المحذوبة:

ـ وهل عندي كلام غير هذا أقوله؟.. ومع ذلك فإني لا يهمني الآن أن تكون عزة حية أو ميتة.. لا يهمني ألا أراها بعد اليوم أو أن يعيدها إليّ أحد خرقة مهلهلة.. عزة انتهت.. ولن أقول بعد اليوم إنه لا بد لي من عزة.. اليوم لابد لي من شيء واحد هو الانتقام.. أليس هذا هو الحق يا شيختنا؟

قبلت زليخة رأسه وهي تحنو عليه بصوتها الرقيق الطيب:

ـ أينما تولي وجهك فثمّ وجه عزة، يداها في البحر المالح وقدماها في أرض الصيعد وملء البر أنفاسها الطاهرة!

قال خالد في الظلمة التي سادت السرداب عندما خفق الضوء في ذبالة الشمعة خفقة أخيرة قبل أن ينتهي أجله:

ـ أنت يا خليل ذبحت مملوكًا واحدًا ودفنته هنا، أما أنا يا رفاقي فسأظل أقتل وأقتل وأدعو إلى القتل حتى ألقي وجه الموت.. أنا منذ اليوم قاتل!

فقبلته الشيخة في شفتيه وهي تمسح على رأسه في الظلام.

(١٧)

على قبة المشربية العتيقة عصفور لهج متفائل، ومن خلال خشبها المتداعي كانت المسطحات الخضراء في أرض ميت جهينة بكل ما عليها من نبات وحيوان وإنسان مبسوطة تحت الشمس إلى مدى الأفق، وكان الأب والابن يشربان قهوة الضحي في قاعة الجلوس البحرية، ودفتر الحسبة الكبير مفتوح بينهما، والطمأنينة تشملهما وتوحد أفكارهما، وكل ما حولهما في بيت العائلة الكبير على ترعة جهينة ثابت ومتين ومستقر، وقال إدريس وهو يصب في قدحه جرعة أخيرة من قهوة الإبريق:

ـ كنت على حق يا أبي عندما قلت لي من أول السنة إن الغلة ستكون طيبة!

وهرش الملتزم حمزة في صلعته وهو يبتسم راضيًا عن نفسه:

ـ هذا أحسن محصول منذ السنة التي ماتت فيها أمك!

واندمج إدريس من الفور في شعور الارتياح الذي تشكلت به الملامح الأبوية:

ـ أظن أن في مستطاعنا أن نبيع بسعر السنة الماضية؟

فالتقط الملتزم ومضة الإعجاب في نظرة ابنه ليطرق الحديدة وهي ساخنة كما علمته حكمة الأيام:

ـ لا نستطيع أن نحدد سعر الأردب من الآن.. لننتظر إلى ما بعد زيارة «الأستادار» والاتفاق معه على حصته في المكسب ونصيب الوالي ونائب الوالي.. على كل حال السعر في يدنا!

وابتسم الابن مستجيبًا للتعاليم الأبوية:

ـ أعرف يا أبي.. أعرف أني لكي أفرض هنا إرادتي لا بد لي أن أكسب الكبار وأضمن سكوتهم!

ـ هكذا علمتك يا ولد، لكن لك في بعض الشئون براعة، ولك في بعضها الآخر كل خيبة مع الأسف!

أغضي إدريس عن مؤخرة الكلام وحصر كلامه في موضوع المحصول:

ـ لكن من الصعب على النفس يا أبي أن يكون صاحب الأمر في هذه الأرض غلامًا مؤنثًا وسُمعته في الوحل، وأن يكون لمثله نصيب الأسد من خيرها!

شاعت صرامة الجد الخطير في وجه الأب:

ـ شوف يا إدريس.. خذها مني نصيحة.. املأ دائمًا عين «الأستادار» وكيل صاحب الأبعدية ويده وأذنه وعينه.. املأ عينه.. قل له دائمًا يا سيدي الجندي، ونعم يا جندي، وحاضر يا جندي.. هذه الثلاثمائة فدان المزروعة في ميت جهينة كانت طول عمرها في عهدة أجدادك وتحت مشيختهم.

قال إدريس في محاولة يائسة لتحويل مجري العظة التي يحفظها من سنين:

ـ أعرف يا أبي!.. أعرف هذا من صغري.

ـ أنت لا تعرف شيئًا!.. أنت لا يهمك في الدنيا إلا النسوان.. يجب أن تحفر في مخك أن ميت جهينة لك.. صحيح أنها دخلت في إقطاع مماليك من كل صنف، لا يحصي عددهم إلا علام الغيوب، لكنها في الحقيقة لم تخرج لحظة واحدة من حوزة أجدادك الملتزمين مشايخ البلد.. لا يهمنا في شيء أن يكون اسم صاحب هذا الإقطاع الصغير «أحمده» أو أن يكون له أي اسم آخر، المهم هو أن هذه الأرض لنا نحن آل حمزة من قديم الزمن وأنك من بعدي سيدها وشيخها وملتزمها وجاني عسلها.. هل انحفر هذا في مخك مع النسوان أم لم ينحفر؟ طمئني؟

طوي إدريس الدفتر الكبير وضم عليه قبضتيه:

ـ هل تنوي أن تكون زيارتك للملعون الأستادار قريبة؟

ضحك الملتزم حمزة وهو يهرش بظفر إبهامه وراء أذنه:

ـ لماذا أذهب إليه بنفسي وأنا أعلم أن قلقه على نصيبه في اللقمة الطرية سيأتينا به في يوم قريب؟ دع القلق للآخرين وانتظر ساعتك! تعلم من الدنيا!

واشترك إدريس في الضحك منتهزًا فرصته:

ـ لن يغضبك بالطبع أن أقصد الليلة بيت سليمان أبو طاسة مباركًا له في زفاف بنته؟

فانتهي الضحك بأسرع مما جاء وهرش الملتزم:

ـ سليمان أبو طاسة؟!.. هل هذا معقول يا ولد.. هل تريد أن يقول الفلاحون إن تهنئتك معناها رضانا عن سليمان الكلب وغالب عريس بنته؟ هذا الولد الذي يريد أن يرفع عينه في وجهي كلما طالبته بأجر المرعي؟

ـ نخطف الواجب ونقول لهم مبروك على الماشي وبعدها نتصرف حسب مصلحتنا.

لكن الصرامة كانت قد استردت كل مكانها المعهود في الوجه الأبوي:

ـ اسمع يا إدريس!.. لا.. أنا لا أنسي أن غالب وسليمان يرفضان أن يدفعا أجر رعي العجلة والغنمات في كلأ الأبعدية على أساس الرأس.. هل تريد أن تطمع فينا هذه الكلاب لا لشيء إلا شوقك إلى وجه فاطمة الجميل؟

ظهر الضيق جلياً في وجه إدريس العابس:

ـ أنا مالي بفاطمة! فاطمة حبيبها الفلاح غالب والليلة تتزوجه!

عاد الضحك إلى القاعة الفسيحة التي لم يألفها طوال أجيال من آل حمزة:

ـ الآن تقول هذا بعد خيبتك!

ـ خيبتي؟!

ـ أبوك في شبابه لم تستعص عليه بنت ولا امرأة في هذا العبِّ كله!.. أم فاطمة نفسها.. ست العيلة.. عندما لم تكن منفرة كما هي الآن بل صبية في حلاوة بنتها فاطمة... كانت لي قبل زواجها من أبو طاسة وبعد الزواج سنين طويلة..أبوك لم يخب خيبتك!

ـ سمعت هذا يا أبي على كل لسان!

ـ ومع ذلك اسمع يا ابني!.. قد بلغت السادسة والعشرين وحق لك أن تملأ مركزك.. النسوان على قفا من يشيل، لكن لا تجعل لواحدة منهن على قلبك حكماً يشل إرادتك.. تمتع وأنت صاحي المخ!

ـ يعني لا داعي للذهاب في رأيك؟

أحسن الأب أن الابن يختصر الحديث عند هذا الحد، فنكشه في عناد ديك شيخته الأيام دون أن تجرده من شقاوته على شمورت الديوك:

ـ عالج عند زوجتك المسكينة خيبتك الثقيلة عند بنت ست العيلة التي أخذها الفلاح عذراء وترك لك الحسرة!

ـ معك حق ولن أذهب!

هرش الأب في صلعته ونظر في أظافره بعد أن انتهي من الهرشة:

ـ هذا كلام عاقل.. لكن ليس معنى نصيحتى أن يغمض رجالنا عيونهم عن غالب هذا.

ـ غالب ولد مسالم وفأسه دائماً في الأرض!

قضم الملتزم ظفر إبهامه بأسنانه:

ـ لا بد على كل حال من أن نتثبت مما ترامي إلى سمعنا.. من هؤلاء الذين يأويهم..؟

ـ مجاذيب سواحون.. ما لنا نحن؟

ـ مجاذيب؟.. طبوا على البلد ولبدوا فيها.. لماذا؟!.. من حقنا أن نعرف.

نهض إدريس مستأذناً، فدنا منه أبوه وطوق كتفيه بذراعه وقال له في إعجاب بشبابه القوي:

ـ لا تغضب من مزاح الديك العجوز فهو كلام في مصلحتك.. النسوان أكثر من الهم على القلب، وجائعات كإناث الذئاب المسعورة.. المهم هو حقك في أن تتصرف في هذه القرية تصرف المالك في ملكه، وتحمي خيرها وتستقصي دبيب النملة في أرضها، المهم هو أن تدفع للخزانة السلطانية التسعمائة دينار السنوية وتزيد عليها هدايا الوالي ونائب الوالي والملعون الأستادار.. إنه أكبر من مجرد وكيل للولد الحليوة «أحمده» فهو وكيل الدوادار نفسه، مالك «أحمده» وصاحب العب.. المهم هو أن تعرف كيف تجعل نسبة ربحنا في يدنا، ما دمنا نملك حرية فرض السعر في النهاية على الفلاحين.. أحب أن أثبت لك هذا في رأسك بمسمار.. أما من جهة الغرباء اللابدين عند غالب وصهره أبو طاسة فإن من حقنا أن نعرف حكايتهم، حرِّك واحداً أو اثنين من رجالنا للبص والإفادة!

قال إدريس وهو ينطوي في الإرادة الأبوية:

ـ أمهلني يومين.

ـ ولا تخب مثل خيبتك مع فاطمة!

وسمعت القاعة من حنجرتين حمزاويتين قويتين قهقهةً عاليةً غطت على ثرثرة العصفور المتفائلة في المشربية.

(١٨)

أصاب الشبع من كانت له اليد الطولي في قصاع العصيدة، وحمد الله قطيع العجزة والشحاذين والمسلولين والمجذومين والعميان، وهرش المجاذيب الثلاثة الغرباء جلودهم من تحت مرقعاتهم الصوفية، ثم هلت العمامة الحمراء على حلقة الذكر المنصوبة أمام دار العريس، فخفق لها قلب ميت جهينة هانئًا بمقدم الخليفة الأحمدي، وفي عاصفة من زغاريد وتهاليل اندفع العريس إلى عنان الحصان المختال براكبه، واستعد سليمان أبو طاسة عند جنب الحصان الأيسر لتلقي ثقل الخليفة أثناء هبوطه مباركًا:

ـ مبارك إن شاء الله! عقبي للصبيان والبنات!

كان صوت الشيخ منعشًا كالنسيم الرقيق بعد قيظ مبرح، وامتدت يده برهة قصيرة في استسلام للشفاه الملهوفة التي لا تزال فيها سخونة العصيدة، لكنه لم يلبث أن توسط قوس الحلقة الذي يشغله المجاذيب وبهاليل الطريق والمتطرفون، وسيطر على المكان ضابطًا الإيقاع برنّات منغمة من مسبحته على مقبض العصا المعدني:

ـ مدد.. مدد.. مدد.. مدد.

ـ وظهر الغلام يوسف وهو يتطوح بين يدي الخليفة مقلدًا الكبار، فابتسم له أبو طاسة وظل هو الآخر ينجذب إلى مدد الشيخ حتى زارته الرعشة المعروفة عنه وسقطت طاقيته بضربة من يده إلى الأرض، كاشفة بإرادته رأسه التي يرتعد أمام منظرها من لا يعرفها، ورج المكان على عادته بزعقته العالية:

ـ يا عباد الله! من لم ير طاسة أبو طاسة فليتفرج!

لمعت جلدة الرأس كلها محروقة محمرة مبيضة، وكما لو كان المخ نفسه مكشوفًا كان الجلد متآكلا ومغضنًا وعاريًا من الشعر إلا أسفل القفا وحول الأذنين، ذكري يوم تعس في شبابه صاده فيه نائب والي الجيزة بتهمة تهريب كيلتين من الشعير وحكم عليه بتسخين طاسة نحاسية وإلباسها له في رأسه.

وهمس أحد الذاكرين لجاره في الصف:

ـ إلى متى يتباهي هذا المخبول بقرعته!

ـ فرحان يا سيدي بمجاذيبه الثلاثة!

وبالسمع والبصر كان الهامسان يحاصران المجاذيب الثلاثة الهائمين في رقصة روحانية لانت فيها أجسامهم، وكانا يتظاهران بالاندماج في نشوة الذكر وهما صاحيان لما حولهما، وفي وعيهما الكامل إرادة سيدهما الذي قال لهما وهو يقذف بهما حفل زفاف فاطمة بنت سليمان إلى غالب أبو مفتاح: «أريد سر ضيوف سليمان وغالب، وأريده الليلة!».

ـ انظر! إن المجاذيب ينسحبون مع العريس إلى داخل الدار!

ضحك البصاص الثاني:

ـ لعل ست العيلة أعدت لهم مع عصيدة مخصوصة هبرة لحم!

ـ وهل يدخل اللحم دار أبو طاسة؟.. ربما.. الليلة فرح.. وفاطمة الحلوة كانت تستأهل خروفًا يذبح الليلة عند عتبتها.. يا خسارتها في غالب وفقره!

ـ ست البنات طلعت من عين سيدك إدريس!

وفي داخل الدار استقبل المجاذيب مطر من زغاريد، وهبت ست العيلة تشخط في النسوان وتزق العيال مفسحة لضيوفها الطريق إلى القاعة الداخلية:

ـ زارنا النبي يا رجال الله ونورت الدنيا!

وما إن واري باب القاعة الرجال الأربعة حتى ضحك غالب وهو يتأمل يديه المخضبتين بالحناء وقال في حياء:

ـ حماتي تحب أن تسْبك الدور!

قال أحدهم وهو يحك جلد عنقه عند طوق المرقعة الخشن:

ـ حماتك ست ولا كل الستات.. لو كان عندها بنت غير عروسك لتزوجتها مستبشرًا بوجه أمها!

وكان غالب يؤثر هذا الذي تكلم بمكان خاص في نفسه منذ عرف قصة فراره من ظلم القاضي المرتشي في القاهرة، وكان من القلائل الذين عرفوا أن الشيخ موسي المجذوب اسمه عيسي وأن صداقته لأيوب صهر سليمان فتحت له دار أبو طاسة وقلوب أهل بيته.. وكان شبابه الساذج مفتونًا بقصة ست الحسن والجمال حريم الأمير الخطير التي عشقت عيسي حتى لفقت له التهم لما نفر منها.. وكان يتخيل حريم الأمير العاشقة حورية في يدها سيف، بيضاء لينة بشعر أصفر طويل واقتدار فذ في الرقص والغناء والدلع.. وكان يود لو لم يصل المجذوبان الآخران ليلة الأمس فيفسدان عليه أحاديث الخلوة مع صاحبه الذي خاض بحور الأيام والليالي وذاق الحلوة والمرة.

لكن واحدًا منهما، الأصغر سنًا، تقدم منه بابتسامة كبيرة ووضع يده على كتفه في تودد:

ـ اسمي خالد وأحب أن أكون صديقك.

وتقدم منه الثاني وفعل كما فعل الأول:

ـ أنا عمك الشيخ خليل ويلزمني أفيون جيد!

ـ أنا خادم الإخوان!

قالها في ارتباك وخجل فضحك الرجال الثلاثة وقد حصروه بين مرقعاتهم.. وكان عنده ألف سؤال يريد أن يعرف أجوبتها من هذين الوافدين الجديدين.. كيف كانت رحلتهما المجهدة مع ست الكل، وكيف خرجا من أم الدنيا دون أن يقبض عليهما عسس السلطان، ولماذا لم يأتيا معهما بأيوب، وهل هو في أمان عند تلك الشيخة؛ لكن زغاريد النساء لم تلبث أن جاءت تدق عليه الباب مطالبة إياه بالظهور لعروسه التي تنتظره كي تنحني أمامه بحضور أهلها وتقبل يده وتدخل به إلى الزفاف والصبيان والبنات.

ودفعته أيدي الرجال الثلاثة في ظهره:

ـ اذهب، وسنقرأ لك الفاتحة!

(١٩)

في حضن المقطم وعند أطراف معادي الخبيري المتاخمة للصحراء بلغ الغلام الباب فأسقط نصف درهم في يد الصبية اليهودية العجفاء التي تزعمت جماعة الأطفال في قيادته خلال الرمال والأكواخ إلى البيت المقصود:

ـ اشتروا هريسة!

انصرفت المجموعة الدميمة من بنات اليهود وأبنائهم في حلقة هائصة محكمة حول اليد القابضة على نصف الدرهم، وتريث الغلام برهة عند الباب المغلق، وتناول عمامته المملوكية الرشيقة فسواها مائلة نحو حاجبه الأيمن ثم أصلح من وضع مقبض الخنجر الهلالي وشد الحزام على وسطه قبل أن يرفع سقاطة الباب ويدقه بها المرة بعد المرة، وانتظر دون أن تترك يده السقاطة الحديدية المنحوتة على شكل رأس حاخام جاحظ العينين مديد اللحية ينفث حنكه المفشوخ بسمة باردة خبيثة.

وهمّ أن يدق الباب مرة أخرى عندما انفتح الباب إلى الحد الذي يسمح لغلام يهودي لا يكاد يكبره في السن بإظهار شعره الأحمر ووجهه الشاهق البياض الذي يشيع فيه نمش غامق كنثار العدس:

ـ ماذا تريد؟

تأمل الزائر النظيف وساخة الثوب البالي الذي يلف جسم الولد ثم أشاح بوجهه عن منظر بقايا أسنانه المحطمة في لثته العريضة:

ـ أريد مقابلة السيد ليشع.

ـ هل هناك موعد؟

ـ لا، لكني رسول من عظيم يحترمه السيد ليشع، فقل له هذا.

أحكمَ ذو الشعر الأحمر إغلاق الباب وغاب برهة قبل أن يفتح مرة أخرى:

ـ السيد يسأل عن اسمك واسم العظيم؟

دق المملوك الصغير الأرض بقدمه في غضب ونفاد صبر:

ـ قل له إن اسمي مراد، أما اسم مولاي فهو أكرم من أن يلفظ به على الأبواب، وللخلوة آدابها!

غاب الشعر الأحمر برهة أخرى ثم فتح:

ـ ليتفضل السيد ويتبعني.

دخل مراد بكل يقظته الحيوانية في طرقة من حجارة عارية، تلتقي في نهايتها بفتحة خفيضة لا يبين من المكان الذي تفتتحه غير صفوف من القناني الملونة الدقيقة مصطفة على أرفف مثبتة بحائط الصدر، وأحقاق من زجاج أزرق وأصفر وأسود.. وبإشارة من الوجه المبقع بالنمش انحني مراد وهو يعبر الفتحة إلى الحجرة الداخلية ويمناه تتحسس مقبض خنجره وقلبه في صدره خفّاق، وفي وعيه كلمة مولاه: «ستلتقي اليوم بأفعي بشرية!».

كان الجحر واسعاً من الداخل، لكن الضوء فيه خافت، يزداد غموضه في الأركان المفعمة بأدوات مبهمة وصناديق وسلال، ونهض وراء نضد صغير مفعم بالألغاز قوامٌ ضئيل لمعت صلعته الكبيرة في ضوء المسرجة المعلقة بالسقف وصدر عنه صوت تخطف السمع غرابته المعدنية:

ـ أهلا بالسيد مراد، رسول من يا تري؟

تأمل المملوك الصغير وجه الشيخ الهضيم تحت صلعته الكبيرة وحاول أن يصيد لمحة عينه من بين الجفون:

ـ قل لي بالله عليك يا سيدي.. ألا يمكن أن يأتيك أحد قاصداً علمك لنفسه؟

رنت الكلمات في سكون الجحر معدنية مهيبة:

ـ يحدث هذا، لكنك قلت لغلامي إنك رسول من عظيم، والوقت ثمين يا سيد مراد، الوقت ثمين!

وجلس ليشع ويده العجفاء ذات الأصابع المديدة الطول تشير إلى الكرسي الوحيد الملاصق للنضد من الجهة الأخرى، وانكبت صلعته في الحال فوق مضغة غامقة اللون كانت تستوي وتتشكل في طرف إبرة كبيرة على لهب هين لا تكاد تلحظه العين:

ـ رسول من يا ترى هذا الفتى الجميل الشجاع؟

جلس مراد وهز ساقه وهو يقول في استخفاف وفضول:

ـ مولاي والي القاهرة يبعث إليك بالتحية!

اعتدلت الصلعة وومضت بين الجفون الثقيلة نظرة مكبوتة:

ـ الأمير بظلم؟ نعم الإنسان!

كل هذه السلال والصناديق مليئة لا ريب بالعقاقير الإبليسية والعقارب والثعابين،ويقال إنه يربي صنفاً من عنكبوت أبو شبت الواحد منه في حجم الأرنب الجبلاوي.. يا حفيظ!

ـ الأمير يريد الشيء نفسه، مع درجة أعلى في الجودة كنت وعدته بها في آخر مرة، وهو بالوعد يذكرك.. هذه هي رسالتي بالحرف الواحد.

ـ وكيف حال الأمير؟

ـ ينتظر الشيء نفسه مع درجة أعلى في الجودة!

ـ والثمن مع أميرنا الصغير الجميل زين الفتيان؟

ظهر في يد مراد كيس صغير من حرير أصفر، وشاعت في وسامة وجهه استهانة صريحة:

ـ هذا شكر الأمير!

ووراء كتف صانع السموم ظهر في اللحظة نفسها شعر غلامه الأحمر، وتلقت أذنه منه همسة كان لها فعل السحر في كيانه الدقيق، فامتدت يده وهو ينهض لتخطف الكيس الأصفر بأطراف أناملها الطويلة، ثم اندفع إلى أحد الرفوف القريبة فجاء بقنينة زرقاء تنطوي عليها راحة الكف لفرط رقتها الفاتنة ووضعها في كف مراد:

ـ بلغ الأمير احترامي وضمانتي!

ابتسم المملوك الصغير في كبرياء، وقد أدرك أن الرجل العجيب يطلب منه الانصراف في الحال ليفرغ لشأن طارئ أهم من مسألته، وأشار إلى الغلام الزري بيد حازمة:

ـ أرني طريق الباب يا ولد!

كان يتوقع أن يرى الزائر العظيم في الطرقة الحجرية، لكنه لما وجدها فارغة أمسك فجأة معصم الولد ولواه وهو يأمره ألا يرفع صوته:

ـ سأكسر لك ذراعك إن لم تقل لي اسم الزائر الذي همست به في أذن معلمك! انطق!

وبعد مقاومة ضعيفة أرهف مراد سمعه:

ـ هذه جارية جلبهار عروس مولانا السلطان!

(٢٠)

كان خليل جالساً في الوسط وعيناه هائمتان في الحقول،وكانت رءوسهم الحليقة عارية ومرقعاتهم متشابهة، وأصغرهم سناً يشط به الفكر كلما اعترضت أحاديثهم سكتة طويلة، وينكت التراب بطرف عود رفيع في يده،وكان الظل اللطيف الذي يتفيأه الرجال الثلاثة عند جدار الطاحون البحري مليئاً بهدير حجر الطاحون وهو يجرش الذرة ويهرسها في صوت جامع بين الصرير والمرارة والأنين، وأمامهم كانت أرض ميت جهينة الخضراء مفتوحة البطن تحت الشمس، وعلى مدى الشوف رجل يوالي الضرب ببلطته في جذع شجرة مديدة الخضرة، هناك بالقرب من حائط بستان الملتزم.

وقال عيسي للفتي المهموم وهو يخطف العود اليابس من يده:

ـ صل على كامل النور يا رجل!

شقت صدر خالد تنهيدة موجعة وهو ينظر في عيون رفيقيه:

ـ عزة الآن في كل مكان ، يداها في البحر المالح وقدماها في أرض الصعيد وملء البر أنفاسها الطاهرة، هكذا قالت لي ستنا زليخة وهي تودعني، وهكذا أري الآن أختي الحبيبة عزة!

كان وجهه من فرط شحوبه يبدو ضامراً لكن في عينيه وقدة دائمة الضرام، فطوق عيسي كتفيه بذراعه العارية البادية العضلات:

ـ أتعرف أني كنت أطمع في عزة لنفسي على سنة الله ورسوله، وأني طالما خفت منك على كرامتي لو أني خطبتها منك؟ هل كنت تعرف هذا؟

لاح طيف ابتسامة في ملامح خالد المضناة:

ـ وكنت أنوي أن أرفض وأرجعك وقفاك يقمر العيش!

ـ لماذا من فضلك؟

قالها عيسي ضاحكاً في سعادة لخروج صديقه من بحور الأسي إلى شط الدعابة؛ فتوضحت الابتسامة في الوجه الضامر وأشرقت فيه لمحة من رونقه المفقود:

ـ لأنك بتاع نسوان!

ـ أنا؟.. في هذا المهجر وفي هذه المرقعة؟.. حرام عليك يا شيخ! والتفت إلى الرفيق الثالث يدعوه هوالآخر إلى الخروج من بحوره إلى شيء من المرح:

ـ وأنت أيضاً صل على النبي وكلّم أمة المسلمين!.. بذمتك أنا بتاع نسوان يا خليل؟

كلمه دون أن ينظر في عينيه، شأنه منذ صارت تخيفه الومضة المجنونة التي سكنت مقلتيه في الأيام الأخيرة، وزام خليل وهو يتململ في جلسته فوق التراب:

ـ هذه الأيام القليلة هنا أتمت شقائي!

وتأملت نظرته البعيدة حامل البلطة الضارب في أصل الشجرة، وتدفق منه الكلام فجأة كما لو كان نبعاً يلتمس منفذاً بعد طول احتباسه في جوف الأرض:

ـ الآن عرفت زمني وضمنت عذابي أنا وأمثالي بعد أن رأيت الحياة يفسق بها في المدينة وفي الريف على حد سواء!.. هذه الأرض الجميلة تصب خيرها في أفواه معدودة.. مفترسة الأنياب كلبية الفكين.. ومن حولها يلهث البؤس ويلعق الوحل.. هذه الأرض ليست غريبة أبداً عن مدينتي!

قال عيسي في انتهاز لأي كلام إلى ذكري عزة ومواجعها:

ـ ربما كان الفرق الوحيد بين بؤسنا في المدينة وبؤسهم هنا أننا نستطيع عند الضرورة أن نفر إلى الضياع في الريف الذي تنكسر فيه حدة العسس.. بينما العبد هنا مربوط بالأرض وله مثل الثور وتد.. إنه يعاد قسراً إلى العمل في الأرض ورجله على رقبته!

طوّح خليل بذراعه في الهواء في يأس كامل:

ـ كما يضطجع سادة المدينة على الأرائك وهم يتجشأون ويتلمظون ليتفرجوا على الراقصات العاريات المدربات على رقصة البطن بلسعات كرابيج الأغوات، لا يجد هذا السيد الريفي بعد الملل من الفتك بأعراض القرية ملهاة لثمالة عافيته إلا أن يخلع ملابسه في العراء إلا من السروال، ويجتث ببلطته من الأرض شجرة جرأت فمدت بعض فروعها في اتجاه قصر أبيه الملتزم.. إني أبصق على كل هذا.. كل هذا يمرضني... كان دائي الذي أعرفه وأتجلد له هو الصرع، أما الآن فإن عليّ أن أتصلب معه لهذا الغثيان الدائم الذي يعيش في معدتي.. هذا القرف من كل شيء.. من السجانين والمسجونين والمشايخ والطواشية وأولاد الحرام وأولاد الحلال.. إني لم أعد أحتمل.. حتى الماخور خذلني ولم تهبني بنات هاجر الفاسقات شيئاً من راحة النفس المفقودة.. حتى الغيبوبة لم تعد تنفخ في صورتي.. وأنظر في الناس من حولي فأجد لهم سحن الذئاب، وأجد في الفك الممطوط الناب الشرس الذي يتحلب بلعاب النهم، وفي العين النظرة الصفراء الخائنة.. إني لم أعد أحب!.. لم أعد على الحب قادراً.. هناك أو هنا، المسألة واحدة.. لم أعد قادراً على تحمل هذه الحياة..وهذا العجز معي هنا كما كان سيصحبني لو أني بقيت في سرداب ستنا زليخة مع أيوب وزين الدين، ولم تأخذني الشفقة بك يا خالد أن تضيع وحدك بين القري وأنت هذا المصدوم الذاهل.. لم أعد أحب! لم أعد أحب!

ثَقُلَ الإحساس على نفس عيسي فجاهد أن يطرده واندفع على عادته إلى أي كلام وجده على طرف لسانه:

ـ أما أنا يا عم فأحب النسوان!.. من بعيد، يا ربي، من بعيد!.. وهل لسواح مثلي في هذه المرقعة حظ في زواج ولو من معزة!.. لا حول ولا قوة إلا بالله!

توازن الجد والهزل في صمت عميق، تعلقت نظرة خالد خلاله بنقطتين مقبلتين من الشرق تكبران في اتجاه الطاحون:

ـ هذا لا ريب غالب وعروسه يحملان لنا ما نأكل، وكأننا عملنا بأكلنا.

تنهد عيسي ودق كفًا بكف:

ـ يعني يا أم فاطمة كنت عاجزة عن خِلْفة أخت لفاطمة، قبلها أو بعدها والسلام، سامحك الله!

وقال خليل ونظرته تحتوي القادمين عن بعد:

ـ حرام والله أن ينجب جيلهما جيلاً آخر!

لكن صوت عيسي تدفق فجأة بنبرة جادة:

ـ عجيب!.. ابن الملتزم ترك بلطته في الشجرة وانكسر في الحقل قاطعًا عليهما الطريق.. ها هما يشعران به فيقفان له في مكانهما وهو يحثّ الخطي نحوهما.. ماذا يريد منهما الثعلب؟

اعتدل خالد على ركبتيه وستر عينيه براحة يده وهو يفحص اللقاء البعيد بقلب نابض بالوجل:

ـ غالب قال لي إنه أول عريس في ميت جهينة لا يبعث إلى بيت الملتزم عند زفافه «ضيافة» من الدجاج أو الكشك أو الكعك، فلعل إدريس يطالبهما بالضيافة والهدية.

وطال اللقاء البعيد، الرجلان يتكلمان وجهًا لوجه، والمرأة متباعدة فيما وراء كتف رجلها.. وعلى البعد كانت فاطمة تبدو لعيني خالد جميلة وهانئة بحمي عريسها.. وعلى صورتها والنسيم يعبث بطرحتها تخايلت له صورة عزة بكل شبابها اليافع عروسًا وسعيدة بالحب.. لكن لا! عزة في السماء وفي كل مكان.. نعم يا ست الشيخة نعم!.. عزة يداها في البحر المالح وقدماها في أرض الصعيد وملء البر أنفاسها الطاهرة.

وانشطر اللقاء فعاد إدريس في اتجاه بلطته واندفع الشاب والشابة في اتجاه الطاحون، فقال خليل في اهتمام شديد:

ـ بل أحسب ابن اللص كان يطالب غالب بأجر المرعي مرة أخرى! وضحك من نفسه في الحال وهو يهز رأسه متعجبًا:

ـ أمّا إني أهتم الآن بأمور عجيبة!

وبلع عيسي ريقه ونظرته تشمل الخرقة المضمومة على الطعام في يد فاطمة:

ـ إني أخجل من كل لقمة في هذا الزاد، لكني جائع!

ودنا الطعام وتصافح الأصدقاء ووضعت فاطمة صرتها على الأرض واعتدلت مطوحة بطرف الطرحة وراء كتفها:

ـ الخاسر ابن الخاسر يسأل عن العتاقي والشمورت ولا يستحي من فقر الناس!

لكن وجه غالب كان مضطرماً بالغضب:

ـ يا بلهاء!.. الفراخ حجة حتى يكلمك!.. ألم تفهمي؟

ـ ماذا أفهم؟.. كيف كان ممكناً أن أخاف من الكلام معه أو مع غيره وأنت معي؟

وتحولت الأنظار كلها في اتجاه الشجرة التي عادت إليها البلطة، وبصق خليل على الأرض:

ـ بئست هذه من سلالة! خد منغوز وفك ممطوط وشدق أحمر!

القسم الثاني

الطـــاعـــــــون

(١)

هبت من الشرق نسمات خريفية منعشة، وخيم السكون المسائي على بساتين الحريم، حيث سئمت الطواويس من عرض مفاتنها في ظلال الرياحين، ونامت الظباء في بيوتها الحجرية، وخفتت في ممرات القصر وأبهائه خطوات الطواشية والحشم والجواري، واستوي بلباي في صدر القاعدة المعلقة على عرش لذته الكبرى دافساً وجهه اللحيم في طيبات مائدة يحيطها بذراعيه في سعر، ويلتهم الغض المتبل من مخاصيها وبهريزها الذي تسبح في مائه الثقيل الدسم فتات العكاوي وذيول الثيران وأمخاخ الطيور ونخاع الضأن، وبين يديه إحدي جواري زوجته الرابعة تصب له النبيذ في كأس ذهبية، ما إن تمتلئ حتى يكرعها، وما إن تفرغ حتى تفعمها له الجارية من إبريقها الذهبي الرشيق:

ـ صحة وعافية يا مولاي!

تبسم السلطان ولعق أصابعه الغليظة البيضاء ثم تجشأ وارتكز على كوعه:

ـ صوتك جميل يا بنت!.. من أنت فإني لم أرك قبل هذه المرة؟

تضاحكت الشابة حتى اهتز صدرها البكر من حول الإبريق الممشوق الطول، ولمعت في ثغرها الرطب أسنانها المضيئة:

ـ أنا يا مولاي ساقيتك منذ اليوم بأمر مولاتي السلطانة التي أدخلتني في خدمتها منذ أيام، عبدتك جلشان.

ـ منذ أيام؟.. جلبهار لم تخبرني أنها اشترت جارية جديدة بديعة مثلك.. من أين يا بنت؟

رمت الجارية الصغيرة، نحو ستار دمشقي قريب من مكانها، بنظرة تحتية خاطفة من ركن عينها اليقظة ثم مالت ببياض صدرها الشاهق وهي تصب في الكأس الذهبية دفقات جديدة من روح الإبريق:

ـ من دكة المماليك يا مولاي المعظم، وجلابي هو ياسر الذي باعك مولاتي يوم أشرقت أنوارك على الأريكة السلطانية.

زمجر بلباي وغام وجهه وهو يفعص في ركن الطبق خصية عجل قليلة الطهي لم ترق له:

ـ جلبهار!.. ويل لأمي يوم راقت لي مولاتك!.. كأني إذ دفعت فيها عشرة آلاف ورفعتها إلى مقام السلطنة اشتريت عذابي وسواد ليلي!

سيطرت الجارية على عضلات وجهها بإرادة مدربة حازمة ولاذت بالصمت وهي مطرقة، لكن السلطان الذي اعتكر دمه لذكر عروسه الشرسة، بعد أن فاضت به نشوة النبيذ، اندفع إلى الكلام وهو يرفع عن المائدة يديه اللامعتين حتى المعصمين بدهن الوجبة السلطانية الهائلة:

ـ ليتك كنت عند ياسر من شهرين يا جلشان، وليت بصري وقع عليك أنت يومها.. أين كنت من شهرين يا حلوة؟

خلصت الجارية إبريق النبيذ من مكمنه في حضنها ومالت بفوهته الدقيقة فوق كأس السلطان السكران:

ـ من شهرين؟.. كنت مع بنات مثلي في قافلة تقطع أرض الشام قادمة من شطوط البحر الأسود في حراسة رجال ياسر المسلحين، وكنت أبكي سائلة نفسي عمن سيشتريني، وما كنت أحلم أن تشتريني سلطانة مصر وأضم صدري على إبريق السلطان نفسه!

ـ وكم دفعت فيك جلبهار؟

ـ وكيف أعرف يا مولاي؟.. أخذ ياسر الصرة ودفعني من كتفي وكان المكتوب على الجبين!

ـ هل ترقصين؟

ـ كأن ليس في جسمي عظم!

لمعت في عين السلطان نظرة سكري:

ـ هل عرفت الرجال؟

ـ لماذا لا تشرب يا مولاي؟ هذا نبيذ معتق من أيام بيبرس، والشفطة منه تسكر وتسعد القلب!

فرغ بلباي من لعق إبهامه وعبرت بخمول مخه يقظة خفيفة:

ـ من أدراك بقيمة هذا النبيذ؟ هل ذقتيه يا بنت؟ ومع من؟

ضحك الوجه الجميل وأشرق بهاؤه الفتيّ:

ـ هكذا سمعت مولاتي تقول!

مال السلطان على جنبه وثقلت أجفانه:

ـ آه!.. مولاتك تجرع من هذا الخمر ما يصرع الجندي الغليظ المدمن، فإذا سكرت صار ليلي أسود من سحنة الغراب.. قولي لي. هل تدفعك إلى الشرب معها؟.. تعالي.. اقتربي مني

يا حلوة وتكلمي ولا تخافي.. ما أجمل هذا الصدر.. لو كان لجلبهار مثله لكان حالي معها غير الحال!

جمدت الجارية في مكانها برهة ثم صبت في الكأس ثمالة الإبريق ورفعته إليه في دلال:

ـ بعد أن تشرب زبدة الإبريــق يا مولاي المعظم وتغسل يديك بماء الورد!

ـ هل تعرفين مكانها الآن؟

ـ ليطمئن قلب مولاي، فهي تلاعب غزلان البستان ومعها جواريها وقناني خمرها!

وخطفت الجارية نظرة سريعة إلى الستار القريب على حين كان العتل المستلقي على الإيوان يقاوم شعوره بالامتلاء الكامل، وينهل من الكأس جرعات خفيفة مغتصبة وهو يسح بكلام ملتاث تقطعه سكتات وسني.

ـ إذن فأنت تشربين أحيانًا مع جلبهار.. تسكرن وتطاردن ذكور الغزلان المفزعة التي تخفق قلوبها الصغيرة رعبًا من المطاردة.. أنا لست عبيطًا يا بنية.. أنا أعرف كل ما تفعله بنت الأفعي معكن بعد أن تنصرف عني حانقة كالفهدة الثائرة.. هدية ياسر المشئومة!.. الأفعي بنت الأفعي!.. إن زوجتي الأولى المسكينة لا تفتح فمها. وترتجف أمامي بلا ذنب كطفلة مذنبة..والثانية قابعة في سكون الأموات وراء باب قاعتها، كأنها غير موجودة.. شيء مريح.. والثالثة ساكنة القاعة المظفرية منكسرة النفس كما ينبغي حتى لتأتيني بنفسها بالكرباج الذي أجلدها به، وعندما آمرها تعري لي ظهرها في أدب وتركع مذعنة.. أما هذه النكدة الملعونة فإن يومًا قريبًا سيأتي تكون رقبتها فيه عند إيواظ وتحت سيفه الجبار.. سأتفرج على دمها الفوار وهو يسيل، وعلى لسانها وهو يخرس.. أنا السلطان يا بنت ولا كلمة فوق كلمتي.. أنا سبع البر.. وستكون هناك سلطانة جديدة.. مطيعة طاعة العبد الذي يأكل من طعامي قبلي ليكون الموت في حالة وجود السم من نصيبه.. رقيقة كهذه النسمة اللطيفة التي تهز هذا الستار، ولها طرف خاشع وصوت خافت ونهود بديعة مثل نهودك يا سلطانتي!

عادت نظرة الجارية من الستار المهتز إلى المخرف الذي أسكرته:

ـ أحق هذا يا مولاي؟ هل تنوي حقًا أن تسلم رقبتها الجميلة للجلاد؟ وتهون عليك؟

واعتدل السلطان جاهدًا أن يتزن في جلسته بين وسائد الإيوان:

ـ أنا الكل في الكل ولا أسمح لامرأة أن تذلني.. وافهمي هذا وانقشيه في صدرك الجميل؛ لأنك ستكونين غدًا سلطانة البر الأميرية الآمرة، أما هي فإن دمها سوف يسقط في كفي عندما يحز إيواظ رقبتها.. أنا سبع البر ولا كلمة فوق كلمة السبع، ولقد فرغ أجل جلبهار!

ـ بل أنت يا عجل العجول النتن من فرغ أجله!!

جاوبته الصيحة المفاجئة في صدمة مخرسة، وانفلق الستار عن الفهدة الكاسرة التي يتماوج شعرها الأسود على كتفيها في خصل غزيرة مديدة الطول، فلم توار الجارية ابتسامتها الظافرة وهي تتنحي مفسحة الطريق لعيني سيدتها اللتين تطلقان بشرر وحشي، ولسانها الضارب كالسوط في غير مهل ولا رحمة:

ـ ويل لك مني يا ابن مرتخية الأوصال!.. هكذا تتكلم عني من وراء ظهري.. أنا بنت أفعي يا عار الرجولة يا سبع الأحلام؟!

سقط الإيوان كله في مصيدة الكيد النسوي، وخرست كل معالم الحياة في كيان صاحبه المتخم المخمور إلا الذهول الجاحظ في عينيه الدوارتين بين المرأتين، ولوحت السلطانة لجاريتها بإيماءة شكر راضية، تلقتها بابتسامة استمتاع طفولية وهي تنفض صدرها في عجب، ووثبت جلبهار نحو قعيد الإيوان المشدوه حتى كادت تغرس في عينيه الزائغتين أصابعها المشرعة:

ـ أأنت تخرس لساني وتقطع رقبتي؟ لتعيش أنت؟.. لماذا؟.. لماذا يعيش مثلك يا أخيب الرجال؟.. وماذا بعد أن يعجبك صدرها؟.. ما قصاري جهدك بعد هذا الإعجاب يا أطري من العجينة؟

ورنت ضحكة الجارية في السكون الذي سقط فيه السؤال، متماوجة حرة:

ـ الرحمة يا مولاتي فإن بعلك فَقدَ النطق أيضا!

تأوه السلطان وهو يهم بالوقوف على قدميه فتدحرج بدنه الضخم إلى البساط، وأفلت من أحشائه المحشوة عند اصطدامه بالأرض صوت كريه، وإذا بصفعة قوية من كف صاحبته الهائجة تصافح خده المكتنز المحتقن:

ـ يا مضحك الأمراء يا ألعوبة الدوادار، أهذا كل ما وفقت إلى قوله!

وفي سقطته المخجلة بكي بلباي من عجز وقهر وخزي:

ـ عفوك يا سلطانتي الغالية؛ فإني شربت فوق ما ينبغي لي قيراطين!

ضحكت جميلة الصدر وهي تجيل نظرتها الهادئة في المكان باحثة عن شيء تستر به عريها، وقالت جلبهار متشفية في طرب:

ـ عفوك معك يا ابن المجهولة، فهذا الذي تتفجر به أمعاؤك هو لو علمت آخر زادك!

ـ آخر زادي؟!

وحاول أن ينهض على ركبتيه الخائرتين وقد نطق الفزع في عينيه المخمورتين:

ـ ماذا تقصدين يا جلبهار؟.. تكلمي.. أستحلفك بالله أن تتكلمي يا غالية!

كان على ضخامة جرْمه يبدو فوق البساط ضئيلاً وهينًا، وهي واقفة أمامه شامخة وعالية عليه بنظرتها الفوقية، فوجدت لذة حريفة في أن تعذبه كما تعذبت به ستين ليلة:

ـ هل أكل الجاشنكير من كل هذا قبل أن تقذف به إلى معدتك؟

فصار وجه السلطان من رعبه في بياض الشمع وخار صوته:

ـ وقام من أمام الطعام كالفيل القوي ولم يحصل له شيء، فلماذا تسألين يا أغلي الغوالي؟

ـ تريد أن تعرف؟.. ادخلي مخدعي يا جلشان وهاتي من تحت وسادتي القنينة الزرقاء الصغيرة التي جئتني بها من المعادي، لنريها لسبع البر ونريه فيها نهايته!

وكتمثال جميل للتلذذ القاسي ظلت جامدة في وقفتها المتصلبة ونائية بسمعها في كبرياء عن توسلات السلطان الراكع أمامها في ضراعته الذليلة إلى أن جاءتها صاحبتها الطروب بما طلبت، فبسطت يدها أمام عينيه بحركة متحدية وجعلته يرى القنينة الدقيقة البديعة الصنع التي لمع بلورها الأزرق في بياض راحتها كما لو كان فص خاتم من نفيس الجوهر.

ـ أتعرف هذا يا سيد السباع المهاب؟

ناح بلباي ولطم لحم خديه الجم في انهيار:

ـ أعرف هذه القوارير الكروية البشعة.. هذا من صنع ليشع طباخ السم!

وزحف على ركبتيه نحو قدميها وكرشه يرتج أمامه كأن عراه ستنحل ويندلق عند نعليها:

ـ أدركيني بطبيب يا منية القلب.. لا أريد أن أموت.. الرحمة! الرحمة!.. لا أريد أن أموت..والله إني جاعلك صاحبة السلطنة! ترنحت جلبهار من فرط اللذة واجتاحت المرأتين رغبة في التسلي، وتبادلتا من فوق رأس البهيم الأكرش الزاحف بينهما على البساط ابتسامة مفعمة بالازدراء والتشفي وهما تتفرجان على صاحب دعاء خطبة الجمعة وهو يلعق الأرض طالبًا الرحمة، ونادبًا عمره القصير على أريكة السلطنة، فلما شبعت جلبهار من هذه اللذة وروت غلتها ركلته فجأة في جنبه الطري بطرف نعلها المعقوف:

ـ عندي الترياق، فهل أنت صادق في إشهار سلطنتي؟

ـ أقسم بكتاب الله المجيد!

ـ وتكون لي القبة والسنجق والعصائب السلطانية؟

ـ أقسم بكتاب الله المجيد!

عندها هزأت بكذبه في ضحكة مهينة وهي تناوله ركلة أخرى في سرته:

ـ انهض يا جبان يا خرقة، يا مرتخي العصب!.. انهض فإني لم أدس لك السم فيما طفحت به معدتك، وما كنت في حاجة إلى ذلك بعد أن تولي الأمراء بأنفسهم أمرك الهين.. انهض إن استطعت فإن الأمراء المجتمعين الآن في قصر الدوادار لعزلك لن يلبثوا

أن يأتوك في احتفال كبير لتسليم رقبتك إلى إيواظ وسيفه، أما رقبتي فلن يمسها غير كرائم الجوهر وقبلات العشاق ونفح الطيب!

وكان في صوتها صدق مقنع لكنه تشبث بالرجاء الأخير في جنون:

ـ الدوادار؟!.. الدوادار؟!.. هذا غير معقول.. كيف يتصدي اليوم لعزلي وذبحي وهو الذي أخذ بيدي من شهرين فقط حتى أجلسني على الأريكة وكان أول من سجد بين يدي وقبل الأرض؟!. أما اكتفيت من تعذيبي؟

لكنه فقد النطق مرة أخرى عندما توضحت في الحوش السلطاني ضجة عظيمة وعادت جلشان من النافذة بالنبأ اليقين وهي تتخطر في مشيتها ساترة نهديها العاريين بيدين لعوبتين:

ـ ما ينبغي أن يراني أمراء البلاد عند دخولهم على هذا الحال، فلا بد لي الآن من ستر صدري، ولو أن الفقيه علمني عند ياسر أن من الإيمان أن أتحدث بنعمة ربي!

وعندها انكفأ السلطان على وجهه مغشيًا عليه، وخرجت الجاريتان لاستقبال السيادة الجديدة.

(٢)

كانت الجارية الصغيرة حبيسة درب الأغوات القريب من قلعة الجبل، وهي تتمايل كأعالي الشجر مع هبات النسيم حرة الجسد صادقة النفس خلاقة الحركة فياضة كالموج المتدفق، ولم تكن تؤدي رقصة البطن المألوفة التي يُعلمها الجلاب العيهور لصبايا الرقيق قبل أن يدفع بهن إلى شهوات المخادع.. وأمام المرآة العريضة التي فرغ العمال من تركيبها منذ ساعات قلائل كان مراد الصغير هانئًا بنشوة الراح في جناحه الخاص الجديد الذي تظله تكعيبة العنب الكبيرة في ركن بستان قصر الوالي، مسترخيًا بين حشايا مخدعه العبق بشذي البخور السوداني وهو ينقر بأنامل بديعة الحساسية على صينية صغيرة من النحاس المكفت بالفضة، والغلالة الموصلية الرقيقة التي أسقطتها «عبير» عن بدنها الخمري المتأود ملقاة عند قدميه، فوق رأس كسري الذي يتوسط رسم البساط المصوّر لمعركة طاحنة قوامها رماح ودروع وخيول وجنود وملوك.

وفي ضني وإعياء تدانت خطي الراقصة من وعاء البلور الكبير الذي تسبح في مائه الصافي سمكات نشيطة الذبول رشيقة اللفتات بلهاء العيون، فتباطأ النقر على النحاس في تجاوب منسجم مع تعب الجارية، وما لبثت عبير أن ركعت في عريها اللاهث وأسندت ذراعيها على ركبتي مراد ووميض المتعة يلمع في عينيها اللوزيتين:

ـ سلطاني الصغير!

شدها من شعرها في غبطة:

ـ كم سلطانًا في عمرك القصير يا شقية؟!

ـ لست صغيرة فأنا في سنتي الخامسة عشرة، وليس في حياتي من السلاطين غير ثلاثة!

قرصها في خدها:

ـ كاذبة!

فضحكت وهي تريح نفسها في جلستها فوق كفل حصان كسري الواثب في معمعان المجزرة المفروشة على الأرض:

ـ أربعة!.. جلابي عبد البديع عندما خطفني من سنتين.. وأبو شنب فضة الدوادار قبل أن يهديني إلى الأعور.. والأعور.. وأنت يا نور عيني!

ودفنت رأسها في حجره فنشر على ظهرها الرطب بعرق الرقص منشفة كبيرة وطواها بيديه في هناء:

ـ لو رآنا الأعور الآن لأعادني إلى طباق مماليكه رقماً بين الأرقام وأوصي الشيخ عباس والطواشي إيهاب أغا بإذلالي هناك بين خشداشيتي الملاعين!

تفتق كيان عبير عن ضحك ناعم منغم ورفعت إليه وجهًا كله مكايدة وخبث:

ـ كلام فارغ.. وهل يستغني عنك وأنت سمير نهاره وصاحب ليله..؟! ما أنا بأحب إليه منك!

وتأوهت في ألم لقرصته الثانية المغيظة التي لم يقصد بها خدها، قبل أن تزيده من عبثها:

ـ هل صدقت يا عبيط؟!.. أنا عنده أغلي منك ألف مرة!.. أنا أملكه من أذنه.. ومن عينه الواحدة.. ومن نزواتــه.. أنا لا أنت ترياق همومه وصانعة أحلامه، وإن أنت إلا فاتح شهية عابر يا ولد!

ووثبت في خفة قبل أن يوجعها بالقرصة الثالثة، وخطفت غلالتها فضمتها حول بدنها:

ـ لكن ليطمئن قلبك يا مرادي فهو الآن في حظ ينسيه وجودك ووجودي إلى ما بعد انتصاف الليل على الأقل!

ـ تعالي ارشفي معي من هذه الكأس يا طفلة .. تعالي!

ـ اشرب وحدك فلن أدعك تلمسني ما دمت تقول إني طفلة.. متعتي الآن هي أن أتفرج على هذه السمكات الصغيرة الملونة.. أتعرف أن عيون السمك تخيفني؟

مطّ مراد شفته السفلي وهز كتفه في دلال شبيه بدلالها:

ـ كما تريدين!.. يحسن فعلا أن تنتظري حتى تكبري!

وصب لنفسه كأسًا جديدة وهو يسألها:

ـ لعلك لم تنسي أن تخبئي السم في مكان لا تصل إليه يد الأعور؟

فأخرجت له لسانها وبرقت عيناها اللوزيتان بالرغبة الطفولية في المكايدة:

ـ بل وضعت القارورة في مكان ظاهر من مخدعي حتى يجدها ويسألني عنها فأقول له إنك جئت بها لتهديها في أقرب فرصة إلى أحشائه!

ضحك الغلام الأمرد ونظر في عينيها من فوق حافة الكأس:

ـ تقولين إنه الآن في حظ، فأي حظ للأعور في غيرنا؟

ـ آه.. أنت جديد هنا مثل مرآتك هذه تمامًا.. لا تعرف عن مولاك شيئًا.. هل تريد أن ترى بنفسك؟

نهض متحاملا على نفسه:

ـ أهجت فضولي يا بنت!

ـ تعال إذن.. ستنتظرني عند أول سلم البرج حتى أجيء من جناحي بعباءة أثقل.

وعادت إليه بعد قليل في سروال وصدرية وعمامة تبرق في مقدمتها ماسة:

ـ اكتم وقع خطاك في السلم وإن استطعت فاكتم أنفاسك!

وخلع العاشقان الصغيران نعليهما وتكتما غمزاتهما المتضاحكة حتى أفضي بهما السلم الحجري إلى باب الحجرة العلوية الذي كانت الفتاة تعرف كيف تعالج مقبضه النحاسي في حذر، فلما وسعها أن توارب الباب اختلست مما يدور وراءه نظرة قبل أن تتقاصر في وقفتها لتمكن صاحبها من الرؤية من وراء كتفها وهي تتشمم الرائحة النفاذة التي هبت عليهما من الداخل.

ـ والآن انظر سر مولاك!

في البداية لم ير شيئًا واضحًا إذ لم يكن في المكان الرحب غير ضبابة مادية غامرة تملأه وتتصاعد في غموضها همهمة وضحك وسعال، ثم بدأت تتوضح لهما نتف من حقائق المكان، فهذه الثعابين الطويلة العديدة التي تمسك بأطرافها الأيدي هي فروع النرجيلة العملاقة التي تتوسط إخوان الصفاء وتسقيهم بأنفاسها، وهذه اليد العجفاء التي تلقي في قلب جمرات الموقد قطعًا كبيرة من خلاصة الحشيش النقية هي يد الأعور المضطجع في صدر القاعة المفروشة بالمساند المريحة والحشايا البهيجة الألوان، وهذا القزم الذي يتراءي في الضباب كالدمية القميئة والراكع عند هامة النرجيلة، وفي يده ريشة التهوية، ركوع الطبيب المعالج عند هامة العليل الغالي هو البصاص الأعظم «كروان» رئيس استخبارات الوالي، أما الثلاثة الآخرون فقد ظلوا مبهمين كالألغاز في قاع الضباب.

وهمس مراد في أذن عبير وقد غلبت دهشته على حذره:

ـ انظري!.. إن على رأس أحدهم عمامة!

ونفثت عبير همستها في أذنه وهي تغالب الضحك:

ـ ألم تكن تعرف أن من أرباب الأقلام فرسان نرجيلة أصحاب مزاج؟ وتبينا بعد قليل نبرة الأعور المألوفة لهما، لكنها مشربة بالانتعاش:

ـ غير لنا ماء النرجيلة يا كروان.

ثم توضحت من فوضي الحديث المضطرب كلمات قليلة تلفظها أصوات خشنة ويمزقها سعال بلغمي:

ـ يا متجلي!.. أعظم من هذا الصنف لم تزرع!

ـ نحجزه لمزاج الأمراء!

ـ خسارة في دود الأزقة!

ـ صلاة النبي أحسن.. مزاج أكابر!

وعند هذا الصوت المتهافت الأخير شهق مراد شهقة كتمتها صاحبته بكف خائفة:

ـ تريد أن تفضحنا؟

ـ أتعرفين من هذا؟!.. الشيخ عباس!.. والله العظيم الشيخ عباس!

وكان الدخان قد خف أثناء تغيير ماء النرجيلة كاشفاً بعض معالم الشخصيات المسترخية على المساند، فهمست الفتاة مائلة بعنقها نحو صاحبها المشدوه:

ـ صدقت، هذه سحنته وهذا قفطانه!... من يكون الرجلان الآخران؟

لكن لسان صاحبها خرس عندما هوي كف الوالي فجأة في مداعبة ضاحكة مستهينة، على قفا الشيخ:

ـ قم إذن يا قرد الكتاب وفرجنا على مفعول مزاج الأكابر في طاسة نافوخك الصدئة!

وكان كروان بجسمه الخفيف المرن قد عاد من ركن المكان بالنرجيلة وركع أمامها لتجهيزها، فانتفض الشيخ عباس واقفاً إثر ضربة من طرف مركوب الوالي في خاصرته، وتناول أحد ضيفي الوالي طبلة كبيرة كانت في متناول اليد كأنها تنتظر ساعتها.

وعرّض الرجل جلدة الطبلة لنار الموقد قبل أن يمسح عليها بكفه ثم أراحها على فخذه وبدأ يعالجها بأنامله وهو يهز وسطه على نغمة رتيبة:

ـ أنقر لك يا شيخ عباس!.. أنقر لك يا شيخ عباس!

وكان الشيخ يحبك الحزام على خصره وهو يتضاحك متظرفاً في رده:

ـ وهل في القاهرة كلها مثل أصابعك على الدربكة يا معلم مشمش!

همس مراد في أذن صاحبته وهو يطوقها بذراعيه من ورائها:

ـ الآن عرفت هذا الرجل، فهو زعيم تجار الحشيش.

ـ اسمه مشمش؟

ـ اسم الصنعة.. وهو من غناه يصون أمواله في بلاليص.. وبلاليصه نافدة على بلاليص الأعور!

ولمع بريق في قلب الدخان، ورنت صاجات في يدي الضيف الآخر، وصاح بظلم في طرب:

ـ الرقص الرقص يا عباس!.. وصهلل يا حاج محمود واضبط صاجاتك واوزن نغماتك لرقص المشايخ!

وهاصت الضبابة الرمادية وعظمت ضجتها وانفلت عيارها عندما بدأ القفطان يتخلع ويلعب بطنه وردفيه، فاستطاع مراد أن يرفع صوته وهو يشد على جسم صاحبته قبضتيه:

ـ وهذا الآخر أعرفه بالسمع، فهو صاحب زراعة الحشيش الكبرى بباب اللوق.. الحاج محمود اليوسفي.. عنده من الجواري يا بنية من لا يقبلن مثلك وصيفة!

غضبت عبير وغرست ظفرها الطويل في يد الغلام القابضة على صدرها حتى تململ من الوجع، وأحست برأسها يدور ويتميع في دورانه كأنه يحاول الإفلات من عنقها والطيران في الفضاء، ثم تأوهت في ضعف:

ـ لماذا لا يكون لك شيء من هذا المزاج؟.. هذا العطر يكاد يفقدني وعيي.. ما أعجبه!

ـ لن تجدي منه عندي حتى تتعلمي هذه الحركات من سيدنا الفقيه يا جاهلة!

لكن الرقصة لم تطل، فقد تهاوي الشيخ عباس وهو يشخر ويعتذر في ذلة وانكسار لمركوب الوالي الذي استراح على بطنه وسط عاصفة من السخرية.

ـ خيبة الله عليك، لو باعوك في دكة المماليك ما جئت بنصف درهم!

وسمع مراد وعبير صوت بصاص الوالي:

ـ لم أر مثل بطن هذا العجل إلا بطن بلباي، كلاهما يسعه أن يبتلع الخروف ولا يبالي!

وقال بظلم في صوت مفعم بالاستمتاع، رائق كما لو كان المخدر يمسح عليه بصفاء عجيب:

ـ لو رأيت يا كروان بطن بلباي ونحن ندخل عليه بزيطة المعلم!.. كان كرشه الهائل يزحف أمامه على الأرض كأنه يسابقه في استجداء الرحمة.. ولم يكف عن الاهتزاز المتوسل إلا بعد أن طمأن خير بك صاحبه على رقبته وأقسم له أننا سنكتفي بسجنه في برج القلعة.. وأقسم أنا أني رأيت ذلك الكرش الأعظم وقد تبسم عندما قال السلطان الجديد إنه سيأكل في سجنه مثل ما كان يأكل في سلطنته، وأن ناظر المطبخ سيقصد محبسه كل صباح ليسأله عن هواه في مأكول اليوم ويصدع بأمره.. نعم! رأيت الكرش يبتسم!

وظهر صوت كروان بعد أن هدأت عاصفة الضحك وهو يقول أول كلمة جادة في القعدة الزائطة:

ـ السلطان الجديد.. السلطان الجديد.. متى يا سيدي الوالي يفرغ صبرك على هذه القراقوزات التي يرفعها ويخفضها خير بك على هواه ونحن نتفرج؟

أرهف الولد والبنت سمعهما عند الباب الموارب وهما محتضنان في دوار وسكون:

ـ شوف يا كروان.. أنا أقول لك!

وسكت بظلم إلى أن مست ركلته جثة الشيخ الملقاة عند موطئ قدميه ليستوثق من سباته قبل أن يستأنف كلامه:

ـ إن خير بك لم يكن ليجد أطوع من بلباي الذي كان يشير إليه في كل مسألة ويقول لمن يكلمه فيها «قل له!».. وأنا أعرف أنك لست الوحيد الذي أدهشه أن خير بك تعاون معنا في رفع الرومي إلى العرش وعزل البهيم دون أن يطلب لنفسه شيئًا أكثر من منصب أتابك العسكر الذي كان يشغله تمربغا.. وليس في هذا البلد من يفهم خير بك كما أفهمه.. لقد نظر فينا نحن أنداده فوجد أن نادر الألفي لا يزال غائصًا في خيرات الأحباس لم يعتصر كل زبدتها، ووجدني أعمل لقبضة تمربغا على العسكر حساب العاقل الذي لا يخطو خطوة إلا بعد التدبر والتفكر، وبخبثه الذي يلقف خبثنا جميعًا أدرك أن ساعته هو لم تدق، فكان ما صنعه هو عين العقل ورأس الحكمة وآية الدهاء، إذ يضع يده على القوة الفعلية الضاربة ويزنق تمربغا على الأريكة كما زنق «قل له» من قبل، زنقة الكلب في الطاحون!.. هل فهمت يا كروان؟

روح كروان بالريشة على هامة النرجيلة في انفعال عصبي:

ـ وفهمت أيضًا أنه يتأهب إذن لانقضاض قريب.. أم أن في فهمي خطأ لا أتبينه؟

ـ وكذلك نادر الألفي.. ونحن أيضًا إن شاء الله على أهبة، ولياليا حبالي!

لياليا حبالي.. لياليا حبالي.. واستند مراد بكتفه على الجدار وفي جبينه صداع مبرح، وشعر بجسم فتاته يتهاوي ويثقل على ذراعيه، فنظر فيها وهو لا يكاد يقوي على فتح عينيه فإذا هي غائبة عن الوعي، وتخيل لا نهائية سلم البرج التي ينبغي عليه أن يهبط فيها الآن في سكون وهو يحمل فتاته التي ضربها العطر الفاغم في مجمع أعصابها فكادت تخونه إرادته، لكن خشيته من افتضاح أمرهما شدت من عزيمته في نزوله المضني وصلبت طوله، والبنت على كتفه ثقيلة كأنها البرج كله على كاهله، وإن تكن طرية غضة.

(٣)

ظهر إدريس على حصانه الأسود عند حدود الأرض البور التي تتنازعها المتاهات الرملية ومناطق الكلأ الضنين في أقصي الطرف الشرقي لميت جهينة، عاري الصدر حتى وسطه حيث يبرق الحزام الجلدي الأسود المطعم بنقوش من فضة مطروقة، مديد الساقين في سروال قطني أبيض، وبريق الفضة يلمع في السرج والعنان وفي مقبض السوط الذي يمسكه في يده، وعندما اقترب من الطاحون أرخي العنان في يده ورحي الطاحون يملأ سكينة الصباح بجعجعته القوية، فلما لم يعد بين رأس حصانه ورأس الرجل الجالس عند باب الطاحون أكثر من ذراع رفع الرجل بصره عن المغزل الذي في يده إلى الفارس الصامت، واستوعبت نظرته شكل قدميه في الركاب حافيتين ثم الصدر المتفجر بالصحة ثم استقرت في هدوء إلى الوجه الناطق بالعافية والثقة والكبرياء المطمئنة.

والتقي بصر الرجلين فابتسم الجالس بمغزله عند الباب وهو يهرش في رأسه المحلوق بالموسي وذقنه المهوشة التي يغلب سوادها على بياضها:

ـ قيل ادخلوا بسلام آمنين!

لمس إدريس عنق حصانه بطرف سوطه المطوي في يده ورد التحية بسؤال قاطع:

ـ من أنت وماذا تفعل هنا؟

هرش الرجل في مرقعته التي لا تستر الكثير من جمسه الأسمر الناحل وقال دون أن يتحرك من مكانه:

ـ أنا هنا أغزل زعبوط سليمان أبو طاسة في مقابل لقمتي، وأنا الشيخ خليل محسوب المتجبر المتعالي، وأساعد عند اللزوم الثورين الدائرين في الطاحون!

ـ ما الذي جمع أبو طاسة عليك؟.. أنت من القاهرة وهو فلاح لم تدهس قدمه أرضًا غير هذه!

ـ جمعتنا حاجتي إلى اللقمة وحاجة أبو طاسة إلى الزعبوط!

ثم ضحك قبل أن يقول في بشاشة:

ـ مرحبًا بك عند عمك الشيخ خليل!

ـ تأدب يا آكل الأفيون فلست عمًا لمثلي.. لا تسق لي الهبالة على الشيطنة.. يبدو عليك أنك لا تعرف من أنا؟

وضع خليل المغزل في حجره وانعوج بظهره على جدار الطاحون:

ـ ابن شيخ البلد شيء كبير والجهل به لا يغتفر!

قال إدريس وهو يفرط الكلام على الرأس الحليقة اللامعة، من أعلي:

ـ ماذا كنت في القاهرة قبل أن تجيء بك أنت وصاحبك امرأة أيوب؟

ـ كما أنا: الشيخ خليل!

ـ عمل تعمله؟.. لك شغلة..؟

ـ أنا محسوب النور الإلهي!

زمجر إدريس والتمعت في عينيه عُنجهية غاضبة:

ـ اسمع يا جدع انت !.. لا وقت عندي لتخريفك.. وأنا أكلمك لأن الأستادار كان عندنا الليلة وهو الذي طلب منا أن نستعلم عنكما وعن زميلكما الذي سبقكما.. الأستادار بنفسه.

تبسم خليل وحك ظهره في الجدار بحركة متلذذة:

ـ والله عندي لك شيء أحسن من الاستعلام والتحري ووجع الدماغ هو أن تبارك لهما فهما يشتغلان الآن ثورين!

ـ اعلم أني أريد الأسماء الحقيقية وأني أستطيع أن أعرفها من غيرك.. ما اسمهما؟

ـ ليس اسمهما من الأسرار والحمد لله، فالثور الأول القوي الذي كان أول الاستفتاح اسمه الشيخ موسي... رجل مبروك وحياتك!

ـ موسي أم عيسي؟

ـ موسي كما أقول لك.. والثور الثاني هو مريد جديد ناشئ انجذب في أول شبابه وحلق الزلبطة وساح في بلاد الله وفي ملكه سبحانه.. واسمه الشيخ درويش أبو خالد... وندلعه فنقول له رح يا خالد تعال يا خالد.. ادخل عليهما.. ادخل بارك لهما.. ستجدهما إن شاء الله في منتهي الانشراح للشغل!

جمد إدريس برهة وإرادته متأرجحة بين استعمال العنف في الحال والاطلاع على ما يجري داخل الطاحون، ثم نزل من فوق حصانه وقصد الباب وهو يضرب فخذه بمقبض السوط، وحجر الرحي هدار، وغبار الدقيق هباء منتشر في خيوط الضوء المنصبة من فتحات السقف، ولا ثور ولا جاموسة دائرة، بل أكتاف قوية تدفع ذراع الحجر، وعضلات بارزة في سواعد قوية، وصلعتان يشر منهما العرق على وجهين ملتحيين، ثم أخذته العيون فتوقف الإنسانان عن الدوران وهدأت الجعجعة ووقفا ينتظران معنى ظهور الفتى المتعاظم.

ـ ماذا تفعلان هنا؟

ـ كما ترى يا سيدي، نطحن. أنا محسوب الست الطاهرة عمك الشيخ موسي وصاحبي الشيخ درويش!

تأمله صاحب السوط وشعر بما في عينيه من سكينة متحدية قبل أن يزعق في وجهه:

ـ هذا عمل حيوانات يا أهبل!

سارع المجذوب الأصغر إلى الرد في هذه المرة:

ـ ما دمنا راضين يا سيدي!

ـ الدنيا ليست فوضي وعندنا هنا من وجع الرأس ما يكفينا، هل تفهمون هذا؟.. الأستادار نفسه هو الذي يسأل!

ـ فالله خير حافظًا.. وهو لا ينسي أحبابه!

وفجأة مرق من بين الأرجل فأر كبير وتواري في لمحة وراء الحجر الكبير، فضحك المجذوب ووجه كلامه إلى الشاب العابس الذي يكاد يسد باب الطاحون بقامته وغطرسته:

ـ ما أكثرها هنا.. أكثر من طوب الحيطان!

ضرب ابن الملتزم ركبته بمقبض السوط وأظهر أن صبره ينفد:

ـ الأستادار لن يسكت على وجود غرباء في التزامنا.. والتحري دائر ومن مصلحتكم أن تتكلموا.. دعكم من تخريفات المجاذيب والكلام الذي لن يرضي عنه الأستادار، ولن يسكت عليه والي الجيزة، قد يشمل الضرر غالب وسليمان، وأظن أنه لا يجوز أن يكون ردكم على ضيافتهم أن ترموا بهم في داهية.

وجاءه الرد من وراء كتفه بصوت خليل الذي نهض واقفًا في الخارج وظهرت نتف من ألوان مرقعته:

ـ ثلاثة مجاذيب على باب الله لا يخيفون أحدًا!

وضحك المجذوب القوي وهو يميل بساعديه على ذراع الحجر متأهبًا لاستئناف العمل والصمت:

ـ ليس من السهل جرح أهل الله والحفر وراءهم!

وأضاف المجذوب الصغير وهو مثل صاحبه يأخذ الوضع المائل إلى الأمام ويشد عضلات جسمه:

ـ ذنبنا على جنبنا يا ست يا طاهرة!!

واتجه بصر الجميع إلى الأرض عندما قطع ثنائي من الفئران مسافة ما بين الجدارين في مطاردة خاطفة مجهولة النتيجة، فقال المجذوب الصغير في دهشة:

ـ ربما جاء يوم أكلت فيه الفئران بني الإنسان!

زفر إدريس من الغيظ وهو يعلن انصرافه:

ـ لن تقولوا إني لم أخلص لكم النصيحة!

وعندما وثب إلى سرجه كان المجاذيب الثلاثة قد صاروا عند باب الطاحون صفًا من ألوان صارخة وصلعات لامعة وابتسامات طيبة.

وانغرس المهماز بقسوة في بطن الحصان.

ومرت لحظة صمت قبل أن يرتفع منهم صوت:

ـ هل تريدان رأيي؟

كان خليل أول من تكلم بعد اختفاء ابن الملتزم، والمغزل في يده عاد إلى الدوران:

ـ يبدو أننا لا مفر لنا من أن نتحول إلى سياح حقيقيين متطرفين.. وإن كنت أستبعد أن تشرق أي حقيقة في مثل هذه الأنفس الثلاثة العكرة!

وسأل خالد في وجوم:

ـ يعني لا بد لنا أن نرحل؟

وكانت في صوت عيسي عندما تكلم كل مرارة العمر:

ـ قبل أن يخطف عزرائيل روحي أريد شيئًا واحدًا.. بعيد المنال لكني أريده.. أريد أن يكون لي هذا الولد أبو حصان أسود أربعًا وعشرين ساعة، على أن يكون هذا الكرباج الجميل في يدي، وعندي صحة.

وطال الصمت قبل أن يتفاهم خالد وعيسي بالنظر على الدخول إلى العمل، لكن ما إن هل أولهما على الباب حتى تدافعت إلى شقوق الجدران جماعة من الفئران كانت قد استباحت لنفسها ما حول الحجر والرحي.

ـ إنها تتزايد بسرعة مخيفة!

لكن الجدار في الخارج تلقي ظهر خليل عند عودته إلى غزل الزعبوط، والطاحون ما لبث أن رفع جعجعته مالئًا بها الفضاء الرملي وما فيه من نتف الكلأ المتناثرة تحت الشمس.

(٤)

كان وسط الدار من حولها عارياً ومفتوحاً للسماء، وكان جمودها يستريح من حين إلى حين في تنهيدة طويلة، فالله وحده يعلم أين اختفيت يا أيوب، وهل أنت لا بد في جحر أم مسجون أم ميت، وكانت فحول اللفت الكبيرة تغلي في الماء أمام ست الكل التي تقلبها في الحلة السوداء بعود يابس من شجرة توت، منتظرة نضجها في صبر هادئ عند صهد الكانون.

وبرزت امرأة خالها من باب القاعة الوحيدة وعلى وجهها الرزين شعور بالتقزز، وبين أصبعين من يدها المرفوعة أمامها ذيل فأر كبير هامد، وقالت بصوت يمازج هدوءه حزم عجيب:

ـ ميت من الليل.

ومشت، عجفاء خمسينية، وهي تسند جنبها وطوحت بالفأر المتخشب إلى الفضاء وعادت لتغسل يديها في ركن الزلعة:

ـ جنبي رجع يوجعني يا بنتي!

ونطق العطف في نظرة ست الكل إلى وجه امرأة خالها الذي يتواري في ملامحه الجادة غروب جمال غابر:

ـ سلامتك... كنت ارتحت منه... وايش رمي المحروس على الموت؟

ـ لقيته وراء الدكة.. سمين يا بنتي ومتخشب.. الفئران تقرفني، الحية والميتة!

وتكومت ست العيلة قرب صديقتها وتنهدت مفتتحة حديثًا آخر:

ـ ابن الكلاب رجع يقطع سكة البنت!

ونضحت في صوتها مرارة عمر كامل، وحطمت يدها المعروقة طرف الغصن الناشف الذي كانت قد التقطته من الأرض:

ـ أنا مطمئنة لفاطمة، لكن لو عرف غالب يا ست الكل تكون المصيبة.

كانت ست الكل تعرف كل مواجع زوجة خالها كما كانت شريكتها في صيانة سر قديم انطوي مع شبابها، فتركت فحول اللفت تتقلب في الحلة وتأملت في عطف صامت ذلك الفك القوي المطبق في عناد وكل الوجه الصارم على ما به من ضمور وكآبة، ثم قالت لها وهي تلمس عظمة ركبتها البارزة تحت القماش الأسود البالي:

ـ من بكره يخرج يوسف بالعنزات وفاطمة تلزم الحائط معنا ويا دار ما دخلك شر.. ولا تحملي الهم!

وانتفضت ست العيلة فجأة برعدة شديدة تمشت في بدنها الضئيل وطفح على وجهها حقد مختزن وومض لمعانه السيِّئ في عينيها الضيقتين:

ـ ألف لعنة!.. ألف لعنة يا حمزة وألف لعنة يا إدريس!..

قالت ست الكل وهي تمسك صديقتها من كتفها وتهزها خائفة عليها من الإغماء المألوف الذي يتربص بها:

ـ صلِّي على النبي يا امراة خالي، وما فات مات!

ـ مات؟!

ورفعت ست العيلة رأسها في كبرياء شاحبة:

ـ كلب من نسل كلب... إن شاخت الأمهات طابت البنات!... يا حسرة علينا!

تلفتت ست الكل في ذعر وهي تطبق بيدها على شفتي صاحبتها:

ـ اسكتي!.. اسكتي يا امراة خالي!

انتفضت الشيخة العجفاء وأغمضت عينيها وهي تزيح يد صاحبتها عن فمها المزرور على أطلال أسنانها:

ـ العمر ساكتة يا ست الكل، لما قلبي انفطر!

ـ حلفتك بالحسين تسكتي.. صوت فاطمة طالع من الزريبة!

وانفرج باب الزريبة عن فاطمة التي تدافع من حول ساقيها تيس ضامر وجرو مقطوع الذيل ومعزتان هزيلتان وجحش صغير أسود خفيف الحركة في قيادته للقطيع الصغير نحو الباب، فسندت أمها جنبها وهي تنهض لتعترض الطريق:

ـ ردي العنزات للزريبة فلا خروج اليوم!

ابتسمت فاطمة لست الكل القابعة عند الكانون قبل أن تنظر إلى أمها مستفهمة:

ـ أنا ما أعرف أسرح بالعنزات!

قالت الأم في صرامة:

ـ يوسف يسرح بها!

ضحكت فاطمة في سرور من تعرف أنها جميلة الصبا:

ـ لحمي مر يا امه ولا داعي لخوفك عليّ!

لكن الأم صرخت في وجه الابنة:

ـ اسمعي الكلام يا بنت.. غالب نفسه مع رأيي.. تقعدي مع أمك في الدار ونكفي خيرنا شرنا يا فاطمة، إلا السعران ابن السعران قاطع السكة... ألف لعنة يا ابن حمزة!.. اسمعي كلام أمك يا فاطمة.. في زمني بنات عيونها كانت مفتحة ومع ذلك نهشهن السعران الكبير!

فوثبت ست الكل إلى الكلام لتقطع على الأم ردتها الخطرة إلى الماضي الميت:

ـ اسمعي كلام امك يا فاطمة ورجعي الجحش واخواته وتعالي كلي لك لفتة طرية!

قاوم الجحش حتى غلب أمره فكان آخر من عاد مهزومًا إلى الزريبة، وعادت فاطمة تناوش أمها:

ـ أنا أقطع يده ويد غيره لو مدها!

ولكن ست الكل شخطت فيها لتبتر استرسالها في المناكفة، وألقمتها لفتة كبيرة تشر ماء ويتصاعد منها البخار:

ـ انسدي يا عروسة!

كانت فاطمة تنظر إلى أمها في عجب من خوفها عليها، وفي عينيها البراقتين ومضات متباعدة من مرح مكبوت متمرد، وفي وجهها الوسيم الصبياني خفة جاذبة، صغيرة كالصبي لكن ناضجة كالثمرة، وكانت في أوج المراهقة وعليها نضرة العرائس، لم تكد تمسها شقوة العيش، وقالت فجأة وهي تطوح بضفيرتها:

ـ يا ويلي لو عرف غالب!

قالت الأم في حزمها الهادئ:

ـ لا تقولي لغالب، والزمي حدودنا!

ـ حاضر يا امه.. لا بنات زمنك أحسن ولا بنات زمني، البنت تطلع لأمها!

فلم تكد تقولها حتى شلها الرعب أمام انفجار أمها الرهيب:

ـ اخرسي!.. اخرسي!

كانت أمها كلها ترتجف وعيناها تبرقان ويدها الضامرة الشديدة السمرة ترتعد أمام وجهها:

ـ يا رب اقطع خلفة البنات من وجه الدنيا!.. اقطع يا رب خلفة البنات!

وتهاوت في نشيج عنيف فتلقتها ست الكل بحضنها حتى أراحتها على الأرض وهي تطمئن فاطمة:

ـ بسيطة.. أنا عارفة.. نرش لها يا بنتي.. هاتي الكوز من فوق الزير.

عبت فاطمة بالكوز من الزير واستدارت فرأت زوجها وهو يخطو من عتبة الباب ويلمح مكان حماته من الأرض فيندفع نحوها مستفهماً عما أصابها، لكن فاطمة وهي تناوله الكوز لم تكد تهم بالكلام حتى سارعت ست الكل إلى الرد بنفسها:

ـ روحها ساخت لما شافت الفأر الميت!

والتقت نظرتها بنظرة فاطمة التي عكست لها ارتياحها قبل أن تتكلم:

ـ كله من الفأر الميت يا غالب!

لم يسألها شيئًا حتى أفاقت حماته واعتدلت وتشهدت والتقطت من ست الكل حكاية الفأر:

ـ لقيته يا ابني.. متخشب.. وراء الدكة.

قال غالب وهو يعيد الكوز الفارغ إلى زوجته الواقفة إلى جانبه:

ـ الفئران مالئة البلد أكثر من العادة.. لكن صاحية.. والأنفار تصيدها في الغيط وتأكلها مشوية.

ـ أكلت منها معهم يا غالب؟!

ووضعت فاطمة يدها على كتفه وهي تسأله في انكماش متقزز فرفع إليها وجهه المحب المبتسم:

ـ للآن ما ذقت لحمها يا فاطمة.. وهو حلال على كل حال.. سألنا عم الشيخ هريدي وقال عند الضرورة حلال.

ـ كيف الحال يا حماتي؟

حمدت ست العيلة الله قبل أن تنقل الكلام بطريقة فجائية، على عادتها، إلى موضوع العنزات والتيس والجحش:

ـ أنا كبرت يا ولدي.. كبرت وانهد حيلي.. فاطمة تساعدني في الدار ويوسف يرعي.. الوليد ما له عمل من يوم ما جاء من مصر، والجحش يسليه والعنزات تشغله.. أنا محتاجة لفاطمة يا غالب.. هنا.. معي.

أمسك غالب بيد فاطمة في حب:

ـ أحسن.. على الأقل تنظف لك الدار كل يوم من الفئران الميتة!

قالت فاطمة وهي تنحني على رأس أمها:

ـ عيون فاطمة لكم كلكم!

ولمعت نظرتها التحتية في عيني غالب بإشارة تفهمه أنه المعنى بالكلمة قبل كل إنسان، وقصدت ست الكل حلة اللفت مستطلعة حالها، وتركت الحديث يجري هادئًا بين الشاب وحماته وامرأته.

عادت إلى رحلة الخاطر وراء أيوب الذي أخذ معه طعم الدنيا وتركتهم يتكلمون في وقت واحد ثم يسكت منهم من يصغي قليلا قبل أن يمسك بطرطوفة من الكلام ويتشعلق بها.. وعرفت فاطمة أن غالب عاد ليأخذ المنقرة الصغيرة لأن يد فأسه انكسرت وهو يعزق في حوض الأبعدية الغربي عندما ارتطمت بحجرصغير عليه نقوش عجيبة وتصاوير.. وقالت فاطمة إنها كانت تحب أن ترى الحجر قبل أن يأخذه نقيب الأنفار إلى بيت الملتزم.. وذكرت ست العيلة حجرًا آخر قديمًا كسر فأس فلاح في زمن شبابها، وباعه حمزة في شبابه لليهود بوزنه ذهبًا.

وفحول اللفت تغلي في الحلة السوداء وخاطر ست الكل سواح وراء أيوب، وذهب حمزة يستوفي حظه من الكلام فينهض غالب ليبحث عن منقرته في الزريبة، ويوسف الصغير ينقض فجأة على المكان بطريقته العاصفة:

ـ الغدا يا خالة لمشايخ الطاحون.. وأنا كمان ميت من الجوع!

وقبل أن يرد عليه أحد اندفع إلى خالته وهو يرمي الحلة بنظرة مستكشفة:

ـ هاتي فحل لفت يا خالة ست الكل وأنا أحكي لك عن الفأر الميت الذي وجدناه في الطاحونة!

وسمعه غالب وهو يخرج من باب الزريبة وفي يده المنقرة فقال لعروسه التي اقتربت منه مستشعرة أنه لن يلبث أن يسرع إلى الحوض الغربي:

ـ جسمي يقشعر كلما سمعت عن فأر ميت!

(٥)

ضحك بعض المتلكئين عند البوابة، ضحكوا وهم يعرفون أن ضحكاتهم ستغضب الحارس وتستفز شواربه المنفوشة، فلقد خرج البهلول الأقرع من باب زاوية المجاذيب بين المغرب والعشاء ومرق في العتمة قاصداً بوابة الزقاق التي لا تزال مفتوحة وعندها خلق كثير وحارس سليط شرس، وبلغ الزحمة فشقها بضحكاته البلهاء إلى مكان الحارث ووقف أمامه والبلاهة ضاحكة في وجهه السمين المشعر:

ـ أنا أغلبك في النطة.. تلاعبني النطة؟

وانكسر الضحك عندما تلقي صدغ العبيط الصفعة التي توقعها الكثيرون وحبسوا في انتظارها أنفاسهم، لكن الصفعة نفسها لم تزلزل دفق المرح من نفس البهلول الذي انفلت عياره في الضحك وحاول أن يرتجل رقصة، وهاص الناس وهموا أن يتحلقوا لولا أن أفزعتهم صيحة الحارس المدوية:

ـ انصرف انت وهو يا ازعر.. انصرفوا.. بيتك بيتك.. هز طولك، انت وهو.. بيتك بيتك.

ورفع يده مرة أخرى كإعلان بالصفع وأنذر عبيط الزاوية الذي انسجم وتفتق خصره الغليظ عن حركات مذهلة:

ـ إن فتحت فمك بكلمة أخرى أخذت مني علقة سخنة، فـاهم يا عجل زليخة؟

ـ والله أغلبك في النطة!.. تلاعبني النطة؟

هاج الوجه الدموي وانقض على العبيط الذي راح يتلقي الركل واللكم وهو يعوي ضاحكًا، ويسقط ويقوم وما إن تواتيه فرصة حتى يلعب خصره من تحت مرقعته الوسخة تلعيبًا عجبًا، ثم يدخل بقفاه إلى مجال الصفعة متهللا لها وجاذبًا من حوله فضول الزعر الذين يستجيبون لغرابته فيقتربون ويتفرجون.

ـ برب الكعبة أنط أحسن منك!

وتفادي ركلة جديدة بحركة أفعوانية من وسطه ثم ضحك في وجه ضاربه:

ـ نط وانا انط!

ـ امش من هنا يا ابن المخبولة قبل أن أعدمك العافية!

ـ الله يسامحك!.. يقولها لك أحسن واحد في بر مصر يلعب النطة!

وفي نظرة واحدة كشفت عين البهلول اللمحة الأخيرة من ظهري رجلين كانا ينسلان إلى الزقاق لصق الحائط، وهما يحملان بينهما في ملاءة سوداء حملا ثقيلا يكاد يهد حيلهما، وقبل أن يلقفهما ظلام الزقاق كان قد تبين دلق السقاء على كتف أحد الرجلين وانشرحت برؤيته نفسه، فضحك للشوارب عن بعد:

ـ يجيء يوم ألاعبك فيه النطة!

ووثب إلى الزقاق مالئًا ظلمته بضحكاته.

وقبل أن يبلغا باب الزاوية كان قد لحق بهما وأخذ يترنح في طرب صامت مستمتعًا بلهاثهما العنيف حول حملهما الملقي بينهما على الأرض، وكأن ما في الملاءة لحم طري يغوص تحت طرف سبابته الذي غمز المجهول مستطلعًا:

ـ لحم!!.. أنا عاوز هبرة لحم.. قولوا للشيخة والنبي.. هبرة لحم كبيرة.

قال الرجل الذي يلمع على كتفه دلق السقاء:

ـ افتح لنا قبل ما يرانا أحد.. أحسن لك من غضب الشيخة!

ـ وآكل من اللحم؟ هبرة كبيرة يا عم؟

ـ اعقل يا مهبول وافتح من سكات!

وهمس الرجل لصاحبه في الظلام:

ـ الحقني يا زين الدين، العبيط مزاجه يفضحنا!

اقترب الرجل الآخر من العبيط وأمسكه من ذراعه الطرية في توسل:

ـ يا ابن والدي افتح أولا وتعال ارفع معنا العجل وأنا وحياة ستنا الشيخة أطبخها لك بيدي!

فاض البهلول بالحماسة وفتح ورفع ولم يتركهما عند سرداب زليخة إلا بوعد أكيد بالأكل بعد ساعة واحدة، هبرة كبيرة محمرة.

وعاد خلال حوش الزاوية المكشوف للظلام إلى الحجر الذي يحب الجلوس عليه عند الباب الموصد، وجلس وانتشي فجأة بالسرور فارتعش، ثم ضحك في عبه:

ـ ضحكت على شنباته واللحم فات فات!

وتمطي، ودمعت عيناه، وسقط رأسه على صدره، ولم يلبث أن تعالي شخيره.. والحجر اختفي تحت مرقعته، والحوش ظلمة صامتة تتلقي شخيره وتبدده، حريصة على أن يموت صداه قبل باب الشيخة التي تستقبل في سردابها ضيفيها.

والأرض الرطبة الجوفية التي تعيش فيها سيدة السرداب كانت منقطعة عن الخارج كله، وغاية جهدها في تلك الساعة أن تعكس نور المسرجة الهابط من الطاقة في خفوت،

والمقرعة في يد زليخة، والملاءة لصق الجدار منتفخة، وصاحب الدلق يخلعه في عجلة ويرده إلى الشيخة:

ـ لولا الصيد المهم ما هان عليّ أن ألبس دلق عبد الجليل الليلة.

تناولت الشيخة الدلق ورفعته إلى شفتيها وقبلته قبل أن تدفسه في الطاقة:

ـ متى يفيق الخلبوص؟

قال أيوب وهو يدعك كتفه:

ـ يا لهفتي على شكل وجهه عندما يطير مفعول الفص الكبير ويفتح عينيه ويرانا!

واتسعت ابتسامة زين الدين الذي لم يكن تنفسه قد استعاد كل هدوئه بعد:

ـ إن لم يفق من نفسه أفقناه بمقرعتك يا ست الشيخة!

واعتمدت زليخة بكوعها على طرف مقرعتها:

ـ هل كان خطفه صعباً؟

ـ شوفي لنا في الأول حلاً في بهلولك.. هو الآن بالباب ينتظر هبرة لحم كبيرة من هذا الذي قدر له أن يكون عجلا سرقناه لك لنأكله في السر!

تبسمت الشيخة في هدوء:

ـ لا تشغل بالك برضواننا فهو الآن يأكل كوم لحم محمر في لذيذ المنام!.. أيهما كان أصعب على صانع نعوش في دلق سقاء وحشاش عتيق مثلك يا زين الدين؟ خطفكما الخلبوص أم دخولكما به الزقاق؟

بدأ أيوب يحكي من الأول:

ـ الخرابة بعد كوع بيت القاضي بخطوتين، والناس زحام والمراهنة حامية، أكابر وأصاغر، والديوك تنتحر في المناقرة.. وعندما تأكدنا من وجود الخلبوص داخل أحد البيوت القريبة من الخرابة قال لي زين الدين وهو يريني الفص الذي معه.

لكن زليخة رفعت فجأة مقرعتها في وقفة انتباه:

ـ الملاءة بدأت فيها الحركة!

وتململت الملاءة قبل أن يقعد الذي بداخلها ويسقطها عن رأسه، ودعك عينيه وتثاءب قبل أن تجول نظرته المذهولة فيما حوله، في مسرجة الطاقة وجو السرداب والعجوز الرهيبة والرجلين الهادئين.. وحاول أن يتكلم أو يصرخ أو ينهض على ركبتيه وارتج كرشه أمامه في المحاولة دون أن ينفك لسانه الذي عقده الرعب، لكنه ما إن جمع قواه للوقوف حتى دهمته صيحة خارقة من المجذوبة:

ـ اخشع يا شيخ عباس فالله يمهل ولا يهمل، وكل خلبوص يأخذ نصيبه!

ووجف قلبه عندما دقت الأرض بمقرعتها في حركة ذات جلال وخطر وهي تطلق صيحة أفظع من الأولي:

ـ محكمة!!

خفق نور الطاقة عند تلك الصيحة التي أرجفت زين الدين وأيوب الجاهلين بهدف زليخة من خطف الفقيه الراقص، لكن ما صنعاه في ليلتهما كان يملأ قلبيهما بالرضي والراحة المزهوة والشعور بالفتوة، كل الحكاية التي لن يكون تصديقها سهلا على أحد، زي بعضه، فإن هذا لن يستل من النكتة روحها، من أول فص الأفيون الذي أجبراه بعد انتهاء عراك الديوك على استحلابه، وهو مزنوق بينهما وراء باب بيت مجهول ومتضرع في الظلام وقارئ آية الكرسي، إلى اقتحام الزقاق بفضل من الله وبهلوله، إلى رهبة مقرعة الشيخة المرفوعة التي أسكتت حسّ الفقيه العائد من غيبوبة الخدر وألانت عظامه على الحصيرة البالية، إلى هذا اللعاب الذي يسيل من شدقيه وهو يتطلع بعينيه الجاحظتين إلى أقرب الرجلين إليه، وعند هذه النظرة البكماء حذره زين الدين في صوت يريد بهدوئه أن يوحي بالهدوء:

ـ إياك أن يعلو لك صوت يا شيخ نسناس!

لكنه لم يجد رداً غير الرعدة العنيفة الخرساء والعيون المختبلة والكرش الهزاز ولعاب الرعب، فدعا أيوب بإشارة من يده أن يدنو هو الآخر من ذلك اللحم الوفير المرتعد ويحاول أن يدفع عنه بعض الفزع الهائل الذي تملكه.

وتعمد أيوب وهو يكلمه أن يريه وجهه في النور الخافت الساقط من المسرجة:

ـ امسك نفسك يا ضلالي.. إن لم تعقل من نفسك وتفيق من الفص بالصلاة على النبي ألزمتك النطق بالضرب، وحياة سيدك الأعور!

والشيخ في كابوس فظيع وحدود الحلم والحقيقة مبهمة في وعيه الملتاث، لم يعرف أيوب الذي كان أقدم سكان بيته، فمصمصت الشيخة بشفتيها وهي تخفي مقرعتها وراء ظهرها، ولمعت صلعتها في مسقط النور العليل وكشرت له عن ابتسامة تفشت مجعدة في وجهها:

ـ نعم نعم!.. أرني فرجني يا لاعق النعال يا خلبوص الأعور.. نعم أرني اهتزاز كرشك الذي أذاع صيتك في مجامع الفاسقين القتلة!

فأمسكها أيوب من ذراعها الضامرة وقال لها في أسف وحيرة:

ـ فقد الرجل النطق يا ستنا والكلام معه ضائع في الهواء!.. تعبنا على فاشوش والأمر لله!

لكن زين الدين كان قد عاوده دوار القطعة التي قضمها لنفسه من الفص قبل أن يدفع به في فم الشيخ ويأمره باستحلابه:

ـ لا لا.. اصبروا على النسناس.. بعد قليل سيتكلم.. سيتكلم بعد انتهاء الهز.. كل ما في الأمر أنه ينصب لنا فرحاً في البداية ويفرجنا على رقصاته التي ملكته العتبات والكباش والديوك والنساء.. صبركم بالله.. من غير المعقول بعد كل هذا التعب أن يقع لنا مفلوجاً.. إنما يريكم رقصه الذي تربي من خيره دهن بطنه!

التقط أيوب الفكرة وانزعجت لها نفسه عندما استوعبها فسأل الشيخة في قلق:

ـ في هذه الحالة ماذا نصنع بهذه المصيبة؟

ركعت زليخة عند الحصيرة ومست الصدر اللاهث بكفيها:

ـ هذا ما لم يكن في حساب زليخة، لكن المهم عند زليخة هو أن عمامته لن ترقص بعد الآن تحت مراكيب الظالمين أعداء الله!

وجاوبتها من كومة اللحم المرتجفة همهمات غامضة كالعواء، فالتفتت إلى مريديها وقالت لهما في صوت مفعم باليقين:

ـ هون عليك يا ساقي البن وهون عليك يا صانع النعوش، إنه يخرج من عندي يوم يخرج معافي في بدنه وفي روحه، فإلى النوم واتركاه لي فإني منذ الليلة ولية أمره.

وفي الطاقة خفق نور المسرجة خفقة متوهجة.

(٦)

تلاشي الرنين الذي يدوِّي عند أبواب القلعة عندما تدق الكوسات وتقرع الطبول، فانتظر السلطان تمربغا حتى تبدد وقع سنابك الخيل وهي تبتعد داخلة إلى الإسطبلات بعد أداء نوبة العشاء، ثم ابتسم في وجه الجميلة التي نالت الإذن بالمثول، وقال لها من مقامه العالي أنه تحت أمرها، وسألها في أدب رسمي أن تتفضل ببيان غرضها، فأدركت بفطرتها اليقظة أن هذا العملاق الجميل الراسخ على الإيوان يريدها أن تفهم من أول كلمة أنه سيدبر لها راحتها على خير ما تشتهي زوجة سلطان سابق مسجون، لكنه لن يعبر هذا الجسر إلى فتنتها أو يطمع فيها لنفسه، فالتزمت هي الأخرى حد الأدب الرسمي، وإن تكن نثرت وهي تحني رأسها خصلا حالكة السواد عجيبة الطول والحيوية من سلاحها الجبار الذي كان بائعها يمشطه بأصابعه أمام الجموع المبهورة في دكة المماليك ويفرده ويطويه وهو ينادي عليه: «يا صاحب النصيب في ليل شعرها هنيالك!» ثم رفعت رأسها بحركة أخرى تعرف أنها تخطف الشعر السائب وترد خصله فوق رأسها وتبعث بأطرافه اللماعة الغزيرة ضاربة في ردفيها، وتنهدت مفتتحة ردها على سؤال الرومي الحاكم:

ـ بين يدي مولانا السلطان جارية ضعيفة لا تعرف مصيرها، ترملت بعد شهرين من زواج شرابه مر، وجناحها مكسور!

استوعبتها نظرة السلطان الهادئة ووزنت نعومتها الفذة وعلى ركن فمه شبهة ابتسام:

ـ ترملت..؟! زوجك كما تعرفين حي وعنده ما تشتهي نفسه من فرش ومأكول، فإن كان ما بك رغبة فيه كسرنا المواضعات السلطانية وأمرنا أن يُفتح لك باب محبسه في أية ساعة تختارينها من النهار أو من الليل.

آه! هكذا قالوا لي عنك!.. سخريتك أوجع من سيفك على رقاب العباد، وقسوتك رومية مثل أمك!.. هذا معنى ابتسامتك الخنجرية وكلماتك المنقوعة في السم.. سلاحي خائب إذن وأنوثتي مردودة إلى سيد الخائبين الذي تعلم عجزه كما تملك مفتاح محبسه!.. أنت مطمئن ومتسلطن وقلبك فاتر وإرادتك في قبضتك والدنيا تحت قدميك، لكن كل هذا الاحتدام الفائر في دمها الجركسي لم تفلت منه شرارة إلى صفاء وجهها المتورد الذي صور للسلطان في الحال مزيداً من الانكسار وهي ترد الطعنة بالعتاب مسبلة جفنيها:

ـ مولانا السلطان يعرف أني أرملة من ليلة زفافي، وأن فتح باب المحبس لي لن يفتح على بشيء، ولن يكون المطلب الذي حفزني إلى طلب المقابلة، لكن لعل لمولانا لذة في نبش جراح المنكسرات!

ـ ما هو مطلبك إذن؟

قالها سلطانية حازمة، فإن تكن لم تفهم الغمزة ويلزمها الوخز فما على السلطان حرج وهو حر يأخذ ويدع ما يشاء، هكذا فهمت وهي تطوي تحت الخمار الرقيق خصل شعرها المتمردة بطبيعتها، وتكلمت في صوتها نبرة جادة:

ـ أنظر عشمي فيك يا مولاي، فهما في الحقيقة مطلبان!

وفي هذه المرة سجلت المرأة بادرة الدهشة التي ظهرت في وجه الرجل ثم أخفتها في الحال سيطرته الخارقة على شعوره، وأضافت قبل أن يتكلم السلطان:

ـ ومطلبي الثاني متوقف على إجابة الأول، وحسن ظني بك فوق ما تظن!

البنت تلعب لعبة أكبر من عرض روحها على السيد الجديد، البنت ليست سهلة، لكنه مع هذا الفهم سقط في شبكة الفضول البسيطة:

ـ تفضلي بشرح هذه الفزورة اللطيفة!

رشقت عينيها في عينيه وكان صوتها مطمئنًا:

ـ مطلبي الأول هو أن أختار بنفسي المكافأة إذا ما ظهر لمولاي أن للسر الذي أحمله إليه خطره ونفعه.. عندما يتبين أني صادقة عندما أقول له إني مفيدة وكلي منافع، بصرف النظر عن جمالي الذليل الذي لا يحرك في مولاي شعرة!

وقع في الإيوان الرحب صمت متآمر عميق يملؤه وجود الحسناء عند آخر درجات الأريكة، وسجلت المرأة حركة عضلة الفك التي أفلتت من رقابة الرومي الصارمة على نفسه، قبل أن يقول الرجل بزيادة وتر متهدج في صوته:

ـ أنت جميلة الجميلات يا جلبهار لكن عندي من هموم النساء فوق احتمال رومي واحد!

ـ يا مسكين!.. ويلي! عفو مولاي إن أفلت لساني كلمة خائبة!

ـ بل أنا مسكين حقًا يا جلبهار.. ومعالجة أمور هذا البلد تريد يداً متفرغة، وأنا أري يدي قوية وصالحة.. والوقت ضيق.. لكن لنتكلم في شأننا، ما هو المطلب الثاني؟

ـ والمكافأة؟ هل اتفقنا أول كل شيء على أن أختارها أنا؟

ضحك السلطان لأول مرة من قلبه وانبسطت ملامحه الوسيمة بل تغيرت جلسته المتصلبة:

ـ أشعر أنك حددت من الآن هذه المكافأة... هل أستطيع أن أعرفها؟

وببساطة نهضت على ركبتيها ونثرت شعرها بكبرياء، وسقط الخمار:

ـ هذا هو المطلب الثاني يا مولاي: فأنا أريد أن تكون من الآن على بينة من النعمة التي ترفضها.. ومكافأتي التي أريدها هي أن تقبل مني هذه الهدية.

وصحيح أن من غير المعقول أن يدخل أحد على السلطان دون استئذان، وصحيح أن على الباب الحجاب، لكن تمربغا شهق وزاغت نظرته نحو باب الإيوان، وقد فكت جلبهار بأصابع نشيطة رباطين في عباءتها فإذا العباءة على البساط وإذا هي مطمئنة مبتسمة عارية وشعرها كموج الليل!!

وما كان طريق تمربغا سهلا من قافلة العبيد إلى دكة المماليك إلى دهاليز السياسة إلى فتن العصابات إلى العصائب السلطانية، ولقد وقعت له في الحياة أعاجيب تخطي مآزقها ساكن النفس وكسبها بالعقل المهيمن والعصب الثابت، لكنه لم يضطرب في عمره كله مثل ما اضطرب أمام الحسن النفيس الفذ الذي صدمته به أجرأ نساء الدنيا، هذا الشعاع من فلق الصبح الذي ناحت عند أنواره مواجع بلباي ولطم عجزه، هذه الفهدة الكاسرة البازغة بالظفر والناب لمعركة حياة أو موت.

وكان يتوسل إليها وهي تضحك ضحكًا يشارك فيه كيانها المرح كله، كأنه دعوة إلى الرجل السلطان أن يشعر معها بأن الحالة التي وضعته فيها جرأتها ممتعة، وأن جو الجلسة كله ينبغي أن يتغير إلى شيء من الندية والتفاهم.

ـ جلبهار اعقلي!

ـ برودك يطير العقل.. هات لي عقلا من عندك!

ـ خذي.. خذي العباءة أتوسل إليك.. البسي.. الله يسترك.. سنتفاهم.. سنتفاهم!

أعطت ظهرها للعباءة التي بين يديه ورمته بلفتة عين من فوق كتفها ومن خلال الليل الخافق حول وجهها المشرق بالنصر:

ـ ما دمنا يا مولاي تفاهمنا فألبسني العباءة!

فلما ألبسها العباءة استدارت له وغرست رايتها:

ـ والآن اربط ما حلّته يدي!

وتفرجت على أصابعه المتلعثمة في استمتاع حتى ابتعدت عنها النفثات الدافئة من أنفاسه المتلاحقة عندما أسرع فوق درجات الأريكة صاعداً نحو مركزه.

وقبل أن يجلس سألها بصوت مضطرب:

ـ ما هو السر يا مقدامة فقد آن أن أعرفه؟

صعدت جلبهار الدرجات السبع واحدة فواحدة في مهل متطاوس، وبدفعة من ردفها زحمته في الكرسي السلطاني:

ـ أنا أحمل معك همومك من قبل اللقاء وأنت لا تدري، ولك هموم ثلاثة اسمها بظلم ونادر والدوادار، ولي في الثاني والثالث كلام ينفعك في حينه، أما الأول فأنا كافيتك شره من الآن.. حياته رهن إشارتك.. حياته هنا!

وقبضت يدها قبض مالكة الزمام المتمكنة ثم مدت ثلاثة من أصابعها فبرمت بها طرف شارب السلطان:

ـ لكن قل لي أولا يا قليل الكلام أنك لن تأخذ مني سري ثم تقتلني به!

ـ الرجل الذي تكلمينه ليس في كل الظروف وغداً!

ـ يكفي أن تقـولها لي فأضع يدي في يدك مصدقة... قلها يا جميل، يا حجر.. ألا تريد أن تقولها لجلبهار التي يحضنك قلبها؟

ـ تكلمي.. لن أغدر بك أبداً.. أقسم بهذه الخصلة.. ما أجمل شعرك!

ورفع الخصلة وقابلها بشفتيه ثم أعادها إلى مكانها في عناية رقيقة:

ـ حياة بظلم في يدك؟.. أتعرفين معنى هذا؟.. انهيار حلف بظلم ونادر الألفي.

فأمسكت أذنه بين أصابعها وعركتها مؤنبة وعاتبة:

ـ نصف المسافة إلى هدف عمرك.. هنا.. في هذه اليد الصغيرة!

ـ لو صح كلامك فإنه لا يبقي أمامي في المضمار غير هيلمان الدوادار وحده! وحده.. والأرض مكشوفة.. أنت داهية قبل أن تكوني فتنة!.. قولي ما عندك كله!

ـ هل تعرف أحب ما في الدنيا إلى الأعور؟

ـ يقول ديوان استخباراتي إنه يحب الحشيش وولداً اسمه مراد وبنتًا اسمها عبير، فهل عندك خبر؟

ـ عاشقان في أول العمر، ويطلبان الثمن؟

ـ تعرفينهما؟

ـ كلمتهما وهما على استعداد لقتل الأعور بالسم إذا وافقت أنت على الثمن.

ـ الثمن.. الثمن.. لكل شيء ثمن.. سيقول الجميع إنه مات بأثر السم القديم، ولن تتجه الشبهة إلى أحد.. وفي الإمكان أن نرشو الطبيب نفسه عند الضرورة.. معقول.. معقول.. ما ثمنهما؟

ـ أن يتزوجا بعد نوال المراد ويكون للولد ولو بعد حين ـ فعمرهما معًا لا يزيد عن ثلاثين سنة ـ منصب والي القاهرة!

أدرك السلطان تمربغا أن الحديث قد بلغ رشده، وسألها فجأة وهو يتجلد لنظرتها:

ـ وأنت ما ثمنك؟!

ـ هل بين نسائك واحدة تحبها؟ بمعنى الحب؟

ـ لا!

ـ هذا إذن هو مكاني الشاغر!

ـ سلطانة؟

ـ عبدة!

فأطبق فجأة بيد قوية على ذراعها وأجبرها على الخوف:

ـ عبير جاسوسة الدوادار يا شاطرة، وأنت إما مخدوعة مدسوسة عليّ أو جاسوسة أخرى من جراب الدوادار، ولن تخرجي من هنا حتى أعرف الحقيقة ويطمئن إليها سيفي!.. ولسوف أعذبك حتى تفرزي كل ما عندك!.. لئن كانوا علموك المشي خطوتين على الحبل فأنا أمير الراقصين على الحبال!

(٧)

ـ يا عم عربي.. جدي يقول لك اصح لنفسك لأن الكبار هنا!

كان الصبي قد ظهر على جسر الترعة في ركض سريع يشاركه بهجته كلبه المنقط الصغير مقروط الذيل، لكن الكلب توقف على بعد حذر وخرس أمام العينين الصفراوين والأنف المنقاري والشارب الهائل، فانتبه رئيس أنفار الملتزم إلى الصبي وهو واقف تحت التوتة التي تمد ظلالها على الجسر وقفة الكاشف المهيمن، وعندما كلمه خرج الكلام من بين شعرات شاربه النافشة مثل أشواك القنفذ:

ـ الكبار؟ من منهم يا بركات؟

ورائحة البرسيم ملء الفضاء في الحوض الغربي وخضرته كاسية، وفي الجو لذعة برد خفيفة لم تمحها بعد وقدة شمس الضحي، وصفوف من المناجل بأيدي فلاحات نشطات عجفاوات في الجلاليب السوداء، ورجال ضامرين في قمصان زرقاء تشدها على خصورهم المنحنية حبال غليظة من تيل مفتول، ورئيس الأنفار يستوعب بنظرته الأرض والعمل قبل أن يستحث الصبي على الكلام:

ـ هل قال لك جدك ماذا يريدون؟

لكن بركات وجد عناء في تذكر كل ما قاله جده الذي يعمل في نوبات الحراسة النهارية على صوامع حمزة الملتزم:

ـ رجل وست وعقلة الصباع!

ـ عقلة الصباع؟

لمعت عينا بركات وهو سعيد بإحساسه أن العربي المخيف الذي يرتعش منه العب كله لم ير الأعجوبة التي رآها:

ـ شيء من وراء العقل يا عم عربي.. أنا شفته وهو خارج من بيت الملتزم مع سيدي إدريس والست الحلوة والرجل الحلو الذي معها.. وكل ما نط وتحنجل بين الأرجل يرن في الطرطور جرس.. طول عقلة الصباع.. والله العظيم والا اعدم نظري.. والعجيب يا عم عربي أنه يتكلم!

ـ وجدك لم يقل لك من الرجل الحلو ومن الست الحلوة؟ هل هما الأستادار وزوجته أمْ عيون زرق؟

أسكت الصبي كلبه الذي بدأ يناديه من بعد بنواح خافت جبان قبل أن يتكلم:

ـ لا.. أنا أعرف الأستادار يا عم عربي.. شفته كثيراً في بيت سيدي الملتزم.. هذا شاب كالقمر، جاء في ركابه الأستادار نفسه ومعه نائب الوالي أيضاً.

لم يستطع رئيس الأنفار أن يخفي قلقه:

ـ ماذا تقول يا ولد؟ الأستادار ونائب الوالي.. هنا في ميت جهينة على الصبح؟

ـ لا.. شربا القهوة مع الضيف هو وسيدي حمزة وسيدي إدريس وركبا الخيل وعادا إلى الجيزة.. هو صرفهما.. قال لهما أمام بيت الملتزم، وأنا سامعه بأذني، إنه يريد الجري في الغيطان والفسحة ولا لزوم لهما، وهز عقلة الصباع طرطوره ورن جرسه مؤيداً كلام الجدع الحليوة.. آخر عظمة!

وتوقف فكر عربي عند نقطة واحدة في كلام الولد:

ـ تقول إنه أمرهما بالانصراف أمام بيت الملتزم؟.. ألم تسمع أيضاً إلى أين يقصد هو ومن معه؟

زام الكلب وهز ما أبقي له الفأس من ذيله كأنه أصبع رشيق الحركة ملفوف بشعر لامع أسود، لكن السؤال كان قد أحيا في ذاكرة بركات بعض كلمات جده المنسية:

ـ آه.. افتكرت.. جدي يقول لك يا عم عربي إن الجدع الحليوة مركزه كبير وصاحب كلمة، وإن جاء من هنا قدم له أحسن تحية ودار أمورك معه إلى أن يحل عنا بالسلامة.

عادت نظرة عربي من سير العمل الذي يملأ الأرض في هدوء إلى حفيد صديقه ولمعت في صفار عينيه بارقة دهشة:

ـ يجيء من هنا؟!.. يا ولد تذكّر إن كان جدك قال لك إن الرجل والست في طريقهما إلى الحوض الغربي.

واستشرف الأفق بنظرته بينما كانت إشارات يدي بركات تستعطف كلبه الصغير وتستمهله برهة أخرى ينجز فيها المهمة:

ـ لا أعرف يا عم عربي!

ـ ولم يقل لك أي شيء عنهما؟

ـ قال إن نائب الوالي نفسه كان يكلم الجدع الحليوة وهو في نصف هدومه ومرعوش.. أنصرف أنا يا عم عربي؟.. لعل الحظ يسعدني ويكون لي نصيب في نظرة أخرى من عقلة الصباع.

بدأ عربي يستفسر لأول مرة عن حكاية عقلة الصباع هذه التي لم تدخل مخه لكن منقاره لم يلبث أن اتجه فجأة إلى الأفق الشرقي الذي علت فيه زوبعة غبار بعيدة:

ـ خيل مقبلة!

ورفعت بعض القمصان الزرقاء رءوسها.

وسكت مقروط الذيل عن عويله وتأمل في دهشة صديقه الذي أخذ يتوثب من الفرح ناسيًا رهبة رئيس الأنفار:

ـ عقلة الصباع جاء لنا لحد هنا!

وكان الخيالة المقبلون على الجسر ثلاثة من الفرسان على خيول متهادية فخورة بشبابها وزينتها وراكبيها، يتبعهم حصان عجيب في متانة جسمه المدملج رغم حجمه الصغير، وفي سرجه العريض يظهر ويختفي طرطور لا يهدأ عن الحركة، وعرف عربي أول ما عرف حصان إدريس ثم إدريس نفسه، ولم يتبين أنوثة أحد الفارسين إلا عندما ترجلت المرأة أمامه وهي تنادي الطرطور بصوت رقيق مرح:

ـ نط يا قمقم وتعال سابقني في الجري!

والذين رفعوا رءوسهم في البرسيم وسكتت مناجلهم عن الحش وتوقفت أصابعهم عن الحزم واللفع، كانوا يشعرون في صمتهم المتكاسل أن عربي لمحهم وأحصاهم وفرزهم قبل أن يلقي بطاعته كاملة في خدمة ابن الملتزم وضيفته اللابسة ملابس الرجال رغم افتضاح فتنتها وصاحبها الجميل الذي تبسم لمنظر شاربه بعظمة أميرية:

ـ اسمك أبو شنب؟!

وضحك إدريس وهو في شغل بالفارسة، ورن جرس الطرطور وتشقلب عقلة الصباع فجأة في وجه رئيس الأنفار، ودار في الهواء دورة كاملة ثم استقر أمامه غير متجاوز في الطول شبرين كاملي المعاني، سبحانك يا خلاق يا عظيم، وسحنته إنسانية لكن عيونه مشدودة إلى الصدغين، كأن العين شرطة ضيقة لوزية لا تكاد تبين منها حدقة العين، ووجف الشارب الكبير، ودق قلب رئيس الأنفار بسخونة موجعة عندما سمع للكائن صوتًا:

ـ بو شنب! بو شنب!

وتشقلب الكائن مرة أخرى طوحت به عند بركات الذي كان قلبه الخفاق يوشك أن يفلت من صدره:

ـ بو كلب! بو كلب!

ونبح كلب بركات من عمق القناة الجافة التي وثب بها إليه رعبه من جرس الطرطور وأبهة الفرسان، وفي مسطحات البرسيم الهادئة تطايرت ثرثرة الجلاليب السوداء واضطربت الصفوف وسكتت المناجل عن عملها في الأعواد الطرية، وقال منجل منها لمنجل:

ـ ما هذا المخلوق؟ ما هذا المخلوق؟

تاه في السؤال فكر الفلاح الثاني قبل أن يتكلم:

ـ ناس يقولون إنه من الجن المسخوطين وناس يقولون إنه صنف يجلبونه من بلاد نيام نيام، الواحد بثمن فدان يا خميس!

تنهد الفلاح الأول وهو يلقي بمنجله إلى الأرض في فتور:

ـ يتربي في عزهم يا عم!

وانحني في الحال ليلتقط المنجل وأداره في يده القوية أمام عينيه، ثم تمطي كاسراً وسطه وفك حبل التيل الذي كانت قبضته على خصره قد تراخت وحبكه على وسطه وأعاد شده:

ـ هذا الجدع لا بد أن يكون حبيب الدوادار الكبير الذي سمعنا عنه من عمك خليل.. العين تحتار؛ أهو أحلي من ست الحسن أم البنت أحلي منه!

ـ يا فتاح يا عليم.. وماذا يريدون منا يا غالب؟.. اللهم اجعله خيراً.

وحمل الهواء إليهما صيحة ناعمة من ست الحسن:

ـ إن مسكتني يا قمقم لك بوسة!

ومرقت فجأة من تحت التوتة وقطعت الجسر في وثبتين إلى الأرض الواطئة، واندفعت في خفة الغلمان تجري في البرسيم وهي تتلفت ضاحكة نحو عقلة الصباع الذي كان ينهض من عثراته الكثيرة، ويقوم ويقع في محاولة عنيدة للّحاق بسيدته المرحة الخفيفة، وانفتحت عباءتها الحمراء المطرزة بخيوط ذهبية عن سروال يَتراءي في حركة الجري السريعة كما لو كان زوج حمام أبيض تخفق أجنحته تحت خيمة قرمزية ضيقة، ولم يتحرك صاحبها من الظل الذي يقف فيه مع إدريس ورئيس الأنفار، لكن الكلب المنقط فاضت به الحماسة وجاوب صيحات عقلة الصباع بنباح شديد، وهز ذيله المقروط رافضاً الاستماع إلى توسلات بركات الخائفة قبل أن يثب إلى خضرة الأرض البراح ويساهم بحيوية جسمه الصغير وحنجرته النشيطة في لعبة المطاردة المبهجة.

واقتربت كركرة الضحك الأنثوي من صفوف الفلاحين المبهورة ورأوها في جوارهم رشيقة الإفلات من يد عقلة الصباع إن همت أن تطولها ومن اضطراب الكلب الشقي بين قدميها، ومست العباءة الحمراء بطرفها المذهب في وثبة من وثباتها وجه فلاحة مقعية في السواد وفاتحة فمها في ذهول كامل، فقالت لها جارتها في الصف لما شمت في الهواء الذي خفقت فيه العباءة عطراً عجباً:

ـ لا هي من الإنس ولا هي من الجن! قطيعة!

وأعلن عقلة الصباع في آخر المطاردة أنه خسر القبلة، بشقلبة عنيفة ألقته على ظهره فوق البرسيم الرطب عند أقرب صف من القمصان الزرقاء، وأخذ يشوح برجليه الصغيرتين وهو يتباكي بصوته الرفيع نائحاً بمواء قط شبق.

وضحكت ست الحسن ورفست الكلب اللحوح بطرف مركوبها الأحمر فأطارته في الهواء كالخرقة، ثم وقفت أمام المخلوق واضعة يديها في خاصرتيها وهي تتمايل مع اللهاث الذي يمزق ضحكها:

ـ مسكين يا قمقم!.. مسكين!

وهمت أن تقفز في اتجاه التوتة فشدها شيء من طرف عباءتها وسمعت في القماش صوت تمزق هين، واستدارت قبل أن يمحو ضيقها بالحادث الصغير كل الإشراقة الضاحكة في وجهها الذي فار فيه الدم وزهزه ونوّر، فرأت الفلاح القريب منها عند ركوعه في اضطراب وهو يمسح يديه في جنبي هدمته قبل أن يمدهما لتخليص طرف العباءة من سن منجله.

أول فلاح حقيقي من لحم ودم تراه بعينيها، اليد الكبيرة المتينة، وذراع تبدو من مزق القميص الباهت الزرقة سمرتها العضلية، وباطن القدم المعروض عند الركوع مديد ومترب وشقوقه عميقة وضاربة إلى الكعب، وصدر مشعر وعنق راسخ، ونظرة أسف وقلق في وجه لم يتعود الحلاقة، ورجولة شبه عارية.. ودققت النظر لتستوثق من لون عينيه العسلي الذي أدهشها صفاؤه الكهرماني، ثم ابتسمت له وهي تخاطبه بلسانها الذي تعرف أنه لن يفهم منه إلا بطانة للابتسامة الطيبة:

ـ بسيطة! بسيطة! هون عليك..!

نهض الفلاح دون أن يزايله اضطرابه وتفوه هوالآخر بكلمات مبهمة يائسة من بلوغ نفس سامعتها، لكنها عندما ضحك لها وجهه الأسمر كبرت ابتسامتها وأشارت إلى نفسها بأصبعها الدقيق، وكلمته مرة ثانية:

ـ نغم..ن.. غ.. م.. نغم.

ـ فهمت يا ست! اسم حضرتك نغم!

وزادت ربكته برهة قبل أن يضيف:

ـ أنعم وأكرم!

فأشارت بالأصبع الدقيق نحو صدره المشعر ونطق في عينيها السؤال: وما اسمك أنت؟

لحظها الصفاء الكهرماني في حدقتي الفلاح ولم تنكسر نظرته في هذه المرة أمام عزة جمالها:

ـ خدامك غالب!

لكن الابتسام غاض من وجهه في الحال وقد ثبتت نظرته فجأة عند نقطة وراء كتفها، فالتفتت وهي تطوي طرف عباءتها الممزق تحت طرفها الآخر شاعرة أن صاحبها والثقيل ابن الملتزم يسرعان نحوهما عبر البرسيم، وعندما تحقق ظنها صنعت يدها للفلاح إشارة بليغة تدعوه إلى الاطمئنان واستدارت تستقبل أصحاب الهمة المزعجة.. وأحست ما في هرولتهما

غير المتكافئة من مظهر هزلي، وأحمده يكاد في كل خطوة يقع، كأنه بنت طرية تحاول أن تسترجل، لكن ما أجمل ازدهار الدم أرجوانيًا تحت سمرة خدوده الخفيفة.. هو ذا يقع غير بعيد.. كما لعله واقع في أحلامه بالمجد والغني والسلطة، وها هو الآخر يقيمه ويسنده ويمسح عنه التراب.. ولعل هذا الآخر المعجب بطوله وعرضه والذي تفوح منه رائحة منفرة لا يفكر في إهانة الفلاح أو ضربه.. لو أراد أن يفعل فهي تقف بينهما وتمنعه.. ومنحت الفلاح لفتة أخيرة قبل أن تتصدي للرجلين:

ـ قطع صغير في طرف عباءتي.. غلطتي أنا.. هيا بنا.. الشمس بدأت تضايقني.. هات ذراعك يا أحمده.

لكن إدريس تلكأ أمام الفلاح بكل شره الناطق في سحنته المقلوبة:

ـ والله عال يا غالب يا ابن نفيسة.. تأوي شيوخ المنسر في دارك ولا تبالي.. ونقول لك ادفع أجر الرعي بالرأس فلا تسمع الكلام.. وها أنت تحش بمنجلك ثوب ستنا الأميرة وكأنه هدمة أمك أو من هلاهيل فاطمة!

اهتز المنجل في يد الفلاح وانتفض غضب مكبوت في نبرة صوته الخافتة:

ـ ذكر أسماء الستات عيب عندنا يا ابن شيخ البلد، ولا مؤاخذة!

وبترت البنت هجمة إدريس معترضة اندفاعه:

ـ خلاص.. أنا قلت خلاص.. تفضل بكشف الطريق أمامنا.. وتكون مسئولا أمامي إذا حصل للفلاح أي زعل بعد سفرنا... مفهوم؟

وتعلقت بذراع فتاها وعينها تبحث في عودتها إلى ظل الجسر عن عقلة الصباع، ورأته في مطاردته الحامية للكلب الضئيل الذي خرس حسه من بعد الرفسة، فنادت وهي تلوح بيدها في اتجاه الفلاح الجامد تحت السماء:

ـ تعال يا قمقم فلن تسبق حتى كلب الفلاحين!

وانحدر نحوهم رئيس الأنفار وألقي في أذن سيده إدريس ابن سيده حمزة همسة لم يسمعها غيرهما:

ـ اترك الولد غالب لي وأنا أربيه وأعلمه الأدب!

وفي الظل مسحت نظرة نغم الأرض الخضراء والصفوف العائدة إلى الانتظام والانحناء، ومالت على كتف صاحبها:

ـ زهقت وأوحشتني أم الدنيا!

ـ نعود في الحال يا نور قلبي، لكن ماذا قال لك الفلاح؟

ـ أراد أن يخطبني فقلت له إني مخطوبة لك ومسحت دموعه بمنديلي ثم أعطيته المنديل هدية!

وضحكت هازئة بسؤاله، فهز كتفيه في كبرياء ناعمة:

ـ كفي هزلا.. كان من الواجب أن تضربيه على وجهه!

وقبل أن ترد كانت صرخات متواصلة حادة من قمقم قد شقت الظلال الهادئة وهزت شوارب عربي وانتفض لها جسم بركات الصغير المسحور، وعقلة الصباع يقفز كالملسوع عند جذور التوتة:

ـ فأر يرقص!.. فأر يرقص!

ولحق أحمده وحبيبته بإدريس وعربي وبركات الذين رأوا في تجويف جذر ضخم من جذور التوتة المعمرة فأراً كبيراً مبتل الفروة يحاول أن يجري فتضطرب أرجله القصيرة ويتداعي للسقوط على جنبه، وظهرت رأس قمقم من بين ساقي مولاته وعنقه يلعب مقلداً حركات الفأر المترنحة:

ـ معذور يا فأر ميت جهينة! معذور! يحلو الرقص أمام «نغم»!.. عندك ذوق!

لكن شعوراً بالروع أسكته وسري في أبدانهم جميعاً عندما سمعوا من الفأر صرخة قصيرة، ورأوه يدور حول نفسه قبل أن يسقط على ظهره وتنفضه تشنجات فظيعة.

وصرخت نغم وهي تستر عينيها بيدها عندما انبثق الدم من منخري الفأر وهمدت حركته، وأشاحت بوجهها ضاغطة ذراع رفيقها المرتجف:

ـ أريد أن أعود في الحال إلى القاهرة!

وجاشت معدتها وأحست وقواها تخور والدنيا تغيم في عينيها أن أكثر من يد تتلقاها وتسندها، وكأن صورة الوجود التي تغمض عليها جفونها مضرجة كلها بلون الدم القليل الذي رأته ينزف.

(٨)

سمع الولد بعد صبره القلق الطويل أنين باب الزاوية وهو ينفرج استجابة لطرقاته الملهوفة، ووجل قلبه عندما بزغت له دماغ محلوقة بالموسي تلمع فوق وجه ضخم يتوسطه أنف عظيم مرتاح على شفتين غليظتين، واضطرب صوته:

ـ صباح اللبن الحليب يا عم الشيخ!

زام الرجل المخيف وهو يهرش في شعر صدره الشوكي النافر من فتحة المرقعة:

ـ صباح العيال ووجع القلب!.. نعم؟

ـ أنا يوسف يا عم!

ـ يوسف رأي برهان ربه!.. نعم؟

ـ جئت من آخر الدنيا لزيارة زوج خالتي عندكم!

رقصت هلاهيل المرقعة وتماوج في داخلها لحم غزير محب للرقص ولعبت للولد حواجب البهلول:

ـ عندنا يا روح خالتك؟

تلفت الولد حوله مستكشفاً الحركة القليلة في الزقاق واصطنع نبرة هامسة:

ـ كلام في السر يا عم الشيخ... حتى لا يسمعنا أحد... المعلم أيوب!

نزلت كف البهلول الطرية على كتف الصغير فهزته هزة أضحكت المجذوب البدين وأرقصت حواجبه البليغة:

ـ أيوب ضحك عليّ.. خاطري من جهته مكسور.. أكل اللحم وحده!

ظهرت الحيرة على يوسف الذي تكلف مع ذلك نفاق الصبيان أمام الكبار:

ـ اللحم يصلك إن شاء الله.. أدخلني إليه وأنا أكلمه في الموضوع.. له عندي كلام آخر مهم يا سيدنا والله!

ـ وتأتيني باللحم بنفسك؟ هبرة كبيرة محمرة؟.. طيب.. ادخل.. ادخل يا يوسف على زليخة.. هل تعرف طريق زليخة؟

وتابعت نظرة يوسف المبهورة إشارة اليد الكبيرة التي استراحت كتفه من ثقلها:

ـ أنزل هناك فأجد زوج خالتي؟

مسح البهلول لعابه بظهر يده السمينة وهو يجلس على الحجر الكبير وراء الباب الذي عاوده الأنين وهو ينقفل مرة أخرى على عالمه، لكن الخصر الغليظ كان يلعب مع رقص الحواجب لعبًا منسجمًا:

ـ تجده وتقول له: أين اللحم يا مفجوع!

ـ حاضر يا عم الشيخ.. لن أنسي والله يا سيدنا.

وحجارة حيطان الحوش لها رهبة، وسكون الصباح عميق بلا مجاذيب، وكاد يوسف يندفع خاضعًا لرغبته في الجري لكنه استحيا من نظرة بهلول الباب التي كان يحسها في ظهره.. وعندما بلغ الفوهة الهابطة في الأرض عند ركن الحوش الأيمن رأي فيها درجات قليلة من الطين الجاف تنتهي في عتمة، فتلاحقت نبضات قلبه وهو يهبط متمهلا، ثم انتفض قلبه في صدره انتفاضة موجعة عندما أوقفه على الدرجة الأخيرة صوت خشن نبع فجأة من عمق العتمة الغامض:

ـ ستنا الشيخة؟

بدا له الصوت مألوفًا لكنه لم يذكر صاحبه، وتمزق صوته الصبياني وهو يبادر بالرد طالبًا من الله السلامة:

ـ زوج خالتي المعلم أيوب هنا يا عمّ؟!

دوت في العتمة التحتية صيحة فرح وبزغ له رجل متهلل مفتوح الذراعين.

ـ يوسف!.. تعال يا رائحة الأحباب.. حمد الله على سلامتك يا بني.. تعالي.. ليس معي هنا غير عمك زين الدين.

صوت زوج خالته في هذه المرة، وإن يكن الرجل يبدو إنسانًا آخر حافيًا في مرقعة قديمة ولحيته طويلة.. ويا لغرابة رأسه الزلبطة.. ومن وراء الزلبطة لمح زلبطة عمه زين الدين وابتسامته.. لكن دهشته طواها عناق المرقعتين الخشنتين وغرقت في طوفان القبلات الأبوية والأسئلة.

البطل الجسور، هو ذا في قاع السرداب بين اللحيتين المصغيتين أجدع من كل الجدعان.. أرض شالته وأرض حطته.. قبل أن يعبر النيل وبعد أن عبره من الأرض الجيزاوية إلى معادي الخبيري ومسارب المقطم، دون أن يتمكن المراكبي اللحوح اللئيم من انتزاع سره الدفين.

ـ طبعًا يا ابني.. جدع يا ولد.. نصف مراكبية النيل من بصاصي السلطنة، والباقون موزعون على استخبارات الأمراء.. والسكوت يا ابني من ذهب.

ويسأل الجدع عن الشيخة زليخة كلما ألح عليه المكان بصورة صديقته القديمة، ثم يجرفه الكلام عن خالته وأعمامه مجاذيب ميت جهينة وزفاف فاطمة، وقبل كل شيء سفره الذي لقي فيه الأهوال من الذئاب ولصوص الليل والعفاريت.. وتتبادل المرقعتان نظرة داعية إلى التساهل، ويتجلد الصديقان لزكيبة الأكاذيب الظريفة التي يرتق الولد خرقها من هنا فتنفتح فيها من هناك عشرة خروق جديدة.. وعندما ذكر لهما أنه لما بلغ مصر مر على الدكان المقفول، اعتصر صوته ألم كبير:

ـ غلب عليّ البكاء أمامه والله يا معلمي.. وأين يجد أولاد الحرام النعوش الكافية لكل الأموات؟

ـ يعني البلد ليس فيها بعد معلمك نجار نعوش يا أخي!

ولم يشارك زين الدين في الضحك، وفي صوته ارتعشت نبرة حزينة:

ـ والمقهى أيضًا مقفول يا ولدي.. معلمك وصاحب معلمك الآن فأران في سرداب تحت الأرض.. إلى أن يأذن بالفرج صاحب الفرج.

لم يزل عند الصبي ما يدهش به اللحيتين:

ـ الفئران عندنا هناك.. فئران ميت جهينة الآن ترقص يا عم أيوب.. والله العظيم ترقص!

وفي هذه المرة غلب الضحك على كآبة زين الدين، وأمسك زوج الخالة أذن الولد ودعكها بقوة:

ـ بقي شوف يا ابن أخت جماعتنا.. جبت الذئب من ذيله وقلنا نفوتها.. زاغ شيوخ المناسر من هيبتك، وأفسحنا لحضرتك الطريق مثل ما أفسحه رجال الليل.. طلع لك العفريت بعد العفريت ولم نفتح فمنا بكلمة.. إنما رقصة الفئران هذه لن تمر.. لن نبلعها!.. قل لي واخز الشيطان، هل تأكل لقمة؟

تفجر احتجاج يوسف وملأ السرداب، ومن دفاعه عن صدقه تدفق تفصيل مضطرب لحياة ميت جهينة من ساعة ما ورد عليها الهاربون الثلاثة، عمل النهار وبراغيث الليل، وهدير الطاحون ووجع جنب ست العيلة، وصوامع الملتزم التي تطفح الغلال من فوهاتها العالية، وحصان ابنه الرذل، والمملوك الجميل، وصاحبته المرحة، والمنجل في العباءة. وشقلبة عقلة الصباع العجيب، وفأر شجرة التوت الذي نزف دمًا قبل أن يختتم رقصته، وكل الفئران التي كثر العثور على جثثها دون أن تكون هناك فرصة لرؤية رقصاتها الأخيرة، فإن يكن عند عميه أيوب وزين الدين شك في اللصوص الذين شتتتهم زعقاته، والعفاريت التي عزم عليها فتبخرت، فهو والله وكتاب الله صادق في حكاية فأر التوتة الذي رآه بعينيه وهو يرقص.. ثم ضحك يوسف فجأة وهو ينهي إلى زوج خالته رسالة كان قد نسيها:

ـ وخالتي ست الكل تقول لك إنك أوحشتها وتوصيك أن تحاسب على روحك!

هفت نفس الرجل إلى امرأته وداعب رأس الولد وهو يتأمل هزاله:

ـ أنت جائع يا يوسف وعندنا من ليلة أمس عصيدة كلكعتها لنا ستك الشيخة.

ـ وتأكل اللحم وحدك يا معلمي؟!

وملأ ضحكه السرداب عندما حاصرته نظرات الرجلين المندهشة:

ـ كلام المجذوب الذي فتح لي.. يقول لك إنك كسرت خاطره مرة.. وإنه ينتظر الآن هبرة لحم كبيرة أحملها بنفسي حسب اتفاقنا.. وسامحته يا معلمي لما قال إنك ولا مؤاخذة مفجوع!

رددت حجارة السرداب أصداء الضحك الجماعي الذي لم يلبث أن قطعه شعور يوسف بالذنب:

ـ لكن إذا لم يكن عندكم غير العصيدة فما قولي للرجل الذي أعطيته كلمتي؟ وقعة سوداء!

ـ اتركه يأكل لحم أحلامه.. مثلنا كلنا وحياتك.. مد يدك هات قصعة العصيدة من الطاقة وكل.. وإن بقي منك شيء فاحمله إليه وقل له: المفجوع يسلم عليك! هات وكل!

وقبل أن يتحرك يوسف تردد في السلم صوت يعلن مع دقات المقرعة البطيئة على الدرجات القليلة عن ظهور الشيخة:

ـ هاتوا لزليخة يوسفها.. هاتو لزليخة يوسفها.

انجذب الولد جذبة شديدة وثبت به إلى حضنها الذي هل عليه، وسكن كل ما في السرداب حتى شبع يوسف من زليخة وشبعت زليخة من يوسف، ثم كشفت الشيخة الكم الواسع عن ذراع الولد النحيلة وفحصته بعناية وهي تهز صلعتها وتغالب ضحكًا هانئًا تفيض به أعماق وجودها:

ـ عندي لك عن كاسر هذه الذراع في الكتاب خبر يا يوسفي، عندي لك خبر!

ـ الشيخ نسناس؟.. ماله؟.. فرغ أجله؟

وعند سؤال الصبي الملهوف ظهر على زين الدين أن الثرثرة ستطيب له:

ـ أكل الفص يا ابني من هنا وشلناه من هنا.

لكنه أسكتته في الحال نظرة من زليخة التي مسحت يدها على رأس يوسفها في حنان:

ـ ساقي البن هذا جاهل، وصانع النعوش هذا أجهل منه ولو أنه زوج خالتك.. الشيخ عباس كما تقول أنت فرغ أجله وانكتب له أجل جديد!.. تعال يا يوسفي.. تعال على الحصيرة أحكي لك الحكاية كلها من أولها إلى آخرها وأشرح لك صدرك.. هذان الجاهلان لا يعلمان أنه نطق بالكلام اليوم وصلي الفجر في خلوته بإمامتي!

وأرادت شفاه المريدين المستبشرين أن تتخاطف يمناها فانتزعتها منهما ودفستها في حجر الولد وهي تزعق زعقة عظيمة رجت الحجارة في الحيطان، وخشعت لها القلوب الثلاثة التي لم تفهم كلماتها لكنها شعشعت بها:

ـ سلاسل الأول في سجنه أهون من ذل الثاني في منفاه!

وفي سكون عظيم عادت يدها تمسح على الرأس الصغير، إلى أن همس يوسف:

ـ العصيدة هي العصيدة!

(٩)

جبذها من شعرها سجان تلقاها من أحد حجاب السلطان ومعها أمر شفوي مهموس، ودفع بيده الأخرى في خصرها ليسوقها أمامه في عتمة الدهليز الجوفي، ثم لطمها على وجهها عندما حاولت أن تتملص من فحش لمساته لجسمها الذي يرجفه الاشمئزاز والهلع، ولم تكن تعرف أين يذهب بها الحيوان الفظ الذي لم يكن لسانه أعف من يده، وتعثرت مشيتها الذليلة كما لو كانت حركتها المقيدة تضطرب في كابوس بشع تنهشها فيه يد متملكة لا تدع من جسمها موضعاً إلا جسته وامتهنته.

والفكرة الوحيدة التي تبقت لها في ذهول اللحظة هي أن السلطان يمعن في سخريته القاسية منها، ولن يلبث أن يستردها من أقبية القلعة بعد أن تقضي ساعات في زنزانة زوجها التي يعيش فيها منذ أنزله الأمراء عن العرش وأخذوه.. من أربعين يوماً وليلة.. لا بد أن تمربغا بعد التحقيق الطويل معها عرف أنها صادقة في كل ما قالته له، ومؤمنة به حاكماً بلا منازع، وأنها ليست بصاصة عليه كما توهم.. كل ما في الأمر أنه يلقنها درساً.. يريدها جارية مذعنة ونافعة لا شريكة في التدبير والسلطة.. يريدها أن تعلم أن فتنتها التي كشفتها العباءة الساقطة شيء وتفرده هو بالكلمة الأخيرة شيء آخر، ويريد أن يضحك في آخر النهار عندما يعيدها إليه هذا البهيم الذي يعتصرها دون أن تخف عن شعرها قبضته، وأن يذلها بأسئلته اللئيمة عن يومها مع العاجز ساكن الزنزانة.. لا! هذه ليست نهايتها.. هذه دعابة رومية سمجة، ولن يكون مصير شبابها عفن السجن وموته البطيء، إن هي إلا محنة عابرة أسوأ ما فيها هذا الهوان على طول الدهليز المعتم وهذه الأنفاس المغثية اللافحة واليد السارحة المستمتعة وهذا الجسم الذي يقتحمها دون أن يتوقف عن المشي.

وعند باب خفيض في جوف الدهليز، تطبق من وراء قضبانه ظلمة حالكة، تخلت اليد الباطشة عن شعرها وخفت قبضة الكابوس وارتخي تقحمه، فكتمت مواجعها وحاولت أن تنظم شعرها وملابسها وهي تنظر في البهيم اللاهث جاهدة أن تستشف شيئاً من ملامحه المبهمة، لعل نفسه الآن ألين لها:

ـ أنت چركسي؟

ورنت في يده مفاتيح في حلقة كبيرة وهو ينحني ليعالج الباب العصي، فلما لم تجد رداً غير هذا الرنين تمسح جنبها بظهره القوي ولان له صوتها في نعومة:

ـ أنا أيضاً چركسية.. والآن وأنت أقل عطشاً، هل يمكنك أن تقول لي كلمة؟

جاوبها الباب وهو يدور على محوره بصرير حاد، واعتدل السجان وعلق حلقة المفاتيح في حزامه قبل أن تطرقع في وجهها ضحكته الجلفة:

ـ ألم أقلها لك على طول الدهليز يا نفاية العسكر!

ـ من في داخل هذا الظلام؟ بلباي؟ أهو بلباي؟ قلها كلمة واحدة؟

ـ ادخلي واعرفي بنفسك!.. عريس على قد المقام!

وأفحش في جذبه لها فنجت من جسمه المتصلب إلى الظلام الداخلي، واحتد صرير الباب قبل أن تتردد أصداء مفزعة متجاوبة لصدمة غلقه، وظلت مندفعة حتى لطمها حائط بارد تفوح منه رائحة زخمة.

سقطت عند الحائط باكية ضائعة، ولم تسمع بذاءات السجان من خارج القضبان ولا وقع خطواته المبتعدة، ثم أفاقت من وهدة اليأس الدامسة فوجدت نفسها في عتمة ساكنة، خيل إليها أنها خفت بعض الشيء ووسعها أن تتبين حائطًا آخر إلى يمينها، لكن العمق الأيسر للقبو المديد ظل مكنونًا في ظلام مطبق.. وكانت تسمع أن المساجين في أقبية أبراج القلعة ذات الارتفاع القليل يمشون على أربع، لكنها وهي تنهض تنبهت إلى ارتفاع السقف وظلت يدها التي رفعتها عاجزة عن لمسه.. وقصدت تلك الظلمة المريبة وهي تغالب الرعدة المتفشية في جسمها، لكنها ما إن مشت خطوات حتى أوقفها في الحال ريح عفن.

هل تكون دعابة ابن الرومية بهذه الشناعة؟ هل دفع بها إلى هذا الجوف الرهيب وهو عارف أن ساكنه ميت؟

وارتسمت في قشعريرة خيالها صورة بلباي جثة متعفنة منفجرة البطن، واكتسح نفسها على الروع حقد هائل سقط معها إلى الأرض عندما فقدت وعيها لما سمعت فجأة ذلك الشخير العالي الذي بدد السكون في قلب الظلمة العفنة.

وأفاقت للرعب من جديد فلم تحملها ساقاها في هذه المرة وظلت على رطوبة الأرض الهشة مقعية كحيوان مخبول، مضطربة الحركة والإرادة:

ـ هذا أنت يا بلباي؟!

وكررت السؤال دون أن يتوقف الشخير فجعلت تضرب التراب أمامها بكفيها في عنف وقد انفلت عيار شيء ما في عقلها:

ـ بلباي!.. أنا السلطانة، فقم يا سلطان من شخيرك وانظر ما فعل الطاغية بحريمك!.. أنا جلبهار!.. جلبهار!

وتجاوبت الحيطان بصدي صرخاتها حتى لفظت لها الظلمة في مكان الشخير أنين رجل يتمطي متثائبًا في عودته إلى الوعي، لكن ما إن تبين ساكن الظلمة ذلك الصوت البشري معه في محبسه حتى تفجر فزعه هو الآخر في عويل كالعواء، وتشابكت في القبو النتن الأصداء المخبولة المولولة.

وأخذ يتوضح لها في بزوغه من عمق الظلمة عارياً لحيماً تتستر على وسطه وحده خرقة مهلهلة، وكاد عندما هل ببطنه ولحمه الغليظ يقنع عقلها الملتاث أنه زوجها، لكن الكائن الأكرش ظلت أجفانه تضطرب حتى استقوي على الرؤية، ثم بغتها بانبطاحه أمامها في سجود حسبت معه أن وجهه كله قد اندفس في التراب العطن:

ـ مولاتي السلطانة!.. مولاتي السلطانة!

ضحكت بجنون في وجه الحقيقة الشوهاء التي تبتلع بفظاظتها الشرهة صفاء عقلها.. ورفضت السجدة والساجد وهي تضحك للحيطان المرطوبة وللعجيزة الضخمة التي أبرزها السجود!

واقع هذا اليوم من أيامها مرفوض.. لا السلطان لطم وجهها وهو يستجوبها ولا جبدت شعرها اليد الفظة ولا انتهك جسمها الجلف.. ولا سجد لها هذا الذي لا تزال قصور القلعة تتسلي بذكر الريح العفن الذي كان وجوده يفرضه حيثما ظهر، وهذا العبد من دون العبيد كلهم، هذا الهلع الكبير في عينيه اللتين رفعهما من التراب عندما ظلت الحيطان تتلقف ضحكها الجنوني.

ـ ليت عبدك لم يعش ليرى هذا اليوم!

وكان يرتجف من جميع أقطاره أمام عينيها البارقتين وشعرها الثائر واحتدامها المخيف، فلما لم يجد عندها غير ضحك الجنون رفع نحوها يدين سمينتين مسكينتين وناداها في استعطاف وتضرع:

ـ ماذا حصل فوق وجه الأرض يا مولاتي؟! ماذا حصل؟!.. لمي نفسك يا مولاتي وشدي حيلك. كل شيء يهون.. اسأليني أنا.. كل شيء يهون.

فترت حساسيتها للرائحة المغثية التي ينشرها عريه النتن، ولم تنقطع ضحكاتها ولا خف الرعب الذي تملأ به جلجلتها قلب الرجل.. وسألته فجأة في خبل مرح:

ـ هل أنت الساكن الوحيد في هذا العالم السفلي؟

حَمَدَ الله على بادرة الهدوء الطيبة وسارع إلى الرد:

ـ أبدا يا مولاتي.. هنا أمم.. كل عشرة أو عشرين في زنزانة.. وحتى الأمس القريب كان معي هنا تسعة، لا تعرفين الحي من الميت حتى تفوح الرائحة.

عادت تضحك ومدت ساقيها أمامها وناجت الحائط في خبل حزين وهي تسند عليه رأسها:

ـ هاك شعري فاملأه قملا.. لن أمنعك!

صارت كلمات الرجل البدين يلقف بعضها البعض الآخر في سرعة خارقة، في عبوديته لشهوة الكلام المختزنة.. هنا مئات من المساجين الذين يعيشون في الظلام منذ عشرات السنين وهم يدبون على أربع ويتعفنون مع العناكب والخنافس في الجحور والشقوق.. لا

تفزعي يا مولاتي، إن هذا إلا خفاش صغير من ناشئة خفافيشنا!.. أما وحدته هو فإنه لا يعرف تفسيراً لها.. أين ذهب التسعة الآخرون وهل خرجوا موتي أم قتلتهم لذة أمير أو أميرة.. له هنا عمر الحاكم الجديد، ولم ير في هذه الأربعين يوماً بلياليها غير وجه السجان عندما يظهر بكيزان الماء وقصاع الطعام الفخارية.. والأكل هنا هو قمة العذاب الحقيقية، والخنافس نفسها ترفضه، والفئران تعرض عن القصعة ساعية إلى لحمه الطري الذي نقشته أسنانها في كل موضع بنهشاتها.. آه!.. أنا الذي كنت الجاشنكير الأول في السلطنة يا مولاتي!.. مضي زمن كنت أشكو فيه من فاخر المأكول وأتوسل بالكبار عند السلطان ليخف يده عني في الأكل!.. الآن يبكي على هذا الزمن كلما تناول من يد السجان قصعة.. لا جعل الله للسلطانة في قصاع الجب نصيباً إلا مسافة ما ينالها العفو العاجل بإذن الله، ويأتي الحشم والعبيد لرفعها معززة مكرمة إلى وجه الأرض.

وشحب الزمن وهمد، والمرأة جامدة لصق الحائط، وصوت جاشنكير الزمان الخالي يغيب عنها ثم يعيدها من حين إلى حين إلى شيء من الوعي.. هو الآن يتكلم عن فئران السجن التي تأكل النيام إن لم يكن نومهم خفيفاً، والتي تحب في الإنسان لحم أصابع القدمين وما تحت الإبطين والمناطق البعيدة عن الدفاع في الظهر..آه!.. اسمعي يا مولاتي السلطانة!.. اسمعي!.. ها هم في الدهليز قادمون، العبيد والجواري، وهذا مشعل الموكب تتخايل خفقات ضوئه على حائط الدهليز معلنة الأمر بالعفو السلطاني والعودة إلى النور.. ها هو موكبك يا مولاتي فقولي لهم إنك لن تخرجي من هنا إلا ويدك على يد جاشنكيرك المسكين الذي لا ذنب له والله.. كنت ولا أزال مستعداً لتذوق مأكول أي سلطان وروحي في يديك.. ها هم بالباب.. اسمعي يا صاحبة العظمة... انظري! رجلي على رجلك يا مولاتي!

حقاً هناك حركة ونور يشيع فتخفق فيه أهدابها، حقاً والرجل لا يحلم، حقاً صدرها يكاد ينشق عن قلبها وهي تثب في فرحة مجنونة، ووقع الخطي ورنين المفاتيح وصرير الباب حقائق وبشائر، أما حامل المشعل فقد توقف بالباب والنور المرفوع في يده المتصلبة مضطرب خفاق، وأما الشبحان الآخران فدخلا عملاقين يضرب نور المشعل في ظهريهما ووجهاهما مظلمان، وتكلم أحدهما فسقطت المرأة على ركبتين يائستين لما عرفت صوت إيواظ كبير الجلادين:

ـ مولانا السلطان يريد شعرها كله فاحرص وأنت تقصه على كل شعرة منه!!

كان يحلم إذن ذلك الذي يتماوت الآن نافثاً سموم ريحه العفن كما لو كانت سلاحه الأخير، وصرخت المرأة بجنون عند قدمي جبار السجن، و لمع المقص في يد الحلاق لمعان السيف في يد الجلاد.

(١٠)

هلل الحرس لمماليك خير بك وفتحوا لهم معابر البوابات قبل غروب الشمس، ودخل خير بك القلعة وأنزل تمربغا من حريمه وأوقفه أمامه في الحوش السلطاني وطلب منه خاتم السلطنة، وكان رجاله قد نزعوا سيف الرومي، لكنه لم يفقد وقاره الهادئ عند هذه البغتة اللئيمة:

ـ هل كدر أحد خاطرك بشيء؟ ما هذه العملة يا خير بك وما هذا الغدر؟

لكن الدوادار أهمل السؤال والتفت إلى رجاله المتحلقين من حول الكرسي:

ـ ابن الرومية يسأل عما كدر خاطري!.. عنده ميل للنكتة!

قهقه الفتيان الشامتون وأيديهم على مقابض السيوف، وقال أحمده الواقف وراء كتف سيده المنتصر:

ـ نكتة الروم توجع القلب وتغم النفس!

وعندما هدأت الشماتة مال أحمده في ميوعة على جاره في الصف:

ـ تحار العين أي الرجلين أجمل!!

لكن المملوك الآخر كان اهتمامه كله منجذباً إلى سكينة هذه النفس الرومية وهي تحت السيوف والموت حاضر، ما أعجبه من رجل، من أول لحظة خانه حرسه ودلّوهم على مكانه في القاعة المظفرية، هو وحيد أمامهم، انتهي قبل أن يتم على العرش شهرين مثل بلباي أخيب من حكم، لم يتسلطن عشرين أو ثلاثين سنة كما سلطنته أحلامه، لم ينم غير ليلتين على الوسادة التي عرفت القاهرة كلها أن جارية رومية متشفية صنعتها له من شعر جلبهار، هذه هي النهاية، عاجلة صاعقة، قلعة الجبل تلفظه كما لفظه الخسيسان نادر وبظلم، لكن ما أعجبه! ما أعجب وقاره وهو يغضي عن الوقاحة عائداً إلى سؤاله الهادئ الأول:

ـ ما هذا الغدر يا خير بك وأين العهد الذي بيننا؟

نفخ خير بك بزئير الغضب وهاجت ناريته:

ـ هات خاتم السلطنة يا ابن الرومية.. وأنا أؤمنك على رقبتك.. كلمة شرف!

دفع تمربغا بيده في عب عباءته فأخرج شريطاً أصفر وخلعه من رقبته وقدمه إلى الدوادار مبرزاً الكيس الحريري الصغير الذي في طرفه، وهو يبتسم:

ـ ما دمت يا دوادار أعطيتني كلمة شرف!!

تجاهل خير بك الغمزة وأخرج الخاتم السلطاني من الكيس وفحصه قبل أن يطوي عليه يده، ثم طوح بالكيس الفارغ في وجه الرومي:

ـ تذيبه في عرق العافية!

مس الشريط بكيسه الضئيل صدر تمربغا قبل أن يسقط بين قدميه، فالتقطه ونفض عنه الغبار وأعاده حول رقبته ودس الكيس في عبه، وهو مبتسم:

ـ طمأنتني على رقبتي طمأن الله قلبك!

ـ تتكلم عن الغدر؟ لك عين؟ هل شاورتني قبل أن تخلعني أمس من أتابكية العساكر وتعين قايتباي؟ من منا الغادر يا كلب؟

ـ شاورت الأمراء ووالي القاهرة وعزمنا على عقد إمارة الحج لك!

ـ إمارة الحج؟!

وضحك خير بك بعظمة سلطانية دانت لها الدنيا:

ـ يا مغفل! بظلم ونادر باعاك لي!.. أنا في دفع الثمن أذكي من رومية عقلك البليدة!

سكت الرومي برهة ثم شوح بيديه مستسلمًا للمصير:

ـ الذي رزأ بلباي بي ورزأني بك قادر على أن يرزأك بقايتباي أو غيره! أعانك الله على ما بليت!

طفح الدم إلى وجه خير بك وصاح في بعض حرسه:

ـ أخرجوا الجارية جلبهار إن كانت لا تزال حية وأكرموها وخذوا هذا الرجل فضعوه مكانها مع ابن النتنة حتى ننظر في أمره!

ظهرت في صوت تمربغا لأول مرة نبرة متوسلة تنطق وحدها: «أنا في عرض السلطان».

ومات في وجهه الابتسام:

ـ حطني على الأقل مع بلباي.. أنا قابل!

لكن إشارة من اليد السلطانية الجديدة أسلمته إلى الأيدي والمهانة، بينما كان خير بك ينهض مبتسما لغلامه أحمده وللأقربين السعداء من رجاله الذين أحاطوا به في صعوده إلى الإيوان.

زهزهت الدنيا وصفت الأرض، وتعالي في ليل القلعة قرع الطبول التي ظل دويها يترامي من سماوات الجبل فوق الحواري منبهًا الغافلين، وجاوبت زغاريد الجواري رنين الكوسات،

ورقص أحمده بالصاجات الأسبانية عند مواطئ قدمي معبوده الذي حفت به خشداشيته واستوي على العرش.

ـ رأيت بعون الله أن أسمي نفسي السلطان الظاهر، وأبدأ ممارستي لشئون السلطنة بالدعاء إلى الله أن يوفقنا لما فيه خدمة الإسلام والمسلمين.

سجد أحمده فسجد الكل، وقبلوا له الأرض.

وهو يتأمل ظهورهم متفكراً: من يكون أتابك العسكر بعد القضاء الفوري على أولاد الزني كلهم؟ ووالي القاهرة؟ وناظر ديوان الإنشاء؟ وديوان الأحباس؟ وبيت المال؟

(١١)

مشاغل ملأت الليل كله بعشر ساعات سلطانية، ثم اندفع إلى قاعة العرش مع تباشير الفجر كبير من حرس القلعة الجديد واقتحمها وارتمي على ركبتيه أمام السلطان الظاهر:

ـ عفوك يا مولانا، لكن القلعة مطوقة بعسكر قايتباي!!

خرج خير بك من كشوف الوظائف والجمكيات وفهارس الإقطاعات والحريم وساخت روحه أمام مبادرة هذا الداهية الجديد الذي تجهز وحاصر في عشر ساعات.

ضبع مسعور آخر كما تقول يا أحمده لكن لا تبك يا حبيبي، لا تبك، وقد كنت منذ قليل أجمل من طارت به عن الأرض رقصة الفرح.. لكل عقدة حلال.. نقاتل رافعين الصنجق.. نشتريها بشيء من الدم ويدركنا الظهر أو العصر منتصرين.. أو نقسم البلد عند اللزوم بلدين.. صدقني يا حبيبي ولا تقطع قلبي ببكائك.. كل عقدة ولها حلال!

أحمده وسبعة أو ثمانية من الفتيان المرد، كان هذا هو مجلس المشورة الذي انتهي بعد مداولة طويلة بأن نادي السلطان الظاهر كبير حجابه:

ـ اذهب إلى إيواظ ليخرج لك تمربغا من سجنه بالإجلال والإكرام ويفليه من القمل ثم جئني به في الحال!

ها هو يظهر مرة أخرى بدمه الرومي الساقع وابتسامته التي لم يخمدها العالم السفلي، وما مرت غير عشر ساعات منذ اختفي تحت الأرض، ولا انعقد لسانه:

ـ ها نحن مرة أخرى يا خير بك، أعانك الله على ما بليت!

قالها وهو يدخل ليجد حاشية خير بك مطرقة في وجوم والعرش خالياً من خير بك الذي انبطح بين يديه وقبل له الأرض:

ـ هـذا عرشـك يا مـولاي السـلطان لا يزينه غيرك، وعفا الله عما سلف!

ـ مولاك؟!.. أما كنت منذ قليل كلبًا؟!

وضحك وأخرجت يده من عبه الكيس الخالي ولوح به للوجوه الممتقعة:

ـ عرفت الحقيقة في طريقي من الزنزانة، ولن أصعد الآن هذه الدرجات السبع، وكيسي يا دوادار بلا خاتم، لأن الخاتم سيكون معك عندما يدخل قايتباي!

ظل خير بك منبطحاً على الأرض يشترى الحياة بالهوان:

ـ هاك رقبتي، فإني كنت باغيًا عليك!

رمي تمربغا بالكيس الفارغ فوق رقبة الرجل الذليل المسكين:

ـ يا دوادار!.. لا أنت ولا أنا بقي لنا بقاء، وهذا الصبح يكنسنا معًا!

اختنق صوت خير بك فلم يفهم أحد ما قاله وهو يعتدل، وقبل أن ينهض سمع الجميع فجأة نفخًا في بوق، وارتج البهو خارج القاعة بضجة عظيمة وعجيج سلاح، ثم انفرجت ضلفتا الباب بأيدي عبدين أسودين في مئزرين قصيرين من جلد أصفر ودخلت طليعة في صفين منتظمين من أمراء المئات والعشراوات، قبل أن تملأ فراغ الباب عباءة سوداء على كتفي عملاق أشقر، ما إن رأي العرش الخالي والرجلين المنكسرين عند أسفل الدرجات حتى غلبه الابتسام، وسجد السلطانان والذين معهما من رجال خير بك فقصد قايتباي الأريكة على مهل واعتلاها وقبل له أصحابه الأرض!

وكلم الرومي بصوت تكشف عذوبته عن روح يأنس للفكاهة وتعجبه نكتة المواقف ولا تفوته الواحدة:

ـ هون عليك فليس بيني وبينك عداوة ولا نفع لي في ذبحك، أليس إقطاعك في دمياط؟

رفع تمربغا وجهه عن حمرة البساط القرمزية وقال في هدوء ووضوح:

ـ هو فعلا في دمياط لكن إذا كان يلزم لأحد غيري فأنا لا أبكي عليه!

ـ بل أردت أن أقول لك إنك ستعيش طليقًا في إقطاعك على ألا تبرح حدوده، لأني أخلعك الآن من مقام السلطنة واحمد الله رب العالمين.

استبشر خير بك بهذه السماحة التي لا سيف فيها ولا زنزانة، وخفق قلبه في انتظار الإشارة إليه، فلما غابت عليه استعجلها بإخراج الخاتم من جيبه ورفعه في يده:

ـ خاتم السلطنة في شوق إلى مولاه الحق!

نطق الاشمئزاز في وجه قايتباي وشوح بمركوبه مستهينًا بالشيء الصغير الظاهر في الكف الذليلة، وانفجر ضحكه الهازئ، ودعت نظراته رجاله أن يتفرجوا:

ـ أنا يا خسيس أصنع أختامي بيدي، أما هذا فأنت تأخذه إن شاء الله معك لتلعب به في السجن!

حتى تمربغا الذي رأي سلطانين غيره في ليلة واحدة استمتع بالفرجة على انهيار الدوادار الكبير وعلى مركوب قايتباي الذي غمرته القبلات وغسلته الدموع وهو يرفض كل ضراعة، فلن يعيش ذلك الذي كان سلطانًا ليلة في إقطاعه الجيزاوي، بل لن يسمح له بأن تضمه وأحمده زنزانة واحدة، ولن يرحمه من نتن الجاشنكير إلا موت الجاشنكير نفسه بعد أن يجتر كل دهنه.. هذا أمر السلطان!.. عاش مولانا السطان!

وللمرة الثانية في ليلة قاهرية واحدة أرهف الغافلون في الحواري المظلمة المخفورة أسماعهم لرعد جديد من هزيم الطبول يستشري في السماء السمراء، وصفت الدنيا لسيد جديد أشقر، وتجاوبت زعقات عسس الليل، ونامت الطواويس في بساتين الحريم على أنين السواقي التي ترفع مياه النيل إلى الفردوس المعلق في قلعة الجبل.

(١٢)

لم يكن يدري سبباً لما يفعل، لكن نفسه التي أطاعت حافزها الباطني كانت مشعشعة بهناء ساذج، وكان اللعاب يسيل من فمه وهو يكشف النافذة القريبة المفتوحة في بيت الملتزم، ويرى الرجلين ويسمعهما من مكمنه الذي الذي لا يخطر على البال، وكان قد انتظر غبش الغروب قبل أن يتسلق سور البستان من ناحيته القبلية المنخفضة، ويلبد في تكعيبة العنب الركنية ليستوثق من خلو الناحية من العيون الكاشفة، ثم زحف بين أشجار كبيرة مبهمة في العتمة زحف حيوان ضئيل الجسم ضخم الرأس إلى أن تحكمت يداه في جذع الشجرة التي انتقاها، فنهض في خفة، وما أسرع ما وجد نفسه رابضاً في أعلاها بجسمه العاري إلا من خرق متماسكة حول وسطه وقلبه مليء بالرضا، وكأن جسمه الشديد النحول فرع من فروع الشجرة نفسها، وكأن جلده الأسمر الداكن يكسو العظام نفسها بلا لحم، وكأن دماغه الكبير ثمرة ضخمة فريدة تكتنزها الشجرة في أعاليها ضنينة بها على الأنياب والعيون.

وأراح نفسه على ملتقي الفرعين وأرهف السمع عندما كلم الابن الأب وهو واقف أمامه بجلباب البيت:

ـ لا بد أن أراهما أمامي ميتين بعد أن أشبع من جلدهما بهذا الكرباج!

اهتز الرأس الكبير في أعلى الشجرة بانجذاب طروب، واللعاب الغزير مسحه ظهر اليد العجفاء المرتعشة.. الجلد والموت، هذا ما يريده إذن ابن الملتزم.. هكذا يكلم الضبع الصغير أباه الضبع الكبير.. ها هي الألسنة التي تصفه بالوساخة وها هي النعال التي تعودت أن تضرب مؤخرته كلما قطع طريقها في الخلاء وطلب منها صدقة...ها هي أحشاء وجودهما بارزة لسمعه وبصره وهو خفي في علاه، فمال بأذنه مصغياً وعظامه ترقص داخل جلده من نشوة حريفة، فسمع الأب وهو يلاطف ابنه الثائر دون أن يفقد حزمه معه، ورأي بين يديه الدفتر الكبير الذي طواه قبل أن يتكلم:

ـ يا ابني اسكت ولا توقعنا في مصيبة كبيرة.. المسألة إن صحت محتاجة إلى حكمة، وفي الإمكان حلها بهدوء.

زعق إدريس وهو يضرب فخذه بمقبض سوطه:

ـ الحل الوحيد هو الكرباج.. حتى الموت.. الخائنة!

وزعق حمزة هوالآخر ودق بكفيه على فخذيه في احتدام وهو يعتدل في جلسته متحفزاً:

ـ الكرباج؟ تجلد بنت ملتزم كفر الطماعين الذي يحتكم على زمام أكبر من ضعف زمام ميت جهينة؟.. اهدأ يا إدريس ولا تتكلم كلام مجانين.

لم يعد إدريس يطيق البقاء في مكان واحد، يظهر ويختفي، وخطواته في الحجرة الواسعة مضطربة، وصوته مختنق:

ـ كيف تطلب مني الهدوء وأنا أقول لك إني رأيتهما بعيني هاتين.. رأيتهما يا أبي.. رأيت كل شيء!

ـ ربما كانا يلعبان معًا مثل كل الصغار.. عمرها خمس عشرة سنة والولد مثلها إن لم يكن يصغرها بسنة.. وأبوها له سكك نافذة على والي الجيزة رأسًا، فهل تريد أن تضيعنا يا سي إدريس على آخر الزمن؟

واليد المرتعشة في أعلى الشجرة لا تكف عن ارتعاشها، والعين والأذن وجود كامل، وأحشاء الضباع بارزة، والضبع الصغير يقف أمام الضبع الكبير فاقدًا كل سيطرته على صوته، ولم يعد يعبأ أن يسمعه أحد:

ـ هل معنى كلامك أنك تريد أن أسكت على خيانتها خوفًا من أبيها صاحب الوالي؟.. قلت لك من الأول إني لا أريد هذا الزواج، فلماذا لم تتركها تلعب مع الصغار في بيت أبيها وجئت بها لتلعب مع صغار خدمنا في فراشي!.. هل قلت لك زوجني؟

ها هو الملتزم ينهض بقفطانه البيتي في حركة وقورة ويواجه ابنه في فراغ نافذة:

ـ اسمع يا ولد!.. أنا لا أسمح لك أن تقول إنها غلطتي أنا.. أنا لم أقل لك اهجر عروسك الصغيرة بعد سنة واحدة من الزواج واذهب طارد الفلاحات المقرفات في الغيطان والزرائب!

ـ يعني أولاد عبيدنا ينامون مع نسائنا ولا نفتح فمنا بكلمة خوفًا من ملتزم كفر الطماعين؟!

ـ لا.. ليس هذا معنى كلامي، والولد يجب أن يؤدب إذا كان كلامك صحيحًا.

ـ إذا كان كلامي صحيحًا؟!.. أتظن حقًا أن شحطًا مثلي بلغ السادسة والعشرين لا يعرف إذا دخل بيته فجأة إن كان ما يحدث فيه هو الجد أم اللعب؟!.. ومع من؟ مع حفيد العبد خفير الصومعة؟!

همهم ساكن الشجرة: «الله حي!!».

وقال الملتزم لابنه وهو يضع يده على كتفه:

ـ لا تحمل الهم.. الحفيد والجد نقطع جذرهما.. شيء سهل.. لكن زوجتك طفلة.. اضربها علقة خفيفة وأفهمها خطأها.. ربنا نفسه يا ابني يقبل التوبة!.. اضربها ثم صالحها وخذ بالك منها وأعطياني حفيدًا، وليس هذا يا ابن حمزة بالشيء الصعب!

ـ طيب اسمح لي على الأقل أطلقها.. كل الناس تطلق.

ـ يا إدريس يا ابني وجعت قلبي!.. بيتنا يجب أن يظل عامراً، هذه هي الوصية التي تركها لي جدك إدريس الكبير قبل أن يطلع السر الإلهي.. وهذا هو شغلنا الوحيد أنا وأنت ومن يأتي بعدنا إن شاء الله من آل إدريس.. بأي ثمن.. أنا معك في أن هناك أشياء سخيفة لا نحب أن تحدث لنا.. نقص في المال.. محصول رديء.. أستادار طماع.. فلاحة مستعصية على اشتهائنا لها.. امرأة خائنة.. لكن كل هذا في الحقيقة لا يصح له أن يحرق دمنا.. الدنيا لا تنام يا ولدي.. الدنيا بنت فرصة.. ومصالحنا أولي باهتمامنا.. وهذا هو ما ستقوله أنت أيضاً لأبنائك وحفدتك من بعد عمر طويل.. أما الولد بركات وجده ابن الكلاب عبد اللطيف فقد فرغ أجلهما ولن يعرف الذباب الأزرق طريق رمتيهما.. هذا وعد مني فاترك المسألة لي، ساعات قليلة.. وأما ست العرايس فهي تؤكل أكلا.. ما الذي تكرهه يا عبيط في صبية مثلها؟.. والله لو كانت بقيت لي أسناني القوية لأكلتها من دونك على سنة الله ورسوله ولم ينكشف لك وجهها، فهي والله خسارة فيك!.. روح يا شيخ!

وزادت رعشة اليد الضامرة القابضة على فرع في الشجرة عندما قصد حمزة النافذة ونادي منها بأعلى صوته الصارم:

ـ يا طه!.. يا طه!

وسمع ساكن الجميزة العلوي صوتاً خشناً لا يظهر له من صاحبه أكثر من لبدة سوداء وطرف نبوت:

ـ أمرك يا سيدي الملتزم!

ـ هات لي البهيم ابن البهيم عبد اللطيف الأكتع من تحت طقاطيق الأرض.

ـ أمرك يا سيدي الملتزم!.. لكن الأكتع موجوع ولا يقوي حتى على الجلوس.. عنده، بعيداً عن البيت وأصحابه، وجع تحت إبطه ولا مؤاخذة!

ـ وأين الولد بركات؟

ـ لعله كالعادة يساعد رئيس الأنفار في الحوض الغربي يا سيدي الملتزم.

ـ ابعث مرسالا يأتيني به في الحال.

ـ حاضر يا سيدي الملتزم.

واختفت اللبدة السوداء وعاد حمزة إلى ابنه فدفعه من كتفه وهو يضحك له:

ـ طمئن قلبك واعتبرهما ميتين من الآن واذهب إلى زوجتك ونفذ ما قلته لك.. استعمل يديك فقط في علقة خفيفة ثم الصلح، ثم حفيد لي أشمه يا غجر قبل طلوع السر الإلهي.. اتفقنا يا إدريس؟

همهم ساكن الشجرة: «الله حي!!».

لم يبدُ على إدريس أنه اقتنع، لكنه هز رأسه في إذعان مقهور قبل أن يبتعد قاصداً باب الحجرة بلا ريب، فأوقفه صوت الأب في ظهره:

ـ واترك هذا الكرباج السخيف معي!

تردد الابن لحظة قبل أن يسلم سلاحه وينصرف، وفرد حمزة الكرباج في يده ولسع به الهواء فكانت له فرقعة خاطفة، وفرقع به مرة أخرى مستسلما لشعور بالفتوة والانشراح غاب سببه عن الرأس الكبير في الشجرة، ثم قصد النافذة ونادي اللبدة السوداء وأمرها أن تؤجل إحضار الولد بركات إلى صباحة ربنا، وعاد إلى كرسيه في هدوء وفتح دفتر الحسبة.

هبط الرأس الكبير من الجميزة في حذرٍ وزحف بين أشجار البستان حتى دارته التكعيبة وهو يتسلق السور إلى الخارج، وظل محتمياً بجداره الخارجي وعيناه شعلتا مصباح في الليل حتى نظم أنفاسه وكشف الأفق قبل أن تنطلق به في الخلاء المظلم ساقا غزال وثاب لا يكاد يلمس الأرض.

(١٣)

وظهر بعد قليل للرجلين الجالسين عند حائط الطاحون، فرحب به عيسي ودعاه إلى الجلوس بقربه:

ـ من أين وإلى أين يا شيخ مرعوش؟

أشار الهيكل الناحل العاري ناحية صوامع الملتزم التي تبدو على البعد المظلم كأنها مردة مقعية من بني الجن:

ـ من أسفل سافلين إلى نسمة هواء طاهرة، لكني نذرت الصوم عن الكلام فلا تكلموني ساعة.

انحني عيسي وقبل اليد المرتعشة، وهمس خليل:

ـ دعه في حاله وانس وجوده ما دامت هذه رغبته، أنا أيضًا أحب الصمت في هذه الساعة.

وكان المغزل الدوار في يد خليل يغزل آخر الخيوط لزعبوط أو طاسة عندما انتزع مشهد الأفق المفعم بشحوب القمر البازغ وأنين السواقي البعيدة تنهيدة طويلة من صدر عيسي:

ـ لا تطيب الحياة بغير امرأة تناكفها وتناكفك ثم تهمدان معًا.

والليل عند حائط الطاحون مليء بالبراغيث والملل، وشبح خالد في الخلاء القريب من ناحية الأرض البور غامض في اندماجه بالظلام لم تبدده بشائر النور الهينة، كما لو كان عدوًا مقعيًا لا صديقًا يقضي حاجة، فابتسم خليل وسكت المغزل في يده لحظة:

ـ ما فيك من عيب يا عيسي إلا حنينك إلى النساء!

ونفث الأفق بكائيات أرغول عميقة في بعدها الخفي وراء أشجار السنط القميئة كأنها نابعة من بطن الأرض نفسها، وتنهد عيسي من جديد وفاض به الوجد وهو يترنم بصوته الغليظ الجواني:

«عشق البنات الصبايا هد مني الحيل...».

ـ لو جئت معي هنا يا عاشق الصبايا لرأيت شيئًا يسد نفسك.. قبيلة من فئران ميتة!

وأقبل خالد مسرعًا وقبل كتف الشيخ مرعوش عندما تبين وجوده ثم قال لصاحبيه:

ـ فئران منتفخة.. وبعضها متعفن.

لم يرد أحد فجلس معهم وأرهف سمعه لما يحمله الهواء الخفيف من حنين الأرغول النائي، وفعص عيسي برغوثًا في شعر ساقه الممدودة أمامه وهمس كأنه يكلم نفسه:

ـ على أن تكون امرأة بمعنى الكلمة!

وكشف ضوء القمر في صعوده المحسوس في الأفق طيف ابتسامة على وجه خالد، وأطبق الصمت حتى أوقف خليل المغزل في يده فجأة وسأل خالد:

ـ أهي كثيرة؟

ـ لا أقل من عشرين فأرًا.. كأنها اتفقت على أن تخرج من جحورها لتموت جماعة.. ورائحتها لا تطاق والعياذ بالله.. ما الذي يميتها؟

لكن المغزل لم يعد إلى الحركة في يد خليل:

ـ أنتم صغار ولا تعرفون.. عندك عشرون سنة يا خالد.. وعيسي أصغر مني بعشر سنوات على الأقل.. والشيخ مرعوش سائح في ملك الله لا يحمل همًا.. لم تروا ما رأيت من ثلاثين سنة وأنا صبي في عامي الثاني عشر أو الثالث عشر.. بدأ البلاء بالفئران ثم اندلع في جنس البني آدم وكاد يكنسه من الأرض.

ـ لا يا رب! لا!.. ليس قبل أن أتزوج امرأة بمعنى امرأة لا سحلية من السحالي الناشفة!

لم يضحك خالد كما تعود كلما هفت بعيسي أشواقه إلى النساء، وخرج صوته من حلقه مختنقًا:

ـ ربنا أعلم بحال بني آدم!

قال عيسي دون أن يستشف الجد في كلامهما:

ـ وبحال العبد لله!!

وكان يقلب بصره في السماء مستعطفًا عندما لمح أصحابه الرجل المقبل عند سنطة الشيخ هريدي القريبة ولفتوه إليه، فقال وهو يتأمل القادم من الشرق في دهشة:

ـ مشية مهبول أو مهزار أو مسطول!

واقترب الرجل وهو يباعد بين ساقيه متخبطًا في سيره حتى انحط جالسًا أمامهم دون أن ينزل ذراعيه المرفوعتين على إبطيه المشعرين المكشوفين من خروق قميصه، وسمعوا لأنفاسه وهو يلتقطها صفيرًا غريبًا، وتكلم ورأسه مائلة على كتفه:

ـ النجدة يا رجال الله!

ـ سلامتك يا خميس مالك؟

صفرت أنفاس الفلاح المهزول وهو يتململ متوجعًا في جلسته القلقة، وظلت رقبته مائلة برأسه نحو كتفه والدموع تنحدر على وجهه الضامر المروع:

ـ شفيعي عندكم غالب حبيبكم وصاحبي.. اشفوني.. أنا في عز شبابي.. أنا في عرض الله ورجاله.

احتضنه اهتمامهم وأحاطوه بقلوبهم وعرفوا منه مواجعه وتحسسوا بأيديهم الكلاكيع التي تشبه العقد الصلبة تحت إبطيه وعند ثنيتي فخذيه وفي رقبته، ورفع خليل إلى السماء من فوقهم كفين ضارعتين:

ـ يا ولداه يا بر مصر!.. يا ولداه!

وانتفض الشيخ مرعوش وصرخ صرخة عظيمة أخرجته من صومه عن الكلام:

ـ يا رب! إذا لم تكن هذه كنانتك في أرضك فلماذا تركتهم يقولون لنا هذا ولماذا تركتنا نصدقه؟

وصرخ الشاب العليل فجأة صرخة عاوية مبتورة ووثب إلى ركن الحائط ونفضه هناك عذاب قيء متعسر، وأكمل الشيخ مرعوش صلاته:

ـ اسمعني بحق العرايا والجياع وكل الغلابة يا مجيب الدعاء يا رب!

وطال عذاب خميس ومرعوش وعيسي وخليل وخالد عند الطاحون قبل أن تهدأ أحشاء خميس ويخفت صفير تنفسه دون أن تتوقف الدموع عن الانبثاق في عينيه اللتين يشيع الاحمرار حول بريقهما الشديد:

ـ أنا عطشان.. عطشان.. يتهيأ لي أن ماء ترعتنا كله لا يرويني، ولا بحر النيل.

فانتزع الشيخ مرعوش بيده الثابتة أذن إبريق الفخار الكروي من الوتد المدقوق له في الحائط وسقي أخاه دون أن تخرج دموعه من قلبه، ويده الأخرى ممعنة في ارتعاشها الأبدي، وماتت على الأفق آخر أنات الأرغول عندما تكلم بعد أن أعاد الإبريق إلى وتده:

ـ يا رحمن كن مع الذين صدقوك.. أنا ذاهب إلى دار سليمان أبو طاسة فاذهب إلى دارك وارقد يا خميس والله أكبر!

(١٤)

وقبل أن يتكلم منهم أحد كان قد انطلق في ظلام الخلاء وثابًا لا يكاد يلمس الأرض وعيناه شعلتان حيثما تلفت، وظهر بعد قليل بباب دار أبو طاسة الذي كان جسمه ظاهراً للمارة على حصيرة المصطبة الصغيرة وراء الباب وهذيانه مسموعًا في الطريق:

ـ يا عباد الله! من لم ير طاسة أبو طاسة فليتفرج!

ولم تتحرك امرأته وابنة أخيه المتكومتان على الأرض من ناحية رأسه في كآبة جامدة عندما أخذ يضرب بكفيه جلدة رأسه المغضنة المحروقة، لكن ست العيلة لم تقو على كتمان شهقة قصيرة ماتت في الحال متحشرجة في حنجرتها المختنقة.

خطا الشيخ مرعوش إلى الداخل ووقف لصق الحائط دون أن يكلم المرأتين، وهمدت كهولة سليمان وخانته يداه فتوقف عن لطم رأسه وفتح عينيه المحمرتين وهو يغالب صفير أنفاسه المتلاحقة:

ـ رأسي يا شيخ مرعوش.. الوجع في الطاسة.. وجع لا أدعو به على عدو ولا حبيب.. في قلب الطاسة.

لكنه لم يلبث أن حملته مرة أخرى دوامة الهذيان:

ـ أحلف لهم ما شفت الشعير يسخنوا لي الطاسة.. آي!!

كانت صرخة فظيعة نفضت المرأتين من جمودهما، وتأوه الشيخ مرعوش في معاناة فظيعة:

ـ يا ولداه يا سليمان.. أنت الآن في لحظة تعذيبك القديمة والطاسة المحمية لابسة في رأسك، والله لطيف!

وسألت ست الكل امراة خالها وهي ترتجف في وقفتها الخائفة:

ـ أسقيه يا امراة خالي؟

ـ يا بنتي أين يذهب كل هذا الماء الذي يشربه كأن في جوفه حريقة. جسمه امتلأ بالبقع والكلاكيع المخشبة.. يا عيني يا ابو فاطمة.. زمان قالت لي أمي إن من يحصل له هذا لا يعيش.. تعالي نبل ريقه يا أختي.. همٌ ينسي هماً.. خف عني وجع الجنب ونسيته.

وأسندت رأس رجلها إلى كتفها وقربت ست الكل الماء من فمه المتسخ، الذي ظهرت أشداقه كما لو كانت مطلية بالهباب، وتحركت في العنق الناحل تفاحة آدم كبيرة لم

تتوقف عن الرقص إلا بعد أن فرغت آخر قطرة في الكوز ثم عاد الرأس الملتهب إلى الهدمة التي يتوسدها، وعاد الصفير والتوجع والشكوي من أحشائه التي تتمزق، ولم يلبث أن استلمته نوبة هذيان فظيعة انتهت بعذابات قيء صعب جاءت أصواته العالية بفاطمة المفزوعة من داخل الزريبة.

ـ مالك يابا سلامتك؟!

حدقت العينان المحمرتان في الشابة الملهوفة التي ركعت في الحال وجعلت من يديها قصعة تتلقي ما تلفظه أحشاؤه الممزقة من عصارة وردية قليلة:

ـ يبارك لك يا بنتي.. عوض عن الولد!

شهقت فاطمة متكتمة يأسها الحزين، وحنت على أبيها وضمت رأسه المحروق في دفء صدرها العريض:

ـ يشفيك يابا ويكتب لك طول العمر!

ـ حلفت لهم يا فاطمة ما شفت الشعير سخنوا لي الطاسة.. آي!!

وعذابات عمره الشقي كلها تجمعت في صراخه ونشيج ابنته، وأمام الدار سيقان رفيعة وأجسام ضئيلة وأصوات مشفقة لجارات يسألن عن عمهن سليمان، وهن يدفعن صغارهن الذين جذبتهم صيحات هذيانه وأظهرت رءوسهم الكبيرة بين سيقان الأمهات، لكن المرعوش رفع يده الصغيرة وشوح برعشتها في الوجوه:

ـ وراءكن شغل في الدور يا نسوة أم ليس وراءكن إلا طول اللسان؟ وتعرفن الدعاء أم لا تعرفنه؟

واشترك صوته في الارتعاش مع يده:

ـ الدعاء لميت جهينة، رجالها ونسائها وصغارها، ولخميس ابن أم خميس والأكتع عبد اللطيف وزين الرجال أبو طاسة ولكل من يفتكره العذاب، ولا غالب إلا الله!

اضطربت السيقان الرفيعة خارج العتبة لظهور غالب ومجاذيب الطاحون الثلاثة، وسمع صوت امرأة تبتهل عند دخول الرءوس الثلاثة الحليقة والمرقعات البالية:

ـ مدد يا سكان الطاحون.

وانحني غالب على عذاب صهره ومس صدره بيده:

ـ شد حيلك يابا سليمان.. جماعة الطاحون هنا.

ـ سخنوا لي الطاسة.. سخنوا لي الطاسة.. آي.. مظلوم يا عالم.. مظلوم.. لا شفت الشعير ولا القمح.. الطاسة.. أنا في عرض الطاسة.

وارتفعت يد غالب إلى الجبين فردتها حرارته العالية، والتفت إلى أصحابه:

ـ نار، بعيد عنكم!

ولمح دموع امرأته الصغيرة وهي تغسل يديها في ركن الزلعة، ورق لها قلبه:

ـ ربنا يلطف يا فاطمة.. ربنا كبير!

لكن ست العيلة مدت يدها وكشفت القميص على بطن زوجها وأشارت إلى بقع داكنة متقاربة:

ـ كلما أكشف عنها أجدها اتسعت وكبرت.. شوف يا شيخ خليل؟ انحني خليل وفي رأسه خدر أفيونة العصر وتأمل البقع المنتشرة في البطن والساقين، ثم لمس العقدة المنتفخة في الرقبة فدوي صراخ ألم فظيع عندما استشعر طرف سبابته صلابة العقدة.. وكان صوته عندما تكلم مبطنًا بالأحزان.

ـ بقي يا عم سليمان لما الزعبوط خلص غزله!

أجهشت فاطمة بالبكاء من جديد فنهرتها أمها في هذه المرة:

ـ ادخلي يا بنت كملي قطع الزريبة.

ـ أقطعها بالطول وبالعرض يا امه.. أنا داخلة.

لكنها قبل أن تدخل خطت في اتجاه الرأس الكبير ومدت نحوه يدها:

ـ دعواتك يا مرعوش!

انتفض كالملسوع وهو يستجيب للصوت الأنثوي الكسير بصيحة هادرة:

ـ كن مع الذين صدقوك يا رحمن، كن مع الذين صدقوك!

ورددت همهمات خالد وعيسي وست العيلة الدعاء قبل أن يقول خالد في همسة:

ـ وكن معنا يا نَـفَس ستنا زليخة.

وكانت حواسه قد سجلت الشبه بين صوت فاطمة الطري المحزون وصوت عزة لما كان صوتها يسعد حياته بالأنس والشكوي والرضي والعمار، وفارت الذكري في حضرة الموت الفظيع فأكمل همسته الباكية:

ـ ونَفـَسك معنا يا عزة يا طاهرة!

وهاج سليمان في نوبة هذيان عنيفة:

ـ من لم ير طاسة أبو طاسة فليتفرج!

اندفع خليل بعويله المكتوم مارقًا من العتبة إلى الخلاء وهو يسد أذنيه بيديه، وقبل أن يبتلعه البعد كان المرعوش قد لحق به في وثبات طائرة، واندفع خيالهما في ضوء القمر

ذاهبين إلى الأفق في عدو خاطف وأذرعهما مفتوحة للسماء بكفوفها المبسوطة، وصوتهما الواحد يرج ما بين الأرض والسماء:

ـ الطاعون! الطاعون! الطاعون!

القسم الثالث

الطاحـــــون

(١)

مسكينة قلعة الجبل!

مسكينة أرض النيل وهي تشرب عرق البؤساء لتزدرد به عهر شراهة أسياد الأعنة والبتار المنقوع في السم، كأن أكثر من مئة سنة من عهد برقوق البعيد ليست كفاية عليها!.. كأن لم تبتلع الحلقة المفرغة التي بترها عهد قايتباي آلاف النهازين من عتاة الخطف، مارة بحجر الرحي الطاحن على يلبغا ومنطاش وفرج وخشقدم وبلباي وتمربغا وخير بك الذي أدام الله عزه ليلة واحدة، وكأن تلك الحلقة الغاشمة كانت تنتظر طوال تلك السنوات التسع والعشرين نومة قايتباي الأخيرة لكي يطل خرتيتها الهمجي بقرنه في سنة ١٤٩٦ ويبدأ من جديد دورانه الشنيع في الحوش السلطاني.

قايتباي ظل مديد ينحسر، لم يبق من حكمه الطويل غير هذا الفراش بأعمدته الأربعة المكفتة بنقوش الذهب، وهذا الشعار الذهبي المطروق في قمته، وفي السكون العميق تكرر الدق الخفيف على باب جانبي صغير في ركن الحجرة الفسيحة قبل أن ينفتح ويدخل منه أغا كهل خفيف الحركة يحمل صينية فضية عليها كوب وقارورة دواء وملعقة من ذهب في صحن من ذهب، وانحني الأغا بتحية الإجلال للأمير محمد الصغير الذي وجده واقفاً بالقرب من السرير الأبوي والذي يبدو أنه سيصير بعد ساعات قليلة سلطاناً، قبل أن يسعي في وقار متكلف إلى الوسادة وينحني عندها معلناً وصول الدواء إلى المسامع السلطانية:

ـ بلسم الصباح يا كوكب الشرق البهي!

ظهرت حدقتا قايتباي من بين أجفانه التي تباعدت على مهل ثم تنبه على زلفي العبد المتكررة ورأي القارورة فشوح بيده في سأم غاضب:

ـ اشربها أنت يا سندس أغا.. أو اسقها لهذا الولد!.. ما حاجتي الآن إلى هذا الطعم المر.. أنا أعرف أنها نهايتي.. اخرجوا كلكم.. كلكم.. وابحث لي عن تمراز فإني أريده في الحال.. خذ الولد معك.. لا أريد أن أراه مرة أخرى!

سحب سندس أغا الأمير محمد من يده فقام معه من سكات، لكن الصوت السلطاني الواهن أوقفهما فجأة قبل أن يختفيا:

ـ اسمع يا ولد يا محمد!

عاد الولد والأغا ووقفا عند السرير فشمل قايتباي ابنه بنظرة كارهة يائسة:

ـ ماذا كنت تريد أن تقول لي؟

زاغت عين الغلام من النظرة الفاحصة وتلعثم في قوله إنه لا يريد إلا الاطمئنان على سلامة مولاه السلطان وصحته الغالية، لكن الأب دهمه في الحال بسؤال آخر فيه كل الحسم:

ـ وولاية العهد؟!

انكشفت أعوام محمد الأربعة عشر وهو يؤكد أن هذا الشأن ما خطر على باله ودعا للسلطان بطول العمر، لكن الأب الذي كان بعد كل كلمتين يلتقط أنفاسه وينظمها عاجله بالضربة الماحقة:

ـ اسمع يا ولد!.. مولاك السلطان لا يعنيه ما يحدث بعد وفاته.. وهو يموت دون أن يعهد لك بولاية العهد!

جمد الغلام في وقفته المتصلبة وغاض الدم من سمنة وجهه المكتنزة، وشوحت اليد الأبوية فوق الملاءة بإشارة يائسة:

ـ لا فائدة.. لا فائدة من أي شيء.. ليكن ما يكون.. لكني أنوي.. في اللحظات المتبقية لي.. أن أموت في سلام..

وأطبق جفنيه واستعذب السكون.. مرض الموت؟.. مرحبًا بالموت يمحو هذا السأم.. السأم من كل شيء.. هذه الأيام الكئيبة.. مرحبًا بالنهاية تنسدل آخر الأمر في هدوء مثل هذه الستائر القرمزية الثقيلة المطبقة على نوافذ المخدع.. ماذا بقي من كل الجهاد قبل العرش وبعده؟.. هذا الابن المخزي الذي لن يكون بهمته القميئة إلا مطية لكل أمير جسور، إن لم يكن مصيره الخنق في الحمام أو الرمي من فوق أسوار القلعة.

وكرر السلطان أمره للأغا وهو يصرفهما بإشارة من يده الطاردة:

ـ هات لي تمراز في الحال.

اختفي سندس أغا والغلام الأمير وضمت الستائر القرمزية وحدة الإنسان قايتباي في غروب شمسه وأنفاسه السأمانة في وجه الموت.

ماذا جني من كل تعب العمر الطويل بعد الحرابة في الداخل ضد الجلبان والطواعين وفي الخارج ضد العثمانيين والتركمان؟ حقارة إنسان عصره وخسته؟ ومعرفة أرجال المنافقين والنهابين والمسوخ؟!

ها هو أحدهم، تقدم يا تمراز، تقدم، خلا لكم الميدان فبيضوا وافقسوا، وتدفقت مرارات قايتباي المعتقة وطفحت الزراية بالأمير الداخل على وجهه الشاحب فلم يحاول كتمها، أنت وأنا يا تمراز نعلم أن أحسن ما تتقنه في الدنيا هو نقرك على الدربكة، وأنك لا قارئ ولا كاتب ولا فارس، لأنك لم يكن لك حظ خشداشيتك منذ تداولك الأسياد، السيد منهم بعد السيد، ولم تنتظم في قبضة تهذب غلظتك غير طواشية من أساطين الخلاعة يفقهونك في العهر.. تقدم إذن.. ومن عجب أن يكون أمثالك هم الأمل الوحيد بعد موتي!.. قف أو اجلس ولكن إياك أن تنبطح على الأرض وتقبلها. وأنت أول من يستعجل نفسي الأخير لكي يثب إلى

الأعنة ويقبض عليها، لأني في آخر لحظات عمري وأصدقها لن أطيق رؤية النفاق كاشفاً وجهه إلى هذا الحد.. وتباعدت أجفان الشيخ الراقد ولمعت عيناه ببريق شديد وهو يأخذ زائره في محيط نظرته الشاملة:

ـ دعوتك لتقول لي.. ما سيحدث.. بعد موتي..فقل لي!

تردد الچركسي ونفرت في قمتي خديه الموردين نقطتان من الدم:

ـ في الحقيقة يا مولاي السلطان.. لم أفكر في هذا أبداً والله.. إنما شغلتنا كلنا صحتكم وحدها!

نعم! رفرف يا صقر وحوم حول الرمة، ما أكذب تضاؤلك في خشوعك المزيف، أرني عينيك ولا ترغ بهما مني!

ـ نقر لك على الدربكة نقرتين تفتكر!

انزلقت الغمزة على جلده الصفيق ولم يرتجف له عصب، وويل لمحمد الطري في هذا المخلب الفولاذي!.. انطق! تكلم يا وغد!.. أليس عند المتصدي لتمرد الجلبان وجحافل التركمان حتى شجاعة الإفصاح عن مطمعه في حضرة شيخ يموت؟

ـ أو أنا أفكرك يا تمراز.. أنعش لك ملكة التذكر.. بسؤال قاطع.. في رأيك من هو أصلح الأمراء للوصاية على الولد؟

ـ أحد رجلين يا مولاي، ما دام السلطان أدام الله علاه وأطال عمره قد أذن لي في المشورة.

ـ ومن هو الرجل الثاني؟

ـ قانصوه بالطبع يا مولاي!

غلب الابتسام على مواجع قايتباي وانحني برأسه قليلا باحثًا في جوار السرير عن المبصقة، فجري تمراز وأدناها قرب الوسادة في أكمل أدب دون أن ينتبه إلى سقطته البلهاء في شرك الفهد العجوز المتشائم، الذي فضحه:

ـ آه !.. أتابك العسكر هو الرجل الثاني... وقعت بلسانك يا غشيم!.. والرجل الأول طبعاً هو.. حضرتكم التمرازية!

لا تمراز ولا يحزنون، كان متضائلا أما الآن فقد تلاشي، أغبي وأحقر من فأر في مصيدة، واحد من أبرز الذئاب التي ستعبر عما قليل قنطرة محمد إلى صراع السلطة، ما أغزر دمه الذي نط في خديه المكورين وأشعلهما، وما أضيق جبينه وما أعجب زئبقية عينيه!

هو ذا مخلبه، ممسكًا إلى حين بالمبصقة، طليعة المخالب المتربصة المشحوذة.

ـ اسمع يا تمراز.. هل تصدقني.. إذا قلت لك.. إني في الحقيقة لا يعنيني ما يحدث بعد موتي؟.. ستركبها أنت أو يركبها قانصوه.. الشاطر يركب.. وليس لي عند كل منكما غير

رجاء واحد.. رفقًا بجنب ولدي عند نخس المهماز.. إن الخيّال الشاطر يوجع جنب حصانه بالنخس ليلهب دمويته لكنه لا يجرحه بمهمازه!

ـ ما هذا الكلام يا مولاي، لك طول العمر!

هل يقصد هذا البهيم أني أهذي وأنه سعيد بدنو نهايتي المرتقب؟ إياك أن تنطق بعدها بكلمة!.. اخرج.. اذهب جرب بختك في اللعبة القديمة العنيدة.. وستجد الصقر الثاني جاثمًا عند بابي يتشمم.. أرسله إليّ.. سيحزنه والله أنك دخلت قبله ويفرحه أنه آخر من يلقي في أذني بكلمته.. خسيسة هذه الحلقة المفرغة، كيف لم يتنبه إلى هذه الحقيقة أحد قبل فوات الأوان.. كان ينبغي أن يكون هناك شيء آخر.. شيء آخر.

وتحامل السلطان على نفسه حتى بصق ثم اعتدل في رقاده عندما سمع النقر المؤدب على الباب الكبير، ها هو المخلب الثاني لم يكد يطيق الصبر، تقدم يا قانصوه، تقدم، افقس لنا فقسك.. هل تطلب ما تريد؟.. هل عندك شجاعة؟.. هل تسترجل وتقود معركة؟.. ويسكت عنك الجلبان؟ شهرًا؟ سنة؟ تسعًا وعشرين سنة أخرى؟.. تكلم.. هات ما عندك.. لكن وصيتي التي لا وصية غيرها أن الخيّال يوجع حصانه بالمهماز دون أن يجرحه.

ـ يا قانصوه!.. لا وقت عندي للكلام الكثير.. من هو الأصلح للوصاية على الولد في رأيك؟

قالها وهو يتظاهر بالبحث عن المبصقة، والأدب المملوكي هو الأدب المملوكي، شكرًا يا حقير يا زري، شكرًا، ضعها قريبة من متناولي وأجب عن سؤالي بصدق.. من؟

وسلط عليه وهو يحتويه بنظرته جماع ما بقي له من قوة الحس والفكر، يكاد يرى عمل مخه الوظيفي من خلال جلدة الجبين المغضنة، حتى تكلم أتابك العسكر:

ـ الأمر ما يراه مولانا أطال الله بقاءه!

ـ ما أسخفك! يا رجل ارفع عينيك وكلمني.. تمراز أم أنت؟ هذا هو السؤال!.. أريد قبل الموت أن أعرف الخيال الذي سيركب ذكراي.. مهماز محمد!

ـ العفو يا مولانا السلطان.. الأمير محمد على الرأس من فوق.. وسلطان غدنا!

زئبقي يا مولاي قانصوه! زئبقي!.. أنت مقرف!.. لا أمير ولا سيد.. صحيح أن جبينه أوسع وشخصه أحكم ومهمازه أصلب، لكن هذا النعل من ذلك الوطء على قول حرافيش البلد... اسمع يا قانصوه!.. إن كانت هذه الشجاعة كبيرة عليك فاعطني شجاعة صغيرة!.. قل ولا تخف عني، حلفتك بغلمانك الحسان وجواريك الغلاميات، ألم تحزن لأن تمراز دخل عندي قبلك ثم تعزيت بأنك على كل حال آخر من يتحكم في أذن السلطان المحتضر وفي إرادته؟.. لكن لا .. حتى هذه لن تقولها.. الزئبق لا ينطق بل ينزلق.. ويظل ينزلق.. إلى أن يخنق أو يسجن أو يوسط بالسيف!

اخرج أنت أيضًا.. يأسي في وحدتي أحسن!

لكن لم تطل الوحدة السلطانية فقد انفتح الباب الجانبي مرة ثانية وظهر الدواء والأغا المائع في توسلاته المخنثة:

ـ من شأن خاطر عبدك سندس أغا يا مولاي تشرب البلسم الشافي.

تباعدت أجفان السلطان فظهرت حدقتاه هائمتين في دنيا غير الدنيا، لكنه وسعه أن يهمس في فتور:

ـ وحياة.. عيون.. سندس.. اكتفيت.. بالمهاميز.. في قفاي.. لا تضيع وقتك هنا.. روح اهبش لك هبشة!

ـ أمر مولانا السلطان!!

(٢)

كان المعلم الذي يبدو كالنائم على روحه مدموغًا بطابع الغيبوبة الدائمة وهو واقف في ركن النصبة الذي تحتويه في وقت الغروب عتمة دافئة، يسخن في كنكة سوداء عتيقة فنجان الحلبة المغلية لبائع الليمون الأعور الذي كان الزبون الوحيد في القهوة، عندما جاء من داخل حارة الحمام رجلان يحمل أحدهما في يده سطلا مفعمًا بأدوات النقش، وحول طاقيته الشال الأسود شعار الرفاعية.

ورد صاحب القهوة تحيتهما ببشاشة ذاهلة، وطلب النقاشان القهوة السادة وهما يجلسان بالقرب من دكة الشاعر الخالية، ثم سأل صاحب الشال الأسود وهو ينظر في المقطف الزري الملقي على الأرض بين قدمي الأعور الحافيتين:

ـ معك فضلة ليمون يا أخ؟

فتح الأعور المقطف المطبق وأراهما فراغه القليل الخالي إلا من بعض كسر الخبز اليابسة:

ـ جبرنا من العصر والحمد لله.. كيف حال كتابنا؟ انتهي بياضه على خيرة الله؟

ابتسم النقاش الثاني وكان مثل زميله الرفاعي في نحو الأربعين من عمره، وقال وهو يدعك ذراعه اليمني من تحت الكوع:

ـ انتهي بعد أن وقعت من فوق السقالة وكادت تنكسر ذراعي للمرة الثانية بسبب كتاب حارة الحمام!

وكان المعلم قد خرج من وراء النصبة هزيل البنية محمر العينين، وناول بائع الليمون مشروبه قبل أن يضع الصينية النحاسية الصغيرة أمام زبونيه الجديدين، وظهرت يده اليمني ناقصة ثلاثة من أصابعها، فسأل وهو يصب لهما القهوة في فنجاني البيشة الصغيرين من الكنكة التي اختفي لونها الأصلي تحت طبقة الهباب الكثيفة، بصوته الوسنان:

ـ للمرة الثانية؟.. يعني المعلم سبق له أن شرف حارتنا؟.. ما اسم الكريم بالصلاة على النبي؟

ـ محسوبك يوسف الجهيني.

ـ أنعم وأكرم.. من أين؟

أشار يوسف إلى صديقه الذي يستطعم القهوة في هدوء بعد تعب النهار:

ـ من الخيامية أنا وزميلي الشيخ زكريا.

ـ يا رفاعي مدد!

وشم بائع الليمون البخار المتصاعد من فنجان الحلبة الكبير وقال في سرور منتعش:

ـ الحلبة يا جدعان أحسن دواء للصدر والمعدة.. شفاء وعافية!

سحب المعلم كرسيًا وواجه النقاشين وعاد ينكشهما للكلام بصوته المتراخي الذي يوحي إلى سامعه ألا شيء في الدنيا يهم:

ـ يعني هذه ليست أول مرة بتشرف فيها كتابنا بصنعة المعلم زكريا والمعلم يوسف؟

رشف يوسف من فنجانه وتألقت الابتسامة في عينيه العسليتين:

ـ أنا تربيت هنا في حارة الحمام يا معلم، في بيت كان قائمًا مكان الخرابة الكبيرة التي وراء الكتاب.

ـ آه.. بيت الشيخ عباس الله يرحمه؟

قال زكريا وهو يبادل صاحبه نظرة ضاحكة:

ـ قل: الله يطيل عمره وينفخ في روحه!

وهز يوسف الفنجان في يده قبل أن يحتسي ثمالته الثقيلة المرة، وحار في طوفان الذكريات المتدفقة فكره:

ـ ما أبعد ذلك الزمن!.. ناس غير الناس ودنيا غير الدنيا.. كأنها ثلاثمائة سنة لا ثلاثون!

ورد الفنجان الفارغ إلى الصينية ونطق في وجهه الطيب الأسمر شجن وحنين:

ـ نسيت الآية الرابعة من قل أعوذ برب الناس فكسر لي الشيخ عباس ذراعي.. من هنا.. كانت له عصا ولا كل العصي.. لم يكن مؤمنًا بضرب الفلقة.. كانت حكاية، وكاد زوج خالتي المرحوم المعلم أيوب يكسر للشيخ رقبته.. آخر عهدي بالكتاب.. اشتغلت مع زوج خالتي في دكان النجارة، مستفتحين كل يوم بالدعاء على الشيخ أن يموت ونصنع له بأيدينا نعشه.. وهذه القهوة كانت موجودة أيضًا.. كما هي الآن تمامًا.. كان اسمها قهوة زين الدين.. وكان المعلم زين الدين رجلا طيبًا مثل السامعين.. زمن يروح وزمن يجيء.. وسبحان من له الدوام!

دعك المعلم عينه الحمراء الدامعة وأخذ وقتًا حتى جمع أفكاره:

ـ تعيش يا معلم يوسف.. هذه القهوة قديمة فعلا.. وأنا سمعت لما أخذتها من بنت زين الدين أنها موجودة في مكانها هذا من عهد برسباي.. وربما من قبل برسباي.. أما بنت زين الدين فقد أخذت مني القرشين وهجرت حارة الحمام وبركة الحبشي كلها..لا أدري إلى

أين.. كانت بنتًا مسترجلة يعمل لها الرجال حسابًا وتتعامل معهم بكفاءة وشرف، مع إنها ولا مؤاخذة نتاية وحلوة.. لا أنسي الغمازتين في خديها.. وودعتها قائلا لها إني أحسد من يتزوجها.

ضحك زكريا وهو يضرب كتف زميله الذي رجت قهقهته المكان الضيق وهو يمهد لإيقاع صاحب القهوة في ورطة كبيرة:

ـ تزوجت واحدًا من أولاد حرفتنا.. نقاشًا.. ولا تزال في خديها الغمازتان!

وانتظر الجميع حتى سكتت السعلة من بائع الليمون ثم غمز يوسف صاحبه الرفاعي وهو يبغت غيبوبة المعلم المستعلية على الوجود بسباتها:

ـ هي الآن زوجتي وإن كانت لم تصبح بعد أم العيال، لأن الله لم يكرمنا إلى الآن بالذرية! بنت المعلم زين الدين هي زوجتي!

رفس بائع الليمون برجليه مستمتعًا بالقفشة واستلمته السعلة ممزقة ضحكاته الخشنة، وتعثر الاعتذار الخجول في كلمات المعلم المضطربة، وكأن يده المبتورة الأصابع عاجزة عن التعبير:

ـ أما انا مقطف!.. لا مؤاخذة يا سيد الناس!.. طول عمري هكذا، أنْدَبّ مثل الرطل!.. جماعتي أيضًا والله العظيم لها غمازتان وفي موضع غير الخدين!.. أقول لك هذا من أجل أن تسامحني.. قل له يغفر زلة لساني يا رفاعي مدد!

ربط الضحك بين الرجال الأربعة كما لو كانوا أصدقاء عمر مديد، وعمر قلوبهم صفاء أخوي رفع وجودهم إلى مقام الألفة والمحبة، وأراد صاحب القهوة المكسوف أن ينقل الحديث نقلة ترفع ما بقي في نفسه من حرج:

ـ وأنت يا رفاعي مدد؟ هل وفقك الله أنت الآخر إلى أهل وسكن؟ تبسم كل ما في زكريا من تحت الشال الأسود، من الجبين إلى أصابع يديه المفتوحتين أمام وجهه الراضي:

ـ زوجتي أنا؟.. هي أجمل الزوجات، وطرفي لا يرى بعدها ما يسرني، وروحي بها هائمة وممتزجة ومتحدة، وأيامها طرب ولياليها عجب!

صحت في وجدان يوسف هواجع الذكريات وانفثأت مكامن المواجع. لا ينسي ذلك اليوم من عشر سنوات..لا ينسي كيف جاء بالمأذون لعقد قرانه عليها وهي تفقع بالصوت غداة مصرع أبيها في زقاق الناضوري.. لم يكن في الإمكان تركها تقضي الليل وحدها وهي على ذلك الحال من الجنون.. أخذها إلى بيته.. وكان نهار قايتباي الطويل قد انتصف وتوسطت شمسه سماء البلد، عندما كبست زاوية المجاذيب عصابة مملوكية بقيادة جركسي شرس الهياج ينادي سيفه بأن أستاذه قد ذبح في هذا المكان في قديم الزمن، وأنه لن يهدأ حتى يذبح كل من فيه انتقامًا وقصاصًا.. وكان ما يقوله هو الحق، لكن ذابح أستاذه كان قد هرب إلى بر الجيزة ومرت على هجرته سنوات.. وأحاطت بالبهاليل المجاذيب سيوف ظامئة، وبزغت زليخة من سردابها رافعة مقرعتها.

ـ كنت هناك.. رأيت المجزرة.. من مخبئي الجبان في فجوة السور الخلفي.. رأيت السيوف وهي تروي ظمأها من دماء البررة وضيوفهم الأعزة الذين يساوي الواحد منهم ألفًا من تلك الكلاب البيضاء المسعورة.. كان على مدخل الزاوية بواب من البهاليل المكشوف عنهم الحجاب ظل ساعة قبل وصول الخيالة يزعق في الحوش معلنًا الاستشهاد الجماعي، وكأنه يرى المذبحة كاملة بين عينيه وفي حبة قلبه المنورة.

ـ تعيش يا ابني وتفتكر.. الله يرحم الجميع.

ـ وجاءوا بحمام الدم.. لا أنسي.. لا أنسي.. وسمعت ستنا زليخة رضي الله عنها تناديني وهي تقاوم بمقرعتها الهائلة ضربات السيوف: «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين»!.. وعلمت بعد فراري المؤسف من الهول كما علمت القاهرة كلها أن مقرعة شيخة الزاوية وأم الرسالة خطفت أرواحًا لا تحصي من حصاد جهنم المملوكي قبل أن يشق كافر من سيوفهم صدرها عن قلبها.

واختنق صوته وخانته الكلمات.. وفجأة بكي فأجهش بائع الليمون، لكن الرفاعي نهض في هدوء آخذًا بذراع صديقه وهو يلقي في قلبه السكينة:

ـ نقوم قبل ما يقفل باب الخيامية ونلحق صلاة العشاء في زاويتنا، أما القلب الطاهر الحر فقد تلقفته ملائكة الرحمة يا يوسف واحتضنته بركات الأفق الأعلي.. هلم بنا!

تماسك يوسف وأدخل يده في طوق جلبابه فأسرع المعلم إلى سحبها قبل أن تبلغ جيب الصدرية:

ـ والله لا آخذ شيئًا.. أنتم أهل المكان ونحن هنا ضيوفكم.. كفاية علينا البركة.

وشيعتهما مع دعوات المعلم الطيب خطي بائع الليمون الذي تأبط مقطفه الضئيل حتى أوصلهما إلى باب الحارة الذي كانت رءوس مساميره الجديدة لامعة في غبش المساء الزاحف، وهناك أمسك زكريا سطله في يسراه وأسقطت يمناه في كف الأعور شيئًا ومسح على رأسه وهو يرده إلى عالمه:

ـ خذها وتوكل!

وتنهد يوسف ملء صدره القوي ويده ملامسة لحديد متراس البوابة:

ـ ينزع الباب القديم ويدق الجديد لكل جيل..

وانتظمت خطواتهما في مشية نشيطة انسجمت مع السرعة المتشابهة في خطي العدد القليل من المارة في كل اتجاه، أبناء مدينة لا بد أن تموت الحياة فيها من بعد أذان العشاء إلى صلاة الفجر، لكن قطعت طريقهما عند تربيعة سوق النخاسين ضجة زحام حول عقوبة تجريس علنية.

ـ حرامي.. حرامي.. حرامي.

وكان الذي على الحمار في وسط الزحمة الشديدة حافي القدمين قذر القميص عاري الرأس مسلوب الإرادة، وكانت سحنته البائسة إلى دبر الحمار، وعن يمينه موظف عمومي يضرب الجرس على رأسه، وعن شماله آخر يقود زفة من الغلمان أشباه العرايا يرددون نداءه المغني:

ـ حرامي.. حرامي.. حرامي.

أخذ زكريا بذراع يوسف كاسراً على زقاق السبيل:

ـ كأن هذا التشهير البشع لا يكفي.. في النهاية يجلدون المسكين وسط بني قومه المتفرجين.. أقول إن هذا ظلم وإننا سنحاسب على رضانا به وسكوتنا عليه.. أقول هذا دائماً لجارنا الأزهري الشيخ الغرباوي فيقول لي: إن العمة السوداء لا تعطيني الحق في بحث أمور ترجع الفتوي فيها من قديم الزمن إلى مشايخ الأزهر وحدهم.. وأقول لله في النهاية: هذا الحال بدن هالك ولو أن لنا روحاً صادقاً لأحرقه وتبدد البدن كالرماد المنتثر.. اللهم أنزل في الظلمة نورك!

والمنادون من ورائهما ما زالوا يزفون راكب الحمار المستسلم لهوان التجريس.

ـ حرامي.. حرامي.. حرامي.

هدير يتباعد وصدي يتبدد، هي ذي عطفة النعناعة وستارة حمام النساء بالية النقش جرباء الحواشي.

ومساء الخير يا نبوية، هذه أنت في جلستك عند فضلة كراتك الذابلة أمام دكان العطار عثمان، وحولك سحابتك الأزلية من ذباب العطفة الطنان المستأنس، والطواف يوارب الباب ويستحث آخر الخطي المتسكعة، والمؤذن صاعد في المئذنة.

وفي يمين حائط حجري في نهاية العطفة فتحة تلقف الداخل إلى دهليز مظلم مديد الطول تتوالي فيه أبواب خفيضة يبول أمامها صبيان وبنات، وباب زكريا أمام باب يوسف بعد المنعطف الأول.. معك السلامة.. معك السلامة.. ومن يصحو من نومه قبل الآخر يوقظه.

ـ السلام يا يوسف لأهل بيتك.

ـ يصل إن شاء الله.. تصبح على خير.

ـ وأنت من أهل الخير وإن كنت لا تعرف!

ودخل يوسف على أهله، لا صبيان ولا بنات في حجرة يوسف، كل ما عنده عدا الهدمتين على الحائط والحلتين في الركن والطبلية والزير والكوز والمساند والفرشة البسيطة على الحصيرة غمازتان في وجنتين دمهما حاضر في سمارهما اللطيف، وأنوثة في نضج الثلاثين، ونظرة حب وأشواق.

ـ مساء الخير يا مكاسب.

ـ حدثتني نفسي بأنك ستتأخر.. قالت لي: إن من المحال أن يذهب يوسف إلى حارة الحمام ولا يجلس في قهوتنا ويترحم على موتانا.. كنت عارفة ومع ذلك أوحشتني!

وخشب الطبلية يلمع والفرشة النظيفة تنادي مبشرة بالراحة والنعمة:

ـ الشيخ طلع له عشاؤه؟

ـ الشيخ صائم.. وعنده ذكر حمام أبيض يعالج كسر جناحه.

ـ قال لك بعظمة لسانه إنه لن يأكل؟

ـ قال لي وهو يردني بالطعام إنه سيكسر صيامه عندما يطير ذكر الحمام مع سربه.. وطلب مني أن أقول لك إنه يريد الليلة ألا تتعب نفسك بصعود السلم إلى السطح.. قل لي.. هل مع الشيخ زكريا ما يأكله أم أحمل إليه ما رده علينا صيام الشيخ عباس؟

ـ زكريا جاء معه من السوق بثلاث خيارات كبيرة، فخذي له بعض ما عندنا إن كان يستحق النقل عبر الأبواب.

ـ عندنا الخير كله يا يوسف!

وكان يوسف في لحظة سكوتها قبل أن تجاوبه قد صعد خاطره مرة أخرى إلى ساكن السطح، فجاء رده عليها مخيباً لرغبتها الواضحة في أن يسألها عن نوع العشاء:

ـ صائم في هذه الشيخوخة الفانية..أخشي أن نجده ذات صباح ميتًا وسط الحمام.. هل أضغط عليه ليأكل؟

الغمازتان ناطقتان بالعتاب، صائم يعني صائم، وأوحشتني يعني أوحشتني، لم يبق إلا أن يعبر الطبق البابين إلى يد زكريا ثم نقفل بابنا وأكلمه ويكلمني ويضحك وينفرد ويرضي، ويعرف أني أحبه.. دعنا نعيش لحظة! نعيش!

(٣)

للقهرمانة الكبيرة رئيسة الحريم السلطاني مشية جليلة وهيبة أخاذة، ولقامتها الهيفاء في كهولة الخمسين سحرها الفريد المتوج بشعر أسود تبرق حيويته في أضواء مشاعل الإنارة المتناثرة في الأبهاء الواسعة والممرات الطويلة، وحراس الليل يتصلبون عند مرورها وتسلمها نظرة الواحد منهم إلى نظرة الآخر في سكون مليء بالاحترام والإعجاب، وحجاب قاعة العرش يفتحون لها وهم ينحنون أمام باب القاعة الكبير، باب المجالس والمواكب وعظائم الأمور ينفتح أمامها كاشفاً القاعة الواسعة كميدان قتال، والعرش العالي فوق درجاته السبع، وقانصوه يرقص وفي يده السيف أمام العرش وحول العرش، ينزل في الدرجات السبع ويطلع فيها، لم يعد في الخمسين بل في الثلاثين، بل العشرين، ما أحلي الدنيا في حال طاعتها وإقبالها، وما أشهي نبيذ القلعة المعتق في أقبيتها السرية من عهد برقوق!

تبسمت القهرمانة وقالت لأتابك العسكر الثمل وهي تسعي في بساطة نحو العرش وتعتليه:

ـ أنت رجل سعيد يا قانصوه، والمنجمون صادقون في قولهم لي: إن سنة ١٤٩٦ هذه هي سنة صعود نجمك وإشراق سعدك، لكن الحاجب رأي رقصك عند دخولي ولن يطلع الصباح حتى يعلم كل من في القلعة أن أتابك العسكر الوصي على ابن قايتباي كان يرقص على العرش مستقبلا يوم نصره على تمراز وهو سكران!

تركها جالسة على العرش وارتمي فوق درجاته وهو يلهث، وخانته أعصابه في إعادة السيف إلى غمده فألقي به على البساط عند قدميه وهو ينفث أعماقه في ضحكة جلفة:

ـ اسكتي يا قهرمانة الحظ السلطاني.. اسكتي..كم انبطحت هنا على وجهي وكم قبلت الأرض!

ـ هل أنت في حاجة إلى من يعلمك الحكمة؟ عليك أن تواري فرحك بالنصر كما تواري نشوتك بالراح!

تمطي الجركسي وتثاءب ملء الإيوان قبل أن يرد:

ـ إن هي إلا رشفات قليلة من زبدة دنان القبو، وأنت تعلمين يا جلبهار أنها تنعش النفس وتصلحها.

يا رب! لماذا لم يكن في حياتها كلها غير هذا الصنف من أشباه الرجال! هذا آخر سهم في جعبتها، آخر من مدت له يدها وقومت طموحه في معركته الفاصلة مع غريمه تمراز

اللئيم.. لكن ما الفائدة! إن الرجل الوحيد الذي احترمته في عمرها كله هو قايتباي الذي يموت الآن في فراشه وهو يسمع صراخ زوجاته المتماسكات في نزاعهن على خواتمه النفيسة المنتزعة من أصابعه وهو في غيبوبته.. كان في السلم والحرب سيداً، وكانت له النظرة النافذة والإرادة الباترة وسجايا العظام الحاكمين، وهو الذي رفعها في أول شبابها من عفن الزنزانة وأهداها المراهم التي أنبتت لها في رأسها المحلوق شعراً جديداً ووضعها منذ ذلك اليوم البعيد على رأس حريمه وجعل لها في القلعة كلمتها وهيبتها، وهو الوحيد الذي خفق له حقاً قلبها.. لكن ما الفائدة من هذه الأقزام المتعملقة الناهشة في لحمه الذي لا يزال يخفق فيه الروح؟.. ما الذي يفعله الآن هذا الغبي الذي أحسنت به الظن؟.. يزحف في الدرجات طالعا إليها وفي عينيه شبق أحمق.. فأوقفت حركته البليدة السكري بإشارة حازمة من أصبعها.. قانصوه! أفق!.. أمامك أعباء جسام!.. وإذا كان تمراز في السجن منذ الضحي فإن الذئاب كثيرة ومسعورة، والسلطان حي لا يزال! إن أنت إلا أتابك العسكر، وبينك وبين التفكير في المتعة آماد تقطعها باليقظة والجهد والعرق قبل أن تسترخي وتصفق في طلب الكئوس والمزامير والعرايا من جواريك وغلمانك.. وإذا كان من حق محمد بن قايتباي وهو في عمره الشهواني أن يغرق في المتع، عندي وبمعرفتي وباتفاقي معك، فما عذرك أنت!.. أفق وانهض وافهم واحكم!

ـ أريد يا جلبهار أن أغطي وجهي بشعرك الجميل فارفعيني إليك!

ـ يا رجل!.. لقد كان لي في شبابي شعر أجمل من هذا وهو الآن وسادة تحت رأس قايتباي، فانتظر قليلا تكون لك الوسادة وتنام عليها أنت أيضاً إلى آخر عمرك، لكني أريد أن تعلم أن نفقة حروب قايتباي وترادف الطواعين ومطامع الجلبان قد خلفت خزانة خاوية، وأن تقول لي ماذا أنت فاعل في هذا وقد دانت لك السلطة وتوليت أنا عنك أمر ولي العهد؟

ـ آه!.. الولد!.. كيف تركته؟

ـ غريق في أمواج من لحوم الجواري وسعيد وأبله إلى الأبد!

ـ وماذا يقول؟

ـ يقول إنه يود أن يجرب خنجره في كل هذا اللحم ويراه وهو يتقطع ويدمي ويتأوه!

توقدت في عيني السكران نظرة راضية ومد يده فتناول سيفه من الأرض وأداره في يده مستمتعاً بلمعان فولاذه المسقي:

ـ إذا كان قايتباي في غيبوبته لم يعرف أن المبايعة قد تمت لابنه بحضور الخليفة والقضاة الأربعة فكيف يعرف نوع الوسادة التي يموت عليها؟.. اذهبي فاسحبيها من تحت رأسه وهاتيها لننام عليها.. معاً.. الآن.. أنت في عمرك هذا أشهي من الصبايا.. ننام هنا.. على العرش.

هبطت عن العرش ورفعته من تحت إبطيه حتى أوقفته:

ـ خزانة البلد خاوية يا قانصوه.. خاوية!

ـ الذي سدد خطاي في يوم واحد حتى نجحت في المبايعة لابن قايتباي وسجنت تمراز وملكت الزمام قادر على أن يملأ الأيام نصراً والليالي متعة والخزائن ذهباً!

تنهدت المرأة في يأس هادئ نطقت مرارته في صوتها:

ـ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، هكذا سمعت قايتباي الحكيم يقول! أطرق الرجل ودعك جبينه بين يديه قبل أن يتكلم:

ـ الأمر أسهل مما تتصورين يا امرأة يا حلوة!

ـ عندك حلول جاهزة لمواجهة الجلبان واحتمالات عودة الحرب والطاعون؟

انتفض قانصوه عند كلمتها الأخيرة كالملسوع:

ـ الطاعون!... الطاعون!.. لماذا يحلو لك أن تكرري على مسامعي هذه الكلمة الفظيعة؟.. الطاعون انتهي.. خاف من معشوقك قايتباي الذي هزمه مرتين ومات وشبع موتاً.. ما هدفك؟ تحطيم نشوتي؟

ـ الطاعون لا يموت أبداً.. لا تصدق هذا ولا تبن على أساسه قلعة أحلامك فهو يختفي حقاً ويلبد في خبث إلى أن تحين له فرصته فإذا الفئران راقصة وإذا الوباء في الناس.. لكن مشكلتك الحالية شيء آخر.. مشكلتك الآن هي المال!.. المال!.. المال!

ـ المال؟!.. يكفي أن أزيد أشياء وأنقص أشياء!.. أنا عندي مخ!.. ومن الزيادة والنقصان يفيض السمن والعسل!.. أزيد في خراج الأرض وفي زكاة التجار وفي الجزية المقررة على أهل الذمة وفي المكوس على وفاء النيل وعلى بيوت البغايا وكل ما يتراءي لي أن أفرض عليه مكساً، وأنقص في الوقت نفسه ما لا داعي له من الجسور والترع والكتاتيب وأرزاق الولاة والقضاة والنظار والكتاب والحصون.. ولا تنسي فوق هذا كله أني أنوي أن أحتكر لنفسي المتاجرة في السمن والشمع والصابون والنطرون والشب والعسل والرصاص والحديد والزمرد وأشياء أخرى نسيتها الآن لكنها موجودة عندي في قائمة.. هل تبينت الآن أن الأمور ميسرة وأنه ما من عود غض تطوله يدي إلا وجدها اليد العاصرة؟

ولم ينتظر ردها، فقد اندفع مع الأحلام ولم يعد قادراً عليه إلا الأيام والليالي:

ـ واطلبي لنفسك ما شئت تجديه في الحال عندك! ماذا تريدين لنفسك؟

ماذا تريد لنفسها؟ هي نفسها لا تعرف الآن ما تريد، كل ما تعرفه الآن وتقطر مرارته في أعماق وجدانها هو أنهم كلهم هكذا، من لم تأخذه منهم العنة في المخدع فهو عنين إرادة وبصيرة، نهابون نهازون قصار النظر، بلا ضمير ولا ذاكرة، وخيرهم وأحسنهم يطوي كتاب أجله الليلة أو مع الصبح دون أن يعلم بالمؤامرة التي شاركت هي في تدبيرها وتنفيذها.. وهمست في إعياء وهي تنهض خائبة الرجاء من جلستها على درجات العرش:

ـ أنا راضية بمكاني في الحريم وبشعري في رأسي ناجياً من مقص الجلاد، وإني ذاهبة لأحرس متعة محمد وأجتر أحزاني!

ولم يلحظ حراس الممرات المتلاحقة ما طرأ على جلال مشيتها من فتور، لكن سندس أغا الرابض بالملعقة الذهبية عند باب السلطان المحتضر لم يكد يراها حتى فقد صنعة توقره:

ـ قهرمانتي! سيدة الأقمار وزهراء الشموس! ساعديني!.. أنا أحاول منذ صباحة ربنا بلا فائدة.. اقنعي المولي العظيم أن يشرب بالهناء والعافية بلسمه الشافي بإذن الله!.. أقبل قدميك!

لم تحتمل في هذا المقام ميوعته، كادت تصفعه، ضاقت بكلماته التي يريدها هفهافة مجنحة ويحسبها في الظرف آية، ولأول مرة منذ بيعت طفلة عند باب زويلة أحست سخف هذا الوجود الشاذ ووطأة الصوت الخليع المغثي:

ـ اسكت!.. ارحم الرجل!.. اذهب إلى جهنم تجد بابها مفتوحًا!

ـ كلكم اليوم تقولون اسكت يا سندس، وسندس معه حق لو بكي وناح واشتكي!

دفعته بيدها كما لو كانت تنحي عن باب السيد الذي تغرب شمسه عاراً لا ينبغي له في ساعته الأخيرة أن يظهر للعيان، ودخلت على أطراف قدميها فلم تجد عند الفراش السلطاني غير حسناء صغيرة من جديدات الجواري تحدق في الشعار الذهبي وهي تنهنه ببكاء خافت.

ما الذي يبكيك أنت الأخرى؟.. أخذن خواتمه كلها ولم يتركن لك زمردة ولا ياقوتة؟!.. وهمت أن تطردها لكن نظرة البنت المحزونة أشعرتها بخطئها، فهذه دموع حقيقية.. ما الذي كان لها من هذا الشيخ الفاني فهي تبكي عليه بكل هذه الحرقة الصادقة؟.. كلمة طيبة قبل أن يهد المرض شيخوخته؟... هدية خفية لم يدر بها أحد؟.. لمسة حنان من كف مرتعشة؟.. ومدت يدها فلمست شعر البنت الذهبي في رفق نادم بليغ، فنكست الشقراء الطفلة رأسها وهي تمسح خدها المبتل بأصابع يشع بياضها المنور:

ـ تركوه وحده.. كلهم.. كلهن.. السيد اللطيف الكبير.. وحده!

تحركت اليد العصبية فوق الملاءة بانتفاضة عفوية وخرجت من بين الشفتين الذابلتين همهمات مبهمة، فانحنت القهرمانة على أذنه في انعطاف:

ـ مولاي؟ أتسمعني يا مولاي؟.. أ نا جلبهار عبدتك.. جلبهار.. هل تريد شيئًا؟

لكن الرد المتقطع كان هذياناً متحشرجًا:

ـ سلطان غيري.. لا فائدة.. أخلع أمامكم رداء السلطنة.. الراحة.. الشمس.

وسمعت الصبية الوفية شهقته، ورأت قهرمانتها تمس الجفنين بلمستين سريعتين من أصابعها وهي تستسلم للحزن فأطلقت عويلها المحتبس وناح فيه ضياع موج.

وأقبل الأغا مهرولا لكنه قبل أن يعوي عاجلته ضربة من قدم جلبهار أطارت من فوق كفه حمله الذي شغل به يومه من الصباح إلى المساء، وصرخ فيه صوتها الكاره الممرور:

يا بليد! خذ لنفسك ذهب الصحن والملعقة واغرب عن وجهه! قد أراحه الله إلى الأبد من وجوهكم!

ومدت يدها تسند الصّبيّة.

(٤)

عادت العصارة تعصر، وفي هذه المرة كانت عصبة هي التي زأرت في وجه أتابك العسكر لتنهاه عن أكل اللقمة وحده، على حين كان ابن قايتباي إذا سئم فحش الجواري يتنكر مع غلمان له في ملابس الحرافيش ويترك لقانصوه هموم السلطنة ويهبط على ليل القاهرة ومراكب النيل وغرز الحشيش وما على الأرض غيره.

لكن الأتابك قانصوه وظف سيفه في قمع الفتنة، ثم في ساعة انتصاره أخذته عزة الليث الغضوب فأعلن أنه عزل الولد محمد، وأنه هو قانصوه السلطان والسيف على وريد من لا يقبل الأرض، وأطلق المنادين يزفون إلى دود الأزقة أن مجلس المشورة بحضور الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة قد أقر الإعلان وباركه!..وأخذته الحلقة الجركسية في طحنها المخيف بادئة برفعه في مسقط النور على الأريكة المملوكية ثلاثة أيام بلياليها لم يترك خلالها للمتوكل فرصة إراحة أعوامه الثمانين في بيته الخاص داخل الحوش السلطاني، ولا استراحت فيها عمائم قضاة المذاهب الأربعة عن اهتزاز الموافقة وبسملة الارتياح، ثم دهمه غروب يومه السلطاني الثالث بالحصار وعنده أوراق يمهرها بالخاتم السلطاني، من زيادة نفقة المتـوكل إلى هبة لكل عمامة على حدة!

ومرة أخرى ناحت الجواري ونهنه الطواشية وانكمشت بهجة ذيول الطواويس في البساتين المعلقة وتلفتت الظباء بالقلق المتجدد في عيونها الجميلة، مرة أخرى برز حصاد دكة المماليك كالأنياب المتراصة حول القلعة، وجاءت الخيول والسيوف على رائحة الفريسة التي كان الخليفة الشاكر والقضاة الحامدون ما زالوا في حضرتها السنية! وداعًا قلعة الجبل لا شبعنا منك ولا شبعت منا! لم يكد يلمع في سمائك نجمنا! لعل وراء أسوارك مخبأ في هذه القاهرة الغامضة حتى نزن الأمور وندبرها.. لم يطولوا بالهم علينا أبناء الزواني!

لكن الجراد الذي اقتحم القلعة كبسه في قاعة العرش وبين يديه العمائم الخمس التي نطقت كبراها زاعمة لنفسها شيئًا من الحق في الكلام والفتوي:

ـ نتفاهم.. وأمرهم شوري بينهم.

ضحك الـدوادار الثاني طومـان باي من هـذا الشيخ المخـرف الـذي لا يزال في شيخوخته الأخيرة يبحث عن زيادة النفقة ويسأل عن أسعار الجواري، وتقدم من الخليفة ولكزه بطرف خنجره في عمامته التي تشبه وردة بيضاء هائلة.

ـ خسئت يا أبا العز!... أي مزمار لم ترقص عليه؟

وتفتحت ورود أربع أخرى هاوية من فوق رءوس القضاة إلى أطراف البساط المترامي أمام العرش الخالي.

وعاد المتوكل يستجدي ناشراً أمام الفجار رايته الصورية الهزيلة الممزقة، مقام الخلافة، وتسابق القضاة في شتم المارق ابن المارق قانصوه الذي كان يمسكهم في حضرته بالقوة ساعة بعد ساعة، الزنديق عدو الإسلام مفرق الكلمة.

والكرسي المملوكي الخالي شاهد بمله الصامت على المعركة بين العمائم والخناجر، ثم ينظر في قانصوه الذي كاد خلال الأيام الثلاثة الأخيرة يحطم قوائمه بانبعاجه عليه ونفخته فيراه حقير النفس في ركوعه الذليل بين مراكيب المماليك، وتكاد قطيفته تنشق من غيظها وخزيها.

ـ ماذا تنتظر؟!

ـ لنوسط بالسيف هذا اللئيم الذي غدر بمولانا محمد بن مولانا قايتباي.

ـ عطر الله ذكراه!

ـ نذبحه وحده؟!.. وهؤلاء الذين لا يفرغ جرابهم من الفتاوي كما لا تسلم أكمام الحواة من الأرانب؟!

ـ معه يذبحون!... رءوس حان قطافها!... لا تضيعوا وقتًا.. نريد أن نشوف شغلنا!

واقترح صوت في الزحام أن يكون الأمير طومان باي خادم السلطنة الأمين ودوادارها الثاني هو حامل البشارة إلى السلطان محمد، لكن القاضي الحنفي كان قد اهتدي هو الآخر إلى فكرة قد توقف حكم الموت:

ـ الحياة والموت بيد الله ولكل أجل كتاب، لكن من واجبي أن أنبهكم إلى شأن ذي خطر أراه غائبًا عنكم.

وعندها ضاعف المتوكل من توسلاته وسط الوحوش المسلحة الهائجة:

ـ نسمع كلام الشيخ بالصلاة على النبي!.. صلوا على طه حبيبكم.. رسول السلام.

مرت لحظة جليلة الخطر وإن تكن بالغة القصر، ثوان من التردد بين دفعة الدموية الجركسية الحامية وفطرة الاحترام للّحَي البيضاء والعمائم الكبيرة، ثم غلبت الفطرة مستعينة بدوار الحيرة فتطامنت الأصوَات من نفسها، وتهلل المالكي والحنبلي والشافعي واستبشروا الخير من حكمة رابعهم التي برزت بالرغم من رهبة الساعة.

ـ يا شموس الوجود النيرة! هل يعود محمد إلى أريكته بغير بيعة؟!

والجهال خيالة المحافل حارت ألبابهم وهم يتساءلون في تميع مضطرب عن هذا المطلب الفقهي الذي لم يخطر على بال أحد منهم ولا كان له وجود في اعتبارهم وهم يتنادون ويزحفون، فانحني القاضي الحنفي وتناول عمامته وأصلحها وأعادها إلى رأسه دون أن يقف

في سبيلها خنجر أو تعترضها إهانة، ما أسرع ما عادت سائر الورود البيضاء المتفتحة على البساط عمائم سوية كريمة تزين الرءوس، إلا قانصوه ظل في ركوعه، لا عمامة ولا كرامة.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أفصح أيها القاضي!

هو لا يزال قاضياً إذن وفي الوسع التحول بحكم الإعدام إلى ما فيه النجاة إن شاء الله، فهذا الذي يستحثه هو الدوادار نفسه، طومان باي عظيم المكانة وحامل البشارة.. والشيخ الآن يتمشي مُجبراً الحلقة المحكمة على أن تعيد تشكيل نفسها في شبه صفين متقابلين، فأشار إلى قانصوه في ذلته:

ـ عندما نفخ الشيطان في صورة هذا الزنديق عدو الإسلام والمسلمين وطاوعته نفسه الآثمة على عزل غرة الجبين وزين البنين مولانا، ابن مولانا محمد بن قايتباي، نضر الله أيامه بالإقبال وعطر لياليه بالرضا، ماذا فعل الهالك ابن الهالك؟ جمع مجلسنا ووقع سيدنا الخليفة كما وقعنا على الوثيقة.. وعودة سراج الأمة المنير محمد بن قايتباي إلى العرش تجديد للبيعة يقتضي حتماً تحرير وثيقة جديدة، وتوقيعات شهود وثيقة المجلس الأسبق على وثيقة المجلس الجديد لازمة لصحتها لزوم الحتم الذي لا مهرب منه، ولقد كنا والله مجبرين على ما فعلنا والعفو شيمتكم أهل السماحة ومصابيح الدياجير وهداة الوري.

تشاورت الخناجر وتعانقت العمائم متساندة في نشيد جماعي يدلك الأعصاب ويلهب الفكرة.. وهلل المتوكل وكبر ودعا الله أن يكون المجلس الجديد فاتحة خير على البلاد والعباد.

وسجد قانصوه عند مركوب طومان باي:

ـ أنا في عرض الدوادار، وأكون أقل خادم عند ركاب حصانه!

رفسه الأمير في هامته المنكسة والتفت إلى العملاق الذي رفع قانصوه من قفاه:

ـ وسطه بسيفك في الحوش وسلم رمته لجبانة الصدقة!

وشيع المتوكل عويل سيد الأمس بلمسة خليفية أخيرة:

ـ هذه عاقبة من يجبر خليفة المسلمين وقضاتهم على ما هم له كارهون، وبئس المصير!

وتنادت الخناجر بإعداد القاعة لمبايعة السلطان محمد للمرة الثانية، وأغمد طومان باي سيفه:

ـ إلى أن آتيكم بالسلطان يكون أحدكم قد أخطر الأمير أزبك في بيته حتى يحضر مجلسنا.

تقدم أحد رفاقه متطوعاً، لكنه تردد لحظة قبل أن يقول وعينه على وجه طومان باي:

ـ أستأذنكم في أن يكون أول ما نسأل فيه السلطان هو إخراج الأمير تمراز من سجنه وإعادته إلى أتابكية العسكر، فلا حاجة لنا بحرابة جديدة على المنصب.. وأنا أعلن أنه أصلح له مني!

لم تطرف عين طومان باي الذي أجاب في هدوء وهو في طريقه إلى الباب:

ـ أنا والأمير أزبك لا مطمع لنا في المنصب وغرضنا خدمة البلد، وسأكون بعد تجديد البيعة أول من يطلب إعادة الأمير تمراز.

ـ لننظم أنفسنا لاستقبال زين الشباب وتقبيل الأرض بين يديه المباركتين!

ـ عاش السلطان محمد!

ـ وأمرهم شوري بينهم!

وهرش الخليفة المتوكل في لحيته البيضاء وتبسم بدهاء الحاوي الذي يتحسس كمه ليستوثق من وجود أرانبه التي لا ينقطع مددها، وقرأ الفاتحة.

(٥)

قرأت محسنة الفاتحة مترحمة على كل الأحبة الذين تخطفهم الزمن، ثم قالت للشيخ عند حائط الطاحون:

ـ تعيش يا سيدي المرعوش.. أمم تزول والهم ما يزول؟

وكانا في لحظة مريرة قد غمرتهما ذكريات ست الكل وسليمان أبو طاسة والشيخ خليل وكل صرعي الطاعون القديم، وكانت المرأة الطيبة التي فقدت في حدود الأربعين كل ملاحة الشباب قد جمعت لأرانبها من شطوط الترعة ما عثرت عليه أناملها الخشنة القوية من يابس العشب، فجعلت تقلب بين يديها المعروقتين تلك الحزمة الضئيلة من الحشائش التي تضرب في خضرتها صفرة الموت، وتنهدت وهي تكشف مواجعها المكبوتة للرأس المطرق الكبير:

ـ أنا خائفة في هذه الأيام على عيسي يا سيدي الشيخ.. خائفة!

واهتز الرأس الكبير عندما سمع منها أنها تقوم من نومها في الليل على صوت زوجها الباكي وهو يطلب من الله الموت ويستعجل النهاية، وقال لها صوته الذي تشيع من نبرته الهادئة قوة خفية تنفث الطمأنينة:

ـ لا تحزني يا محسنة فإن زوجك في الخمسين أقوي من شاب في الثلاثين وسيخرج من بحور اليأس ولا يموت قبل أن تتحقق نبوءة سمعها منذ ثلاثين سنة ولعله نسيها!

كانت محسنة في حاجة إلى هذه الكلمات التي تعلقت بها نفسها الطيبة:

ـ نبوءة؟... إنه لم يحدثني أبداً عن نبوءة.. وحياته في مصر ـ قبل أن يأتينا حليق الرأس ـ شيء لا يحب أن أسأله فيه... كل ما قاله لي هو أنه كان يشتغل في الفضة والنحاس قبل أن يهرب من الظلم، ولا يحب أن يخوض في سيرته الأولى أحد.. لكن سمعته من أيام يقول لابنتنا نور وهو يحسب أني لا أسمعه: أنا رجل خائب، لم أصلح درويشاً ولا أراني أصلح فلاحاً.

ـ نسي عيسي والله نبوءة زليخة!!

ـ زليخة..؟! إنه لم يكلمني أبداً عن زليخة.. من هي؟

زادت الرعشة في يمني الشيخ وتناول بيسراه حزمة العشب اليابس وأدناها من أنفه وشمها في وجد كما لو كان ينشق منها رائحة الحياة نفسها.

ـ ولية من كنوز الله كان نورها يهدي الحياري قبل أن يشق قلبها سيف من سيوف الظالمين.

ـ وكانت تعرف ما سيحدث لزوجي؟

ـ كانت تعرف أنه سيأتي عليه يوم يلعق فيه الدم وهو ثائر مع الحق في وجه الباطل.

ـ الدم؟!.. يا حسرتا على رجالنا!.. العمر كله يسفون التراب ثم تكون النهاية أن يلعقوا الدم أيضًا..!

ـ هذا ما يعرفه قلبي كما كان يعرفه قلب زليخة!

خفق قلب محسنة البريء المؤمن، وخيل إليها أن الأفق الشرقي كله في تلك الساعة من بكرة الصباح قد تلون بحمرة الدم، وهمت ـ وقد جاشت نفسها بالقلق ـ أن تسأل مجذوب ميت جهينة أن يزيدها بيانًا، لكنه ألقي أعواد العشب من يده وقطع لهفتها بسؤال آخر من عنده:

ـ وهل سمعت رد البنية على كلمته؟

ـ نور؟ البنية المسكينة لم تقل شيئًا يا سيدي المرعوش.. صبت له الماء في سكون حتى فرغ من وضوئه وانسحبت بإبريقها، ربنا يكملها بعقلها!

ـ يا محسنة!.. ابحثي لعيسي عن شيء من الفرح!

كان وجوده المعمر يملأ قلبها بشعور من الرهبة، ذلك الجسد العليل الضامر الذي تسكنه الرعشة، والذي يكاد حجمه الضئيل في جلسته المسترخية عند حائط الطاحون يتواري تحت ضخامة الرأس المجرد من الشعر، واختلست النظر إلى ومضات عينيه اللتين تزهو ميت جهينة ببريقهما العجيب الذي اندلع نفوذه من الجيزة إلى حدود المنيا، لكنه أطال الصمت قبل أن يلحظها فجأة بنظرة تحتية كأنه يشفق عليها من سطوع النظرة كلها، وكرر نصيحته:

ـ يا محسنة! ابحثي لعيسي عن شيء من الفرح!

تنهدت المرأة كأنما يحدثها عن مستحيل بعيد المنال:

ـ دلني يا سيدي الشيخ على طريقة، فمن زمن طويل مات الفرح في دارنا.. لم يكن في الرجال من تعلو ضحكاته على طرقعة ضحكه، أما الآن فهو يشهق أحيانًا بالبكاء فأبكي معه دون أن أفهم سبب حزنه.. دلني يا سيدي!

فخاطبتها القوة المطمئنة في صوت المرعوش:

ـ لو أن لعيسي حفيدًا يضمه ويشمه لغلب ضحكه على بكائه، فلماذا تؤخرون زواج نور من الولد محمد؟

ـ والله يا سيدي أنا نفسي ومني عيني يتم الزواج اليوم قبل بكره!

بالكلمة انتزعها من رؤي الدم وهول النبوءة، ودفع بأمومتها في سبيل أقرب وأيسر:

ـ وعيسي أيضًا قال لي: إنه يريد عقد القران في الحال، فما المانع؟

جمعت محسنة ما نثرته يد الشيخ من أعواد الحشائش اليابسة:

ـ كلما كلمت أم محمد قالت إن ابنها لم يبلغ سنته الثامنة عشرة، وأن لكل شيء أوانه.. قلت لها: يا فاطمة الولد يحب البنت والبنت مائلة للولد ونحن أهل ولا داعي لحمل هم النفقة والمهر، لكنها لم تعطني للآن كلمة نافعة.

ـ لكن زوجها غالب قال لي ـ لما كلمته في الموضوع ـ إنه مستعد لكتب كتاب ابنه على بنتك في الحال، وأنه هو الآخر لا يفهم سبب تردد زوجته وأمها ست العيلة.

ـ البركة فيك يا سيدنا.. كلم لنا فاطمة وست العيلة واعط عيسي الفرح الذي تريده له.. أنا أخشي أن نصحو من نومنا يومًا أنا والبنية فلا نجده.. كثيرًا ما يقول لي: إن شيئًا في قلبه يدفعه إلى الهجرة.

لكن الرأس الكبير اهتز في يقين حاسم:

ـ لا تخافي ولا تحزني، فإن لرجلك في هذه الأرض وعدًا ولن تفلته هذه الأرض حتى تحين ساعة الوعد!

ـ هل تكلم فاطمة وأمها يا سيدنا وتفرح البنت ويهدأ الولد وينشرح صدر عيسي؟

تبسم المرعوش عائدًا بنظرته من الأفق البعيد وقال لها في صوت لين:

ـ انظري! هناك وراء حد الأرض البور!

جعلت المرأة من راحة يدها القريبة من جبينها سترًا فوق عينيها وهي تتطلع إلى حيث أشار الشيخ، فرأت في ظلال السنط النائية شخصين متقاربين تجمعهما مشية بطيئة، ولم يتبين بصرها الكليل إن كانا مقبلين أم مدبرين:

ـ شيء لا نعرفه في ميت جهينة يا سيدنا.. امرأة ورجل يتسكعان بعيدًا عن العيون في ساعة الصبح، بلا عمل!

ـ لا بصر لك ولا بصيرة يا امرأة عيسي!..هذا هو الحب طالعًا مع مشرق النهار.. الحب يا محسنة!

وفجأة اندفع القادمان في اتجاههما في عدو طروب.

ـ وأخذ حجمهما يكبر على صفحة الأفق ويملأها، ونظرة المرعوش تبارك يديهما المشتبكتين.

وما إن توضحت حقيقتهما للمرأة حتى نفضها الغضب ونهضت للقائهما ناسية مكانها من الشيخ المبجل:

ـ والله عال يا بنت عيسي!.. انفلت العيار ولم تعد تهمنا سمعة ولا يعنينا عمل على صباحة ربنا!

ودقت بقبضتها صدر الولد العاري من خلال فتحة القميص الواسعة، وهو يضحك:

ـ وأنت يا ابن فاطمة!... هل جننت؟... أين عقلك؟... وأين فأسك؟

كانا يلهثان، الصبية والصبي، متقاربين في العمر، وفي خد كل منهما نغزة لطيفة تختفي وتلوح مع خفقات الصدر وانفعالات الوجه، فاستحيت الصبية وانكمشت محتمية بالرأس الكبير الذي كانت تطالعها من عينيه بوارق من الرضا والانعطاف والحماية، وأسرف الولد في الضحك وهو يتلقي بصدره المنشرح لكمات المرأة الغاضبة، الأم المقدسة.

ـ فأسي في الدار يا خالة محسنة حتى تتفقي مع أمي على موعد كتب الكتاب، أما عقلي فهو كما تعرفون كلكم مع نور... والنجدة يا سيدنا!

تبسم المرعوش وهو يمسح بيده على ضفائر الصبية، وأهاب بالمرأة:

ـ أكرمي هذا الحب يا محسنة، فباسمه تحبل الأرض وتنضج الثمار ويولد من الخراب العمار.

توزعت نفس المرأة بين الغضب على الحبيبين والخشوع في حضرة الشيخ المبارك:

ـ ما يروح يكلم أمه وجدته!

أقعي محمد أمام المرعوش وكلمته رجولته المبكرة:

ـ أنا واقع في عرض سيدنا.. نور لمحمد ومحمد لنور، فما الداعي لهذا العذاب كله؟

ونطقت في عيني الصبية كلمتها المؤيدة لحبيبها، فأشارت رعشة اليد إلى محسنة بالصمت، وقال الشيخ للفتي بصوته اللين الذي يمسح على القلوب ببركته:

ـ اسأل عناد جدتك ورأس أمك الناشفة!

وعند كلمة الحق وجدت نور الجرأة على أن تهمس في حياء:

ـ كلامك يا سيدنا إن شاء الله يكسر الناشف ويفلق الحجر!

شهقت أمها ونهرتها متظاهرة بالهجوم عليها:

ـ اخرسي يا باكسة!.. لحقنا نطلع من البيضة!

ضم المرعوش البنية في حضنه المبارك وهو يتمايل مع ضحكاته المرحة، وسأل العاشق الصغير الذي يصدم الكبار هناءه بلا رحمة:

ـ هل كلمت أباك يا محمد؟

ـ وقال لي: إن مسألة المهر لن تكون مشكلتنا ولو شحذه لي من على الأبواب.. أما أمي وجدتي فليس على لسانيهما غير كلام النسوان الذي تعرفه، ولا مؤاخذة يا خالة محسنة.. نحن فقراء.. وسننا صغيرة.. والأيام مقبلة والصبر طيب.. شيء يقطع العشم يا سيدنا ويسد النفس!

قال الشيخ وهو يضع يده على كتف العاشق الصغير:

ـ لي شرط يا فتي قبل أن أفلق الحجر وأخبط دماغ ست العيلة في دماغ فاطمة!

نطقت فرحة مهموسة في صوت نور الطري الناعم:

ـ اقبل شرط سيدنا والنبي يا محمد!

وزامت أمها فسارع حبيبها إلى الكلام:

ـ شرط سيدنا على عيني ورأسي وأمره دائماً مطاع.

قال الشيخ وهو يدفعهما بيديه نحو الفضاء المترامي إلى الأفق:

ـ اذهب في الحال إلى الدار والفع فأسك واخرج لرزقك واجعل من العمل عبادتك حتى يتهيأ لك الخير وتحل بيديك ضفائر الحلوة.

ـ في الحال يا سيدنا.. يدك أبوسها.

ووثبت نور هي الأخرى خفيفة كجناح عصفور:

ـ يا امه افردي وشك خليها تفرج!

واشتبكت يدها بيد حبيبها قبل أن تفتح أمها فمها بكلمة واندفعا متشابكين نحو الأفق، فاستغاثت محسنة بشيخها في ضراعة:

ـ يا خوفي على البنت يا سيدنا!

لكن المرعوش الذي كان يشيع الحب البكر بنظرته الحانية غام وجهه فجأة كأنما سطع في قلبه مولد حقيقة كانت خافية عليه، وخفقت يده المرتعشة أمام وجهه وهو يهمس متأملا المعنى الخطير الذي انكشف له عنه الحجاب في تلك اللحظة وحدها:

ـ يا ولداه يا نور!.. يا ولداه يا محمد!.. يا رب سترك!.. يا رب سترك!

(٦)

خطف خالد نظرة إلى الشمس المائلة إلى الغروب وتوقف عن دهن حائط الطاحون بالطين، عندما عرف من فلاحة عابرة بحمل من أعواد الحطب أن أم حسن المريضة قد ساء حالها ويئس منها عوادها، وانصرف ابنها إلى تجهيز دفنتها، فترك قصعة المونة في مكانها ونفض عن صدر جلبابه الأسود لطخ الطين المتناثرة، وشطف يديه في مجري القناة القريبة ثم استهدف الناحية القبلية.

كانت العجوز المحتضرة قريبة إلى نفسه وكان منذ أيام يعرف أنها ذاهبة إلى ربها هي الأخرى كما ذهبت من عشر سنين ابنتها سكينة.. أين زمن جمعهما تحت سقف واحد!.. لو أن سكينة التي لم يطل عمرها أعطته الولد الذي كانت نفسه عندما تزوجها تائقة إليه، والابنة التي كان اسم عزة ينتظرها لوجدت أم حسن في لحظة موتها أحفاداً يبكون عليها.. إرادة الله أن يعيش مستوحداً ولا يكون له أهل ولا ذرية، وحتى في عصر الحروب القديم في الخيامية دخلت الإرادة الإلهية بيته وأخذت منه أخته عزة وألزمته العزلة.. ستموتين يا أم حسن، وستحملين غضبتك المعمرة المتزايدة الضرام وعمرك الناقم الصبور، وتتركين حسن والثأر والسكين دون أن تشربي من الدم الذي عشت ظامئة إليه، وأنت ذاهبة إلى عزة فسلام على عزة!

وفاضت أشجانه وهو يخترق الدرب القبلي الذي كان يتثاءب كله قبيل العتمة، وانحني ليجتاز باب الدار بعد أن انشق له جمع صغير وسواد من نساء الدرب كان محلقاً حول الباب في وجوم أخرس، وما إن اعتدل حتى رآها ممددة أمامه على الفرن وابنها واقف بين يديها ورأسه تكاد تلمس السقف الخفيض، وبقايا الشعر الأبيض الأكرت نافرة في رأسها، والجلد على عظامها قاسي الغضون داكن السمرة، لكن يدها البارزة العروق كانت تبدو متينة القبض على السكين.

ـ العوافي يا خالة أم حسن.

استجاب له كل ما تبقت له القدرة على الحركة في كيانها الضئيل، اليد العجفاء القابضة على السكين، والعين القوية التي مالت نظرتها نحوه، واللسان الذي وجد صعوبة موجعة في تأدية الرسالة الأخيرة:

ـ الحمد لله.. جاء بك.. لتسمع كلمتي.

ـ شدة وتزول، شدي حيلك.

تحولت نظرة المرأة القوية إلى ابنها وتصافح الرجلان،والكهل والشاب أمام الفرن الهامد لم يجدا حاجة إلى كلمة يقولانها تحت السقف القريب، والصلابة في وجه الشاب كانت وحدها ناطقة بجلال اللحظة وعظم وقعها في نفسه.. هو الذي يرى هذا السكين ويعرف مستقره الأخير، هو الذي سمع القصة قدر ما سمع من آيات القرآن وحفرها صوت أمه الحازم الدءوب في حبة قلبه.. وتبين خالد أنه يستروح منذ دخل عطناً بولي الرائحة، ثم فتنه التماع النصل الطويل الرفيع البراق إذ ترتفع به يد الأم في جهد بطولي بطيء، فتقدم منها وانحني على وجهها الصقري الضامر ويده الحانية تحاول أن تفك قبضة أصابعها العظمية على مقبض السكين:

ـ ليطمئن قلبك يا خالة أم حسن.. حسن رجل ولا كل الرجال.. والله منتقم جبار.. وحسن ليس وحده.. لسنا وحدنا.

تراخت قبضتها حتى انتقل السكين إلى يده، فأشارت بعينها إلى ولدها تأمره:

ـ تقدم واملك السكين.

تسلمه حسن من خالد أمام بصرها، وعاني لسانها العجز الأليم قبل أن ينطق:

ـ ارفعه.. دعني أراه في يدك.

وفوق رأسها رفع السكين حتى خطف بريقه بصرها، وقال لها بصوت مطمئن:

ـ استريحي يا امه، سأشرب ما لم تشربي!

نطق في مقلتيها فرح ناري قبل أن تسترهما بجفنيها وهي تحاول أن تفهمهما أن الموت بعد هذا العهد الأخير أهون:

ـ امنعا الدخول.. واجلسا.. لماذا لا تشعل الفتيلة يا حسن؟

لم يتحرك من مكانه بل أقعي لصق الجدار كما فعل ضيفه وتنهد في العتمة، ثم لم يعد بين جدران الدار الضيقة غير الانتظار الساهم والحشرجة الخفيفة والعطن المعتق، وكلما ثقل الصمت وجد حسن همسة، لكن همساته الأخيرة تاه عنها سمع خالد الذي كان استبطانه لنفسه في حضرة الموت قد بلغ الانجذاب والانعزال.

أينما تولي وجهك فثم وجه عزة، يداها في البحر المالح وقدماها في أرض الصعيد وملء البر أنفاسها الطاهرة.. ما أقدم الجرح الفاغر تحت الجراح المتجددة، وما أبعد عهد زليخة وزاويتها وكلماتها!

يا إرادة الله كوني مع سكين حسن وأنفاس عزة، فإن ثأر حسن لابن عمه بركات هو في الحقيقة ثأري أنا أيضاً وثأر البر كله.. وليكن هذا البريق في نصل السكين من بعض نورك!

حبكت الظلمة في ركن الفرن، ومط الزمن زحفه البليد، وخالد منعزل عن الهمس والحشرجة ومشدود إلى اليوم الأغبر من أيام الملتزم حمزة القديمة، يوم الولد بركات

وجده عبد اللطيف الأكتع، يوم الثأر الذي عاشت هذه الأم على إيقاد جذوته بين هذه الجدران المتقاربة من قبل أن يولد لها حسن.. يوم فاحت الرائحة وسهرت مصاطب ميت جهينة لتحكي ما عرفه الشيخ المرعوش عندما لبد في قمة الشجرة، وحكاية الملتزم الذي أمر ابنه إدريس بالسكوت على خيانة زوجته له مع الولد الصغير حفيد حارس الصوامع!

يومان أسودان يوم خطف ابن الكلاب عزتي الطاهرة، ويوم بركات عندما تفززت قيلولة ميت جهينة على جعير الأكتع الرهيب وهو يشق البلد في ركض مجنون من الصوامع إلى الأرض البور، ضارباً كل من يحاول إيقافه وعاوياً في وجهه عواءه الأخرس الجارح، هنا على خدي لطمني، لا قدر أحد أن يوقفه، ولا وسعه هو أن يكلم سائليه بكلام آدمي مفهوم.. رأيناه بأعيننا والمتاهات الرملية تلقفه وتغيب شخصه وتبتلع إلى الأبد صرخاته العاوية المخبولة.. وها هي من تحت الجلباب قنوات العرق الساخنة منسابة على ظهري وفخذي، وها هي ميت جهينة مثلي قد تركها عبور الجنون السريع مطحونة برعبها الجاهل.. آه!.. يا سيدي المرعوش نظرة!.. دعاء حائر من قلب امرأة في زحامنا المصدوم، فاستجاب له الرأس الكبير الأصلع كأنه نبع فجأة هو الآخر من ضميرنا.. وأري المرعوش يا أم حسن ينطلق من بيننا فجأة، كما ظهر، فتتبعه دقات قلوبنا في اتجاه الصوامع منتظرة عودته بالنبأ، ودون أن ندري يا أم حسن كان ابن عم ولدك، ابن أختك نفيسة، هو ما رآه لنا المرعوش من الشجرة التي تطلع منها إلى حوش الصوامع البحري، كما يجب أن يعتلي الشجر ويرى منه كل ما هو كائن على الأرض.

وأفاق خالد من ذهوله على يد حسن تهز ذراعه هزاً شديداً فالتفت إليه عائداً من حوش الصوامع البحري بقلب موجع:

ـ خير.. خير.. حصل شيء؟

ـ اسمعها.. أظن هذه هي النهاية.. يا أمي!

وانبعثا واقفين في لحظة واحدة عند الشهقة القصيرة التي لوت عنق المرأة، ووقف ابنها واجماً، وردد خالد الشهادتين ثم انحني على السكين الواقع من يد حسن وقال في هدوء:

ـ أغمض جفنيها حتى ألف هذا السكين في خرقة قبل دفنه، هكذا أحفظ سكيني من الصدأ قدر المستطاع.. فأنا الآخر عندي سكين!

وأمعن التأمل في وجه صديقه الشاب مستحضراً من مجموع ملامحه وجه بركات الصبي، نعم كانت لابن عمه نفس هذه الحواجب الثقيلة السوداء وعظمة الفك السفلي القوية البروز، ولو أنه عاش لكانت له أيضاً هذه العروق النافرة في المنحر يضرب فيها الدم، لكنه لم يعش؛ لأن الزوج المخدوع ابن الأكابر رأي أنه لا يحق له أن يعيش ونفذ ما رآه أمام جده المسكين، وعاد المرعوش من بعثته عاوياً كما كان يعوي منذ قليل شريد الأرض البور، فلما سكن عنه الروع يا أم حسن علمنا، وحق لك من ساعتها أن تشحذي سكينتك وتكوني أرض بذرة النقمة.. رأينا كلنا الفتى بركات مصلوباً على شجرة، دامي الفخذين فاقد الرجولة.

وكتم آهة حرقت صدره، والتفت إلى الجثة الهامدة على الفرن:

ـ مع السلامة يا أم حسن!

(٧)

خرج عالمه كله يودعه، وشيعته من الأبواب المتوالية الخفيضة حرقة البكاء والدعوات، وتهادي النعش في الدهليز الطويل المعتم إلى أن انحنت به أكتاف حامليه حتى خرجوا به من فتحة الحائط الحجري في نهاية عطفة النعناعة.

وقطعت الكلاب السائمة عند ناصية سوق الخيامية نباحها عندما هل الموكب الحزين، وزنق المكاريون حميرهم في الركن ليفسحوا له الطريق إلى المسجد، لكن الجنازة الكبيرة لم تلبث أن احتوتها رائحة عفنة وغض المشيعون من أبصارهم عابرين بالرمة المصلوبة والرأس المقطوع المعروض فوقها في قمة عصا مرشوقة في سور السوق، ودخل النقاش زكريا بكتفه في مكان صديقه يوسف الذي ظهرت عليه الحاجة إلى إراحة كتفه من ثقل خشبة النعش:

ـ من يومين وهذه الجثة معلقة ولا يفكر أحد في رفعها!

دعك يوسف كتفه وهو يمشي عن شمال صاحبه ولم يرد، ونفسه من أعماقها خالصة للكلمات الأخيرة التي خرجت من بين شفتي عزيزة المحتضرة ممتزجة بهديل الحمام في السطح فملأت قلبه من ساعة الفجر: «عجل بدفني.. وامنع مأتم الحزن وزيارة القرافة.. وخذ بالك من حماماتي وأكرمها.. لا تكون طعاماً لأحد!..».

اقتربت الجنازة من المسجد الصغير فاعتدل مجذوب أسود اللحية متكوم عند عتبات المسجد المهشمة واستقبلها بصيحة عالية:

ـ نورت يا سيدي الشيخ عباس! سلم لنا على كل الأحبة!

والهواء الذي خفق بصيحة المجذوب ملأه فجأة صهيل حصان أسود ظهر من وراء زاوية المسجد متفزز الحيوية تحت الفارس الأشقر الذي يعتليه في كبرياء مطمئنة.

وواصلت الجنازة سيرها وقد ارتفعت الأصوات كلها فجأة في توقيت دقيق مكررة عبارة واحدة ذات إيقاع سريع:

ـ هو الدائم هو الدائم، ولا دائم غير الله.

صوت واحد كبير تعالي مقبلا بهديره على عتبات المسجد فانتفض المجذوب واقفاً وتشنجت حركاته وهو يلحظ الجلب المتكبر الذي لا يريد أن يصبر حتى يفسح له في الطريق أو يلوي عنان حصانه، وأخذته جلالة انجذاب عصبي في صيحته الثانية فلم يفهمه أحد:

ـ علقة مكتوبة لك يا سيدي.. تطلع منها لا لك ولا عليك!

وكاد بوز الحصان يلمس جانب الجنازة عندما جفل فجأة من الإيقاع المتعاظم، ونطق الخوف في جحوظ عينيه وشب على أماميتيه خارجاً عن طاعة الجلب الذي هوت به البغتة من سرجه وطرحته على الأرض، فتطامن الهدير وتحطمت موجاته، ووثب مجذوب العتبة وثبة خارقة جعلته أقرب الجميع إلى الحصان المهتاج والجلب المتوجع في نهوضه الأليم الناقم.

وبلغ من عمق لحظة السكون أن سمع زكريا من تحت النعش همسة يوسف:

ـ يا فتاح يا عليم!

ودخل كتف آخر تحت الخشبة في مكان كتف زكريا الذي شعر بضرورة التفرغ للمصيبة التي لم تكن على بال أحد، وتقدم مع يوسف نحو ظهر المجذوب الذي كان يخاطب المملوك المتوحش مطالباً يده المرفوعة بالكرباج أن تجنح إلى العفو وتحترم الموت:

ـ نتقدم لك بالأسف ونمسح لك التراب عن هدومك معتذرين عن غلطة الحصان!

لكن الوحش هجم، في اتجاه النعش.

مزق الجلود بلسعات كرباجه المحنقة الفظيعة ولم يهدأ غله إلا بعد أن أصاب النعش نفسه، وعندها تكوم فجأة على الأرض تحت ثقل المجذوب الذي ركبه في وثبة أخرى وقبض على معصميه وكتم أنفاسه في التراب وهو يزعق في أنين المجلودين من حوله:

ـ علقة ومكتوبة يا شيخ عباس!.. علقة ومكتوبة!.. لكن دبروني يا خلق الله.. هل أظل إلى ما لا نهاية راكباً؟!

كان يوسف ممن أخذوا نصيبهم وفي ذراعه خط دام طويل هابط في التفاف ثعباني من استدارة الكتف إلى قرب الكوع، فقال له صديقه الأحمدي وهو يتأمل مشاركاً في الألم تلك اللسعة الخبيثة التي مزقت كم الثوب:

ـ بعد الدفنة تسقسقها لك مكاسب بالمية والملح.

لكن فكر يوسف كان مع المجذوب في سؤاله الذي لا يحتمل الرد عليه مهلة، بعد أن برزت حول المشهد كل تلك الوجوه المستطلعة:

ـ لنتصرف بسرعة.. حقاً ماذا نحن فاعلون بالجلب؟

والنعش على الأرض تحت عتبات المسجد والمجذوب راكب والجلب تحته يرفس جاهداً أن يخلص ذراعيه الملويتين وراء ظهره في قبضة الراكب، والحصان يصهل في رعب وهو يتواثب مجبراً عصابة من الصبيان والبنات على الفرار، فارتفع من حلقة الفضوليين صوت هادئ يعرض فكرة:

ـ ليس لنا خيار، فإن تركناه حياً عاد بالزملاء المسلحين ولم يتركوا في الخيامية حجراً على حجر.. ولنعجل حتى نلحق الدفنة قبل الصلاة، ولا من شاف ولا من دري.

صارت الهمهمة زمجرة، وتشاور زكريا ويوسف وهما يحفان بالمجذوب:

ـ نعم، يختفي ابن البهيمة وننكر عند اللزوم أننا شفنا سحنته.. نصيب ووعد يا شيخ عباس!

ـ ليكن ما يكون.. هذا هو الحل الوحيد فعلا يا زكريا.

الحل الوحيد؟.. لكأن الكلمة نابعة من عمره كله، من جذور صباه الغضة في بركة الحبشي، نفس الحل القديم يوم ذبح الشيخ خليل ـ الله يرحمه ـ المملوك ـ الله يجحمه ـ الذي أهان عمامته.. لكن صوت زكريا رده إلى اللحظة الراهنة وخطرها:

ـ سأقوم باللازم مع المجذوب حتى تصلوا على الميت، لأن ابن اللئيمة يرفس مثل البغل المتعافي وأنت موجوع الذراع.. ولن نغيب، فلا تبطئوا في صلاتكم!

وبكي يوسف في دخول المسجد وهو يذكر حمائم الشيخ ونفسه متسائلة في قلق إن كانت مكاسب في حزنها قد نسيت أن تطمئن على وجود الحب والماء عندها في غية السطح.. نصيبي معك هكذا يا شيخ عباس.. في صباي تكسر لي ذراعي، وفي جنازتك يتمزق جلد الذراع نفسها!.. الله يرحمك يا رجل يا طيب ويرحم زليخة التي مسحت على قلبك بنورها وجعلتك منا.. الآن تذهب بلا ديون.. أنت الآن بعد أن أخذت آخر لسعة كرباج في الدنيا عزيز مكرم.. وذكر الحمام الأبيض الذي جبرت كسره بمعجزة الحب يطير الآن يا عمي آمنًا وداعيًا لك مع سربه.. وما إن فرغت صلاة الميت وخرج النعش والمشيعون حتى عرض عليهم الشارع هدوءه الخالي إلا من غلام أعرج تقدم بطاقيته المزركشة بالفاسوخ وعكازه القميء وقال لمقدمة الجنازة:

ـ البقية في حياتكم!

ـ أين الناس؟

ـ لم نر شيئًا، فاطمئنوا!

ـ وأين ابن الملسوعة وحصانه؟

ـ الشيخ أبو ذقن سودة وصاحبكم الأحمدي غطسا بهما تحت الأرض.. وأنا وأهل الخط لا سمعنا ولا شفنا.

قبله يوسف في خده القذر، وتحركت جنازة الشيخ عباس في اتجاه القرافة. وظهر زكريا بعد الدفنة وانشغل من جديد بجرح صديقه:

ـ مية وملح رشيدي.. علقة مقسومة يا يوسف كما قال أبو ذقن سودة!

كان يمشيان وسط العائدين من القرافة وهمساتهما مكتومة:

ـ أين الجلب؟.. والحصان؟ طمئني.

ـ عند الذقن السوداء.. اطمئن.

ـ لا خوف عليك؟

ـ وراء المجذوب عزوة وعصبية وعهد منظم.

جمع يوسف كمه الممزق حول ذراعه:

ـ طلع لنا من تحت الأرض بحصانه وكرباجه وشره!

ـ ونزل تحت الأرض بالكرباج.. أما الحصان فإن ثمنه في سوق إمبابة ينفع هؤلاء الناس.. أنا عدت من عندهم أثبت قلبًا.

ـ بعد أن تهدأ الحكاية ـ إن هدأت ـ نأخذ بعضنا ونزورهم.

ـ إن شاء الله.

وطال سكوتهما إلى أن ظهرت لهما حارة النعناعة فقال يوسف فجأة:

ـ زمان مكاسب أماتت نفسها من العياط!

تبسمت الأعماق الساكنة في عيني زكريا عندما أحس السرعة المتزايدة في خطوات صديقه التي ألهبت حماستها صورة امرأته الغريقة في دموعها، وأوصله إلى بابه وتركه عنده مع كلمة أخيرة طيبة:

ـ ترفق بحزنها رفقها بجرحك..!

لم تتحرك عند دخوله، فجلس أمامها وهي تستنفد في الركن بكاءها الصامت مسندة رأسها إلى الجدار، وأخذ الوجه المحبوب بين يديه في حنان:

ـ هوني عليكي فقد دخل الشيخ الجنة!

ـ تذكر الحمامة البيضاء؟.. رافضة الأكل ومنزوية في ركن العشة!

رفرفت حول خديها المتوردين من أثر الانفعال الحزين روحه المجنحة بالعشق، وملس بيده على شعرها، لكن حسه الباطني بعدم ملاءمة اللحظة للقبلة دفعه إلى النهوض من أمامها، وقصد المسمار الكبير فانتزع جلباب البيت الممزق والطاقية من كومة الهدوم المعلقة عليه، وحاول في رفق أن يحرك جمودها:

ـ سمعت النسوان قبل خروج الجنازة يتكلمن عن مشكلة البنت زينب.. هل تم جمع المبلغ؟

تنهدت مكاسب وقسرت نفسها على الكلام مبدية فهمها لغرضه:

ـ تقول أمها إنه لم يبق غير ثمن المسندين واللحاف.

رحب بخروجها من قاع الحزن المضني وعاد إلى ركنها وهو يسوى طاقيته على رأسه وجلس بجانبها دون أن يلمسها:

ـ كنت أحسب أن ما أعطاه لها المرحوم الشيخ عباس سيكفي شوارها، لكن الدنيا تزداد غلاء كل يوم.

نهضت مكاسب وسحبت مشنة الخبز من تحت الدكة:

ـ لا بد أن نعمل جمعية ونلم لها الباقي حتى يتم زواجها في الميعاد.. زينب بنت حلال، وعليها خرطة جسم تجنن.. عوراء لكنها جوهرة.. ويا بخت عريسها بها.

قال لها قبل أن تكشف الخرقة عن وجه المشنة:

ـ لا نفس للأكل!

ردت المشنة إلى مخبئها وعادت إلى جانبه في سكون قبل أن يسمع مرة أخرى تنهدتها:

ـ الإحساس بوجوده الدائم في أعلى البيت كان له طعم.. لا أصدق أن حياتنا خلت منه.. الله يرحم أيامه.

امتدت يده مرة أخرى إلى شعرها في لمسة رقيقة وهو يتشبث بجهاز الجارة العوراء البائسة التي وكلت إليه نفسه مهمة التسامي على الأحزان:

ـ كل هذه الهموم من أجل حصيرة ولحاف ومخدتين وحلتين وطبلية وأذرع من القماش.. يا ولداه يا بنت رحيمة المغسلة!.. هذا والبلد كله يتكلم عن الأمير الذي استصغر جهاز عروس ابنه بنت الأمير الآخر.. هل حكيت لك الحكاية أم نسيت؟

ـ نسيت مثل عوائدك!

الآن تطوق ذراعه كتفها، وهي أقل سهومًا، وقد لحظت الارتياح الذي ظهر في وجهه فأكدته بميل خفيف من خصرها نحوه:

ـ تقول إن والد العريس استصغر الجهاز؟

ـ وحصل زعل جامد!

ـ لم يكن الجهاز من مقامه؟

ـ لم يكن غير حمولة أربعمائة جمل وبغل وسبعة قناطير من الذهب في الملابس والمصاغ!

شهقت مكاسب وصارت نفسها متأهبة لحكاية طويلة، ورضيت نفس يوسف وهو يدخر لوقت الحاجة حديث سقسقة الملح الرشيدي وجرحه الذي سيعتصر كل اهتمام الغالية.

(٨)

كانت الليلة من ربيع الثاني آخر ليالي مولد الحسين، فتكفلت أرض القاهرة بحلقات الأذكار وأوكار المجون على حين تزاحمت الأشرعة البيضاء على صفحة النيل، وعبقت المراكب بعناقيد الأزهار، وتوقد النور في آلاف الفتايل العائمة في قشور البيض، وصاد غلمان المراكبية الرقعاء في خليج الزعفران قفشات المساطيل وضحكات المخمورين، وباعوهم الأفيون والحشيش والجبن المقلي والحلوي الملونة والشذوذ.

وفي واحدة من المراكب الصغيرة جاوب الأرغول الدربكة وانسجم الطار مع الباز ونصبت صينية كبيرة لقلي الجبن وتجمعت عندها عصبة من الفتيان المرحين حول الولد الضحوك الذي ينادي على بضاعته كلما اقترب شراعه من إحدي المراكب الهائصة:

ـ المقلي!.. المحمص!.. ذق وتمتع!.. مدد يا حسين مدد..!

كانت سمنته المدملكة تترجرج في ملابس أولاد البلد الجديدة الحسنة التفصيل على جسمه المتعافي، ونظافته مشرقة وبشرته متوردة، وكان رفاقه الشقر غلمانًا في مثل يفاعته لابسين لبسه ومقلدين فعاله، وكان سعيداً بمشاركة المراكبي المسيطر على الدفة بيده السمراء الشابة في النداء على بضاعة السفينة:

ـ يا جوعان جرب بنفسك وادعي للمعلم محمد سيد المعلمين!.. قرب يا عاشق الجبن المقلي!.. قرب يا جدع!

فتن المعلم محمد الصغير بخفة المراكبي فترك الصينية لرفاقه يزفونها على وجه النيل بالباز والطار ودنا منه، على حين كان الشراع نفسه يدنو من مركب تتوقد في قلب حلقة راكبيه جمرات موقد كبير، ويطاف عليهم بجوزتين تنشران من حول المركب كله العبق المعهود في ليالي المواسم، فصاح المراكبي موجهًا نداءه إلى أهل الغيبوبة الصامتين صمت العبادة:

ـ الجبن المقلي أطعم من الضأن المحمر، يا نائمين في الليالي وحدّوه!

مرت سفينة الغيبوبة دون أن توحد الله، والتفت بائع الجبن الوجيه في غضب إلى أحد رفاقه عندما وجده لابداً في كعبه في غيرة ظاهرة من استلطافه للمراكبي وانجذابه إلى روحه الخفيف وفتوته البارزة:

ـ طرخان!.. الزم مكانك عند قروانة الزيت أو أخاصمك والنبي ولا أصحبك بعد الليلة في سهري!

خضع الغلام للأمر وتأود مغضباً ومط شفته في دلال وهو يخطو على حذر في قلب المركب عائداً إلى ركن العزف والمناداة والصخب، فاستقبله ضارب الدربكة الخليع بغمزة في العظم:

ـ سلم أمرك لله يا طرخان، فالليلة من نصيب الحرافيش!

وانحشر بينهم معتما ومعرضاً عن المشاركة في الضحك والتهام الجبن المقلي اللذيذ، فطعنه عازف الأرغول بعد أن لعب له حواجبه ووسطه:

ـ الأيام مثل السلاطين دول!

طفح الدم تحت بشرة الغلام الغيران وغلبه القلق فالتفت برأسه نحو الدفة ورأي المضاحكة المتبسطة واندلاق الأبيض على الأسمر وجرأة الأسمر على الأبيض فزفر من الغيظ واستدار لجماعته السكري:

ـ زادها حبتين.. أول مرة قلنا نكتة وتفوت.. المسألة تكررت.. في مرة أخذ واحداً من هؤلاء الزعر معه إلى القلعة... وتضحكون يا أغبياء!.. لا بد له من واحد يحكمه!

نقر ضارب الدربكة نقرتين مرحتين وأبي أن يجد في الأمر ما يؤخذ مأخذ الجد أو ينزل بعد كل ما عب الكئوس من سماء المرح:

ـ أبوه نفسه يا سيدي أوصي قبل موته ألا يركبه غير فارس من فارسين، أزبك الخبيث أو قانصوه الخسيس، فدعنا في حالنا.. هذا الحظ كفاية علينا.. مزاجه يعمل بائع سوق، يعمل بائع سوق.. مزاجه يجانس المراكبية، يجانس المراكبية.. أنا مالي.. أنا مبسوط.. انظروا!.. ما أجمل هذه المستلقية في هذا الزورق يا ست!.. يا ست عندنا جبن مقلي يقول لفخذة الضأن قومي وأقعد مطرحك!.. جربونا يا أهل الجمال!

وعند الدفة كان المعلم محمد يسأل المراكبي:

ـ وكيف عرفتني؟

ـ وهل يخفي القمر يا مولانا السلطان؟.. أبوك الله يرحمه كان شمس البر وأنت قمر الزمان!

اقترب محمد بن قايتباي بكتفه من صدر المراكبي:

ـ اسمع يا مصطفي.. الليلة بعد أن أزهق من لعبة البيع سآخذك معنا إلى القلعة!

ـ القلعة يا مولانا؟ لماذا؟!

وشحب الوجه الأسمر وغاض منه الزهو والانشراح النفعي، لكنه حاول أن يسترد خفته التي أسرت لب سيد البلاد:

ـ هل في القلعة لا سمح الله مراكب وبحور؟!

ضحك السلطان الصغير واعتمد عند ميل المركب على كتف مصطفي الخائف بيد ثقيلة ملحة:

ـ لا.. لا تخف.. لن تجد هناك دفة ولا مجاديف.. أنا أحب السرور وأنت أعجبتني ونحن الآن صديقان.. أحب أن تتمتع معنا بليلة من لياليا في القصر.. واطلب من الآن ما تشتهي نفسك يكن طلبك مجاباً في الحال.. خذ هذا الكيس، تصبيرة!

التقط مصطفي الكيس منتفخًا ومَزْرُورًا على ما فيه، وحاول أن يشغل الغلام السلطاني عن فكرته:

ـ الحمد والشكر، لكن هل يأذن لي مولانا بسؤال واحد؟

جلس السلطان منحشراً مع المراكبي في دكة الدفة وطوق كتفه بذراعه وفاحت منه رائحة الخمر قريبة مغثية:

ـ ألف سؤال إن شئت.. ألسنا صديقين؟

ـ أية لذة تجدها يا مولانا في بيع الجبن المقلي مثل سريحة الموالد والتعرض للمخاطر بلا حراس؟.. هذا شيء لم أفهمه.. هل لك في هذا التخفي متعة؟

لم يرد السلطان محمد على السؤال لأنه شغل بمكايدة طرخان الذي كان من طرف المركب الآخر يتقلي مثل الجبن في الزيت، لكنه التفت فجأة إلى حبيب الليلة ووضعه أمام مسألة جديدة:

ـ هل سمعت عن القانون الجديد الذي زادت به المكوس على بيوت الدعارة أم لم تسمع؟.. وهل يسرك أن أعينك من صباح غد بين محصلي هذه الزيادة، فتلهف نصفها على الأقل لنفسك وتخرج من عند صبايا لعند صبايا، وتأخذ على هذه المتعة كلها جمكية شهرية.. فقط كن لطيفاً واقبل عزومتي الليلة.. سنريك أعجب رقص وتأخذ حظك من النعيم السلطاني وفي الصباح تستلم الشغل.. عندنا الجواري جميلات لا تصدق عينيك أمام جمالهن.. ستكون يا مصطفي ليلة العمر.

ـ لكني ـ وعفوك يا مولانا السلطان ـ نذرت أن أقصد على آخر الليل ضريح مولانا الإمام صاحب الليلة وأقرأ له الفاتحة!

ـ نقرؤها معًا عندنا.. أريد أن يراك طرخان ذاهبًا معنا فيطق من الكمد والحسرة، فساعدني يا صديقي أن أمزع قلبه!.. خلاص؟.. اتفقنا يا حبوب؟

كان الكيس قد دخل في عب المراكبي، لكن الرعب لم يخرج من قلبه.. يا خبر أسود!.. القلعة مع هؤلاء الـ... وفي الصباح أستلم الشغل أم يستلمني المشاعلي؟!.. يا رب دعه يعمي عني.. دعه يزداد سكراً وعربدة حتى يحمله أصحابه من المركب بلا إرادة ولا تحكم.. وأنت أعلم يا رب إن كان صحيحاً أن لذته العليا هي قطع الآذان والأيدي والألسنة بنفس اللذة التي كان يقطع بها منذ قليل شرائح الجبن السخنة!.. ألهمه يارب أن يأخذ عياله وكيسه ويذهب

إلى القلعة أو إلى جهنم.. مدد يا مولانا الحسين!.. كن معي يا ابن بنت رسول الله في هذه الزنقة حتى تفوت على خير.

(٩)

قال أتابك العسكر تمراز مداعبًا صديقه صاحب القصر، وفي الليل نسمة مائلة إلى البرودة من نسمات أكتوبر، مفعمة بأريج الصفصاف المنحني على ماء النيل في ضوء القمر:

ـ سبحان من يرث الأرض ومن عليها!

ابتسم الدوادار الثاني طومان باي ورد على ضيفه وهو يدخل معه خميلة الريحان:

ـ يا سيدي لا تعايرني ولا أعايرك!.. إن كنت استوليت على قصر خير بك فأنت تبلع كل يوم عتبة!

وفي ركن الخميلة كان ينتظرهما الأمير الذي تخفت الأصوات في حضرته من هيبة حكمته، فحياه أتابك العسكر بصوت خاشع:

ـ السلام على الأمير أزبك قاهر الأعداء وبطل الساعة!

كان أزبك يبدو في قلب الخميلة صقرًا عجوزًا شيخته الأيام وملأت بالغضون وجهه المهيب المشرب بحمرة دموية، فنحي مبسم النرجيلة عن شفتيه المدفونتين في بياض شعرات الشارب المتفشية ورد التحية بصوته الهادئ الوقور:

ـ اسمع يا تمراز! ما جئنا هنا ليمسح كل منا الجوخ للآخر، أين خال الولد؟

ـ هو في الطريق إلينا يا سيدي الأمير.. وقد أجهزت على ترديده فهو الآن جاهز للحركة، وإن يكن يسأل عن نصيبه من الفطيرة بعد خبزها..!

تفجر صدر طومان باي بالضحك عندما سمع كلمة الفطيرة، أما أتابك العسكر فجلس في الحال أمام الشارب الفضي وانهمك في نفض الرماد عن الجمرات قبل أن يتوج بها هامة النرجيلة، وعين الصقر الهرم ترمقه من فوق منقاره الذي يكاد طرفه المعقوف يغوص في شعر الشارب الكث:

ـ لماذا لم تجئ به معك؟

ـ يقول إنه جاء بأحد المشـايخ ليعمل له استخارة وأن المعمم يكاد يفرغ من عمله.. النار الآن على مـا يرام فشد النفس يا سيدي الأمير وتمتع!

غالب طومان باي الضحك وهـو صامد في وقفته عند مدخل الخميلة الفواح.. هذان هما منافساه!.. تمراز الذي يخلص في خدمة نرجيلة شيخ الأمراء، وقانصوه خال محمد بن قايتباي الذي يعمل استخارة قبل أن تسمح نفسه بمشاركتهم في القضاء على عهر ابن أخته

وشذوذه!.. أما الصقر فهو زاهد في الحكم، وكلما كلمه أحد عن كرسي السلطنة زام وأعرض بجـانبه واهتز منقاره بالغضب وهدد بالسفر إلى مكة!.. ما من ريب في أن الفطيرة، مخبوزة ولذيذة، ستكون كلها في النهاية من نصيبه.. وليست بعيدة ساعة المناداة به سلطاناً على البر، طومان باي أعز الله مجـده ونصر جنده وأطال عمره!

ـ وكانت ضحكته قد تحولت إلى ابتسامة رصينة عندما لحظته فجأة عين الصقر:

ـ بقيت نقطة لم تبحثها يا طومان باي فما قولك فيها؟

ولم يكن طومان باي يجهل هدف السؤال، ولا كان ناسيًا رده الجاهز المنتظر لساعته، فاقترب من النرجيلة بخطوة متمهلة:

ـ الولد يتحول إلى وحش حقيقي، ومن المصلحة إعدامه اليوم قبل بكرة!

أراد تمراز أن يتكلم فقاطعه أزبك بسؤال آخر موجه إلى طومان باي أيضًا:

ـ لكن أليس من الطبيعي أن يعارض الخال في آخر لحظة في قتل ابن أخته؟

ـ حتى إذا كان وقت ابن الأخت موزعًا بين سلخ جلود المسجونين وهم أحياء وإجلاس الضحايا على خوازيق معدنية محماة بالنار واصطياد الفتيان من الحواري؟

نفث الشارب الفضي الدخان على مهل قبل أن يضع اللمسة الأخيرة في سؤال الساعة:

ـ إني أسألك سؤالا: إذا اعترض قانصوه على قتل محمد فماذا نحن فاعلون بقانصوه نفسه؟

ـ إذن يلحق قانصوه الثاني بقانصوه الأول في راحة الموت!

لكن الأمير أزبك أرهف السمع فجأة كاشفًا وقع خطي مقبلة فوق الحصي في ممر الخميلة، فاندفع الدوادار الثاني نحو المدخل وتريث عنده برهة قبل أن تأتيهما همسته المطمئنة:

ـ هذا قانصوه وراء حاجبي، اللهم اجعل نتيجة الاستخارة على ما نحب!

وفي الحال تحققت أمنيته، واسترخت الأعصاب إذ كانت أولي كلمات الأمير المقبل عندما ضمه معهم شذا الخميلة:

ـ هلم بنا أيها السادة فالخيرة فيما اختاره الله!

لكنه لمح مبسم النرجيلة في قبضة الأمير أزبك فارتجف صوته وهو يستدرك في لعثمة مضطربة:

ـ بعد أن يفرغ الأمير من مزاجه بالهناء والعافية!

وكان القمر يشحب مائلا نحو الأفق عندما تجهزت حاشيتهم الصغيرة المسلحة للحركة وجاءهم العبيد بالخيول الأربعة، فقال أزبك بعد أن رفعه إلى السرج زنجيان فارعان:

ـ مسافة ما بين النيل والقلعة تكفي لطلوع الفجر، فلنسرع قبل أن يتكشف الضوء وتعسر المهمة.

والقاهرة في سباتها هادئة هدوء امرأة مفتوحة الذراعين والساقين مستلقية في عز النوم على ظهرها، وقباب القلعة ومآذنها مغلفة عن الأفق النائي بضباب البعد المبهم، والدنيا خريف صامت.

انفتحت الأبواب لخال السلطان وعصبته الموقرة باباً بعد باب حتى أوقفتهم بباب الحريم طلعة القهرمانة الرصينة:

ـ السلطان؟ في جناحه أيها السادة.. ومعذرة إن قلت إنكم ستقطعون عليه صفواً هنيئاً، فإن البنية التي عنده تحفة من تحف الإبداع الإلهي.

لكن الوجوه المتصلبة وغريزة الاستشعار الغامضة في أعماق الأنثي أنبأتها بحدث جلل، فدخلت عالمها المحجب وردت عليها بابه قانعة بالسلامة.

ولم يكن السلطان في مخدعه، لكن الأمراء الأربعة سمعوا صوته فجأة يأتيهم من شرفة المخدع المطلة على غابة الغزلان:

ـ فيم خوفك..؟ كل ما سأفعله هو أن أقطع لسانك الذي وشي بي وفضحني.. لسانك فقط والله العظيم.

وتقدموا إلى الستائر التي تفصل المخدع عن الشرفة فلمحوا صبية عارية خارقة الحسن تتوثب مخبولة برعبها بين جدران الشرفة، وكلما لطمها جدار ارتدت بعويلها حتى يصدها جدار آخر، ورأوا معها المسخ المفزع على حقيقته، شيطاناً مخموراً يتسلي برعبها، وفي وجهه الذي يمسحه ضوء القمر التذاذ وحشي.

ودفعها جنون الخوف في اتجاه سور الشرفة الخفيض حتى خشي الأمراء المختفون وراء الستار أن ينزع بها الرعب إلى الإلقاء بنفسها لتسقط صريعة وسط الغزلان التي تلتقط نظراتها صوراً زائغة لمرحها على الحشيش الأخضر، لكنها جبنت وهي تسمع مئات الأصوات الصاعدة في سكينة الفجر متجاوبة من مآذن القاهرة القريبة والبعيدة، فأسندت ظهرها إلى السور مواجهة الخنجر:

ـ الرحمة!.. الرحمة يا حبيبي!.. هذا غير معقول.. في أول النهار فرحت بي عندما قالت لك القهرمانة إنها دفعت ثمني لبدر الدين الياسرجي نصف ألف، وقلت لي إني فواحة الصبا.. أكاد أموت من الخوف!

سخن قلب طومان باي بالعطف على الصبية الحسناء المسكينة التي كان يفهم رعبها.. كيف يكون هذا الوجه المفترس هو نفس الوجه العاشق الذي استقبلها في أول النهار فملأت رقته قلبها بطمأنينة مستبشرة، عندما وجدت سلطان البلاد الصغير في مثل عمرها الغض، وعاشقاً يبلغ من هيامه بها أن يفيض قلبها بأحلام كبيرة، بأماني عمر طويل وهناء وأمجاد،

برؤيا مستقبل لا بد أنها رأت نفسها فيه أكثر من سلطانة، الكل في الكل، الشمس والقمر، الحكم والسيادة؟

ـ لكنك لن تموتي إذا تركتيني أقطع لسانك حتى لا يشي بي مرة أخرى. لسانك ترينه أمامك على الأرض بضربة واحدة من خنجري.. قد علمني المشاعلى كيف أفعل دون أن أقتل الشخص كله!

ـ أقسم!.. أقسم!.. لست أنا التي فضحتك عند القهرمانة والحريم. الكل عن شذوذك يتكلمون!.. الجواري والغلمان.. غلمانك الأصدقاء هم الذين فضحوك!.. أنا لم أتركك طوال اليوم أكثر من ساعتين!

ورأوه يقترب منها فامتدت أيديهم إلى مقابض السيوف دون أن يتحركوا كأنما سمّرتهم في أماكنهم تعويذة سحر نابع من فظاعة المشهد كله.. ورأوا الوحش يقترب من فريسته التي تلمع بشرتها الصدفية كلما عبرت المنطقة التي يغمرها نور القمر من أرض الشرفة، كما يلمع في يده الخنجر:

ـ لا تخافي على عمرك.. تعالي.. لسانك فقط والله العظيم.. تعالي يا حلوة تعالي.

كانت تنوح وهي تتفادي يده الممسكة بالخنجر، وكلما وسعها أن تتكلم سألته لماذا يكون في أول النهار في رقة النسيم وتكون له في آخره كل هذه القسوة.

فهمس أزبك وهو يلمس بكوعه جنب قانصوه الذي صار وجهه من الروع في بياض الشمع:

ـ ماذا تنتظر؟ أليس معك سيفك؟

لم يتحرك قانصوه، وجاء من الشرفة صوت المسخ المخمور:

ـ أخرجي لسانك.. وسأعود بعدها رقيقًا وعاشقًا..!

ـ مع خرساء؟! أريد أن أفهمك!.. أهي عقوبة أم لذة؟!

أدرك طومان باي الخبير بالنساء أن الصغيرة المزنوقة عند سور الشرفة قد أدركت بغريزة الأنثي أن إرادة معذبها التي بلغت أقصي مداها قد أخذت في الهبوط دون أن ترتوي، فأشار إلى أصحابه بالانتظار وهم يرون الغلام المتوحش يكاد يسقط من طوله لولا أن يسنده ظهر الكرسي الخفيض في ركن الشرفة:

ـ لننتظر برهة أخرى، فما أعجب محاورة الطفلة الداهية لمعذبها وهي تجهده معتمدة على سكره البين!

ووقعت لحظة سكون عندما انحط الحيوان السكران على الكرسي دون أن يقرأ ومضة الانتصار التي التمعت بين أجفان فريسته، ولا تبين مثلها أن السماء امتصت كل روعة الأذان.

ـ ماذا قلت؟!

ـ سألتك: أهي عقوبة أم لذة؟

ارتفعت حشرجة الأنفاس المخمورة في صدر المسخ السلطاني، والخنجر لا يزال في يده لكنه في وضع مستعرض فوق فخذيه، واليد مسترخية، كما لو كانت علامة على هبوط قواه المعنوية في تلك الساعة التي تطيب فيها لغزلان الغابة القريبة نشوة النشاط المرح، وجاء صوته متكسراً يتحسس المعاني في معاناة:

ـ اللذة؟..هل بقيت في هذه الدنيا لذة؟!

واستهول الأمراء مع الجارية ما تكشف لهم عند ذلك في ملامح وجهه من شبه عجيب بأقزام الملعب المشهور في تربيعة سوق النخاسين، لهم أجسام الصبية ووجوه الشيوخ وبرودة العدم.. وهمت الجارية أن تروضه بأنوثتها لكنه بغتها بسقوطه من الكرسي إلى أرض الشرفة، منهاراً في نوبة بكاء.. انتهي عصر الفرح!.. عصرت كل اللذات وهمدت نشواتي ولم يعد ينفع لبعثها حتى الكرباج.. الآن أشرب الخمر بلا نشوة وأتعاطي الحشيش بلا غيبوبة.. لا طعم لشيء بعد اليوم.. كل شيء بلا طعم.. في الشطرنج أنتصر فأقوم من أمام خصمي المهزوم كما لو كنت أنا الخاسر.. وهذا هو حالي في كل شيء.. في الصيد.. في السباحة.. في رمي القبق ولعب كرة الجوكان وفي سباق الخيول.. في ملابس الحرافيش التي مكنتني من الاندماج في حياتهم.. ذات مرة جاءني غلماني بقرد مدرب وطار وهدوم ملاعب من ملاعبي القردة، وجمعت من أهل الصنادقية والسكرية حفنة من الدراهم..رقصت مع الحرافيش والمجاذيب في حلقة ذكر عند سبيل ست الملك.. هللت لشاعر الربابة وأنا أذخن الحشيش في غرز تحت الربع.. تفرجت على بهلوانات الحبل وخيال الظل وضحكت على نكت المشخصين وتعلمت ملاعيب الحواة.. والمشاعلى علمني فوق هذا كله أن أوسط بالسيف وأعالج سأمي بتقطيع الأيدي والآذان وسلخ الجلد.. وقطع اللسان أيضاً ما أسهله!.. ثقي أن من يقطع لسانه لا يكاد يشعر بألم!.. تعالي.. اقتربي مني.. هاتي قبلة، لعل لها طعماً!

وبالرغم من سقوط الخنجر من بين فخذيه أحست الجارية الصغيرة عودة الفكرة الخطرة، فعالجته في حذر دون أن تدنو منه أكثر من خطوة:

ـ في كلامك كلمة لم أفهمها، ماذا عنيت بقولك إنك لم يعد ينفع معك حتى الكرباج؟!

لم يعد ينفع معه إلا هذا..!

صوت كأنه النجدة السماوية، ورأت الجارية السيوف الأربعة فسقطت على ركبتيها.. كأنما لم تكفها كل العجائب التي رأتها في أربع وعشرين ساعة بين دكة المماليك وقلعة الجبل.

وخرس لسانها بغير حاجة إلى قطعه وهي تشهد عمل السيوف السريع، وجمدت كأنها قطعة من السور وهي ترى الجثة الممزقة هاوية إلى الحشيش الأخضر الذي تواثبت فوقه الغزلان المذعورة ممعنة في الهروب.

وبكت بلا صوت عندما اهتزت لحسنها الشوارب الفضية الأمير الشيخ يستر عريها بعباءته الدافئة.

وهمس تمراز في أذن طومان باي وهما يمسحان الدم عن سيفيهما:

ـ الفطيرة استوت!

(١٠)

ـ مدد يا ساكن الشجرة!.. مدد يا ساكن الشجرة!

توقف العمل في عصر ذلك اليوم الخريفي واجتمعت ميت جهينة كلها برجالها ونسائها وأطفالها في زفة صاخبة عند جميزة الشيخ هريدي، وفي خلال ساعات قلائل كانت قد زحفت إليهم فيوض من الغرباء والفقراء والدراويش لا يدري أحد من أين أقبلت روافدها ولا كيف بلغها النبأ، وبلغ كبرياء ميت جهينة حد الانفجار والهوس.

وكان اختفاء الشيخ المرعوش صاحب الكرامة قد استمر يومين وطال البحث عنه قبل أن يشير طفل إلى قمة الشجرة المعمرة، وطلب غالب من ابنه محمد أن يتسلق الجميزة فوجد المرعوش جامداً في ميتته عند ملتقي فرعين وقبضته على أحد الفرعين قوية كأنه لا يريد أن يفلت ذلك المثوي الأخير الذي اختاره لنهايته وعلى وجهه ابتسامة راضية.

وخلت الحقول والدور من الناس، وفي ذروة الفرح العام بالكرامة التي رضي الله بها عن ميت جهينة عقد الفلاحون ونساؤهم وضيوفهم في ظلال الجميزة الوارفة مؤتمراً طال فيه الأخذ والرد وكاد يتحول إلى معركة بالنبابيت قبل أن يستقر الرأي على دفن ولي الله في بطن الجميزة داخل الفجوة التي تلتف حولها جذورها الهائلة، وما إن أعلن خالد القرار حتى جاء تكبير الرجال وزغاريد النساء بابن الملتزم من أقصي القرية راكضاً بحصانه ليستطلع الخبر.

ـ مدد يا ساكن الشجرة!.. مدد يا ساكن الشجرة!

أوقف حمزة بن إدريس حصانه على بعد قليل من الجموع الهائجة وهو يغالب رجفة الخوف التي تمشت في بدنه، ورأي الثوب العتيق المنشور عند أصل الشجرة على ما يشبه جثة طفل صغير، فأشار إلى فتي من الفلاحين في مثل عمره مر بالقرب من حصانه:

ـ اسمع يا ولد!

توقف الفلاح الشاب وفي وجهه نفور وألقي على ابن الملتزم نظرة خالية من الود دون أن يفتح فمه، فأشار حمزة إلى قلب الحلقة الهائصة بمقبض كرباجه وسأل:

ـ ماذا حدث؟ غريق؟

ـ لا.. لم يغرق أحد.. هذا يوم عيد!

ـ عيد!؟.. أليس هذا الراقد وسط الناس ميتًا إذن؟

ـ مدد يا ساكن الشجرة!

لم يشأ الفلاح أن يطيل في الكلام مع الفتى المتعاظم فوق سرجه المزركش، وما إن استدار عائداً إلى جماعته حتى برزت له فلاحة ضامرة العود هضيمة الوجه نارية النظرة:

ـ حسن!.. ماذا كان يقول لك الضبع ابن الضبع؟

ـ لا شيء يا خالة فاطمة.. لا شيء.. إنما يريد أن يعرف حقيقة هذه الجلبة التي أزعجت هضم والده.

توقدت في عيني المرأة الناحلة كراهية ساطعة وهي ترمي الحصان القريب وراكبه بنظرة ناقمة:

ـ أنا بريئة منك ومن ولدي محمد إن خاطب لسانكما بعد اليوم هؤلاء الأنجاس.. ملعون هو وأبوه إدريس وجده حمزة!

ـ كلامك يا خالة فاطمة يذكرني بالمرحومة أمي.. وبوصيتها في ساعة الموت.. تعالي لنحضر دفنة سيدنا.

وكان حمزه قد لوي عنان حصانه وانصرف بعد أن تبين حقيقة الاجتماع وتمت الدفنة قبيل الغروب، وقام حول الجميزة مولد عظيم، أنشد فيه المجاذيب الأشعار، وأكل بعضهم جمرات الفحم المتقدة، وتجمعت النساء وراء حلقة الذكر، وجاءت محسنة فمالت على أذن فاطمة:

ـ فاطمة يا اختي.. عندي لك كلمة.. لنبتعد إلى شط الترعة حتى نتكلم على راحتنا.

كانت فاطمة تعرف كلمة محسنة التي لا كلمة عندها غيرها فجمدت في جلستها وأشاحت بوجهها مضطربة:

ـ هل هذا وقتها؟

ـ وحياة بركة سيدنا المرعوش وليلته المفترجة يا فاطمة!

ـ أريد أن أري الرفاعي وهو يأكل الثعابين الحية.

وهمت محسنة أن تضغط على إرادة صديقتها عندما قامت ضجة عظيمة وأقبلت من مدق السواقي مواكب ضاربة بالباز والطار، وظهر في مقدمتها حصان أبيض:

ـ الشيخ الكبير وصل.. الشيخ الكبير وصل.

هللت الأرض من حول جميزة المرعوش، وجاوبت الزغاريد ضربات الدفوف، وتهادي الحصان الأبيض براكبه الذي أشرقت أساريره ونور جبينه، فألقت فاطمة في سمع صديقتها بكلمة مستعطفة:

ـ أنا ذاهبة معك يا محسنة، بعد دوسة الدراويش.. إني لم أرها في عمري كله غير مرة واحدة في صباي!

ـ آه يا اختي! نريد أن نفرح بالبنت والولد!

وعلى إيقاع كلمة «الله» أحاط بالجميزة المباركة رعد من ضربات الدفوف، وتقدمت موكب الشيخ الكبير طليعة من أتباعه الذين أخذوا ينبطحون على الأرض متلاصقين في شبه حصيرة مديدة الطول من اللحم الآدمي، بطونهم إلى التراب وظهورهم إلى السماء، وتقدم الحصان الأبيض في أناة وخيلاء فشبت ميت جهينة على أطراف أقدامها وخفق قلبها خفقة واحدة، وأشارت أصبع الشيخ إلى نهاية الحصيرة الآدمية الناطقة بلا انقطاع باسم الله فمر الحصان على مهل مرور نسمة ترد الروح، وكلما عبر مسافة نهض الرجال من تحت سنابكه خفافا سالمين، ورقصت خطاهم وراء شيخهم، مشرقين منورين.

وترجل الشيخ وترك عنان حصانه لاثنين من أتباعه وركع عند أصل الشجرة وقبل الطينة الطرية التي دهكت بها الأيدي السعيدة سدة قبر المرعوش المختار، ثم وقف واستدار مواجهًا ميت جهينة المجتمعة على نور الكرامة، وتوزعت حالات الانجذاب متناثرة بتشنجاتها خلال الجمع الكبير كرذاذ من الندي، وآمنوا تحت الشجرة بأن أرضهم بوركت وبشرت برحمة عاجلة وبورك في من عليها.

وتمشت رعدة ذات رهبة في أوصال من لم يبلغ مقام الانجذاب، ونشجت نور بالبكاء وراء الخص القريب دافنة وجهها في صدر محمد الذي كانت عيناه تناجيان السماء وفيهما شرارات أمل وفرح:

ـ فك عقدتنا يا كريم!.. يا رب فك عقدتنا بحق هذا النور كله!

وعرف غالب صوت امرأته عندما علت جميع الأصوات صرخة امرأة لم يسمع الناس مثلها من عهد الطاعون، فوثب إلى مكانها ليجدها متشنجة فوق التراب، كما رآها في العهد الأخير أكثر من مرة.. ولمح في الوجوه التي جاءت بها الصرخة لهفة إخوانه خالد وعيسي وحسن.. وأقبل محمد من وراء الخص وفي يده جرة الماء وفي نفسه خوف متجدد على أمه المسكينة:

ـ هاتوا لها خالتي محسنة .. هي التي تفيقها في كل مرة.

وظهر له وجه نور من وراء الخص وهي تدفع أمها بيدها ثم تواري الوجه الحبيب عن عين محمد، وملأت محسنة المكان بصوتها الذي ينفث الطمأنينة ووجودها الهادئ النشيط، وتناولت الجرة من يد محمد:

ـ صلوا على أبو فاطمة.. انقلوها لي في الخص واتركوها لي.. سليمة.. ليست أول مرة، لكن هذه المرة شديدة .. حصل لها مس يا كبدي من دهسة الحصان وكرامة المرعوش.. انخطف قلبها.

عاد الرجال من الخص إلى حلقة الذكر التي كان الشيخ قد بدأ في الحال يذكي جذوتها عند مدفن المرعوش الخلوي، وشخطت محسنة في ابنتها عندما وجدتها معها عند رأس فاطمة المسجاة في قبضة التشنج، وطردتها من الخص بصرامة:

ـ غوري من وجهي! وطمئني قلبك يا ام عين مفنجلة فلن تموت أم محمد قبل أن تتنيلي وتأخذي منها ابنها!

ـ تكلميها الآن يا امه؟

ـ عندما تفيق أكلمها ونتفق.. امشي من هنا يا بنت عيسي.. على الدار.. فاهمة؟

ـ وحياة سيدي المرعوش يا امه لا تتركيها إلا بعد ما تعطيكي كلمة!

ـ امشي يا باكسة على الدار.. امشي!

وانحنت على عذابات صديقة العمر.. وفرت من عينها الدمعة عندما أفاقت فاطمة في حنانها واستقبلها عند عودتها إلى الوعي هدير الذكر المتسامي نحو إيقاع خاطف جذاب، ومسحت محسنة بلل الدموع عن وجه صديقتها وطمأنتها على نفسها:

ـ سلامتك من كل سوء يا فاطمة يا اختي.. إنت بخير.

لكن عيني أم محمد المليئتين بالدموع كانتا ناطقتين بالاعياء واليأس:

ـ ما أرجوه ليس السلامة بل الموت يا محسنة!

عالجتها محسنة بأناة رفيقة حتى اطمأنت عليها في جلستها أمامها في ستر الخص، وانتظرت حتى هجع الذكر ليلتقط الرجال المتحلقون حول الشجرة المباركة أنفاسهم قبل أن يعاودهم الحنين إلى آفاق الكرامة التي أنبتتها أرضهم، ثم تضاحكت ودفعت بيدها في كتف صديقتها:

ـ يا نهار أبيض يا أم محمد!.. هل تموتين قبل ما تزوجي الولد وتفرحي به؟!

شحب وجه أم محمد مرة أخرى حتى أعاد إلى ذاكرة أم نور وجوه أموات الطاعون القدامي، وظهر أن المس سيركبها مرة أخرى ويلوي أصابعها وفمها ولسانها، ووثبت فجأة على ركبتيها أمام وجه صاحبتها الممتقع وصرخت فيه صرخة فظيعة رجت محسنة وأخافتها:

ـ يا مغفلة!.. يا مغفلة!.. ألا تريدين أن تفهمي!.. ألا تريدين أن تفهمي أن هذا الزواج.. مستحيل!.. مستحيل!

ـ لا سمح الله يا أم محمد.. الأهل حبايب وعيسي وغالب أخوان وأنت أكثر من أختي.. ونور بتحب محمد ومحمد بيحب نور!

ـ أقول لك مستحيل!.. مستحيل!

خافت محسنة من عيني فاطمة عندما طق فيهما شرر وهي تلطم وجهها لطمًا عنيفًا، وتوسلت إليها:

ـ بحق سيدنا المرعوش وافقيني على أن يقرأ الرجال الفاتحة الليلة.. فرحي محمد بنور ونور بمحمد.

واحتضنتها وقبلت كتفها وصدرها:

ـ والنبي يا أم محمد ما تكسري نفس العيال بعد هذا اليوم المفترج أبدًا.. حلفتك بغالب الغالي!

لسعت الكلمة فاطمة كما لو كانت عقربًا من العقارب الصفراء التي تشغي بها الرمال في أرض ميت جهينة البائرة، وبلغ من شراسة سخريتها في الرد أن ارتد جسم محسنة إلى الوراء:

ـ وحلفتك بعيسي الغالي أن تتذكري من هو والد نور ابنتك!... أهو عيسي زوجك أم الرجل الآخر؟!

شهقت محسنة وتلفتت حولها خشية أن يكون وراء بوص الخص أذن متسمعة، وتوسلت في رعب ذليل:

ـ الرجل الآخر؟!... فاطمة!... اهـدئي يا أختي وصلي على أبو فاطمة!.. ماذا جري لعقلك؟

ـ ألا تعرفين الرجل الآخر؟!.. هل أصرح باسمه الآن حتى يسمعه معك كل الرجال إلى ما وراء الجميزة؟

ـ اسكتي يا أم محمد.. اسكتي.

ـ أنت فتحت الكلام فافتحي لي قلبك إن شئت أن نصل إلى حل. أنا أعرف طوال هذا العمر أنك دخلت على عيسي وأنت حبلي، وأن نور هي ابنتك من إدريس!

جاء دور محسنة في الانهيار، لكنها تحاملت على نفسها واختصرت الكلام في اعتراف حاسم:

ـ ولم تفتحي فمك طوال هذه السنين بكلمة؟.. كتمت على الجرح ولم تبخلي على بحبك!

ـ ما الفائدة!.. ما الفائدة!

ـ وهذا هو سر اعتراضك على زواج ابنتي من ابنك؟

ارتفع هدير الذكر وطغي من خلال البوص الهش وملأ الخص الضيق برعشات متطاولة، ولطمت فاطمة وجهها آخذة بكفيها في كل مرة من تراب الأرض:

ـ لا!.. وحق سيدي المرعوش لا!.. إن ما يجعل زواج نور من محمد مستحيلا هو أن الأخ لا يتزوج أخته!!

وبدا على محسنة أنها لم تفهم كلمة صاحبتها، واختلط عويلها المكبوت بصيحات الذاكرين المتعالية:

ـ أقسم لك أن إدريس لم يلمسني بعدها أبداً، وأني منذ أخذني عيسي تحت جناحه الكريم طاهرة.. طاهرة.

لكن فاطمة التي كانت على شفا الجنون عفرت وجهها بحفنات من التراب وصدمتها بالحقيقة الشرسة الخفية:

ـ أما أنا فلم يلمسني إلا بعد زواجي بسنوات طويلة.. وكنت أظنه يئس من مطاردتي ومن قوله لي: إن غالب أبتر ولن يكون له ولد ولا بنت.. ثم كبسني مرة في عز الظهر في الطاحون القديم، ولم أحمل قبلها أو بعدها إلا تلك المرة.. ومحمد يا أم نور قد لا يكون ابن غالب المسكين بل ابن الكلب نفسه!!

(١١)

عرف عيسي وإخوانه آخر أخبار القاهرة من خالد الذي تلقي بلسان أحد دراويش الشيخ الكبير رسالة شفوية، وعلموا أن السلطنة عرضت على بطل المعارك الأمير أزبك قاهر الجحافل العثمانية فحلف بالطلاق ثلاثًا أن يهاجر إلى مكة إن لم يرحموه من أثقالها، وكان أول من قبل الأرض للأمير قانصوه خال السلطان القتيل، مكتفيًا بأتابكية العسكر التي يشغلها، لكن الأمير طومان باي طلب لنفسه الدوادارية الكبرى والوزارة وكان له ما أراد، وجاءهم الدرويش القاهري مع هذا النبأ بأخبار عن صدام بين جند والي القاهرة والجياع في الجمالية والخيامية وحي الأزهر، وظل نبأ صعود قانصوه إلى قلعة الجبل يسري في ميت جهينة حتى اجتاز المعبر الخشبي القديم على الترعة في ضحي الشمس، ومر من خلال المشربية العريضة التي جددت مثل كل شيء في بيت آل إدريس، ولكنه وجد دفتر الحسبة الكبير في ركن قاعة الجلوس البحرية مفتوحًا بين فكين ممطوطين ونغزتين عميقتين في خدين، بين الملتزم إدريس وولده:

ـ هل انضبطت معك الحسبة؟

هرش حمزة في قفاه بالقلم ثم رفع يده في حركة معبرة عن اليأس والحيرة:

ـ هناك سبعة وعشرون دينارًا تائهة أجيء لها من هنا فتجيء لي من هنا. كأنما خطفها عفريت!

ـ هذا هو ما حدث فعلا.. وأنا أعرف العفريت الذي خطفها!

انفجر الابن ضاحكًا دون أن يتحمل في يد أبيه دعكة واحدة، وتبسط إنقاذًا لموقفه فربت بكفه الكتف الأبوية:

ـ سامحه هذه المرة.. كان مزنوقًا والمبلغ فك زنقته!

شارك الأب في الضحك لكنه سارع إلى ضبط المعايير:

ـ سامحته يا سيدي على أن تكون آخر مرة!

ـ خلاص! آخر مرة وحياتك!

ـ عن جدك عن أبي جدك أنه قال: إن كل دينار ينفق في تحقيق مطالب الزني يظل يلعن منفقه إلى يوم القيامة!

انتهي الضحك في بيت آل إدريس وامتنعت المباسطة وآثر حمزة السلامة:

ـ يعني شايف الزني على قفا من يشيل؟

نطق الجدُ في الوجه الأبوي وفي نبرة الصوت الخشن الموروث:

ـ انقشها في مخك.. اطلب بنت من تشاء أخطبها لك وأدفع مهرها من مئة لألف.. إنما حكاية الجري في الغيطان وراء البنات طالت في العائلة وباخت.. حريم الرجل أولي بعافيته وفلوسه.. أنا لم أجن من هذا الجري إلا ما جناه جدك.. حسرة الندم.. وأحيانًا العذاب الذي لا يخطر على بالك ولا أتمناه لك.. عمرك أربع وعشرون سنة ومثل الفحل فاخطب ولو بنت الوالي أو النجم العالي.. ماذا تنتظر بشوقك إلى الذرية؟

ـ العروسة!

ـ عندي!

وغمز الحاجب الأبوي الأيمن قبل أن يستولي تمامًا على لب حيوانه الشاب.

ـ عندي التي يُسَهِّل لك نسبُها كل صعب، وتضمن لك حفاوة الكبار وتخلط عسلك بسمنهم!

هاج فضول حمزة وصار كما توقع إدريس فرجة وتسلية، وهو الآن يتصور امرأة واحدة خلابة تمحو محاسنها من دمه الحامي معاشق ميت جهينة وما حولها، هو الآن ينتظر في صمته المليء بخيالات شهوانية أن تزيده الإرادة الأبوية بيانًا، وتحدد الأسماء وتكشف عن وجه العروس خمارها.

لكن الصوت الأبوي عالج المسألة من زاوية أخرى:

ـ أبوها ملتزم ابن ملتزمين مثلنا، وكان خراج التزامه ألفًا ومائة في السنة فشد إلى القاهرة رحاله المليئة بأزكي الهدايا، وعاد بعد يوم وليلة وقد نقص الخراج المطلوب منه للخزانة السلطانية إلى سبعمائة دينار.. صهر يدخره الحصيف للملمات ويتشرف بطول باعه وحسن تصرفه.. زنها هذه يا حبيبي واشكر والدك!

هرش حمزة في قفاه وهو يطوي بيده الأخرى جلدة الدفتر السميكة، ثم واتته الجرأة على أن ينظر في عيني أبيه وهو يتكلم:

ـ المسألة عندك هي هذه: إن الذي استطاع أن يرفع ثلث خراجه قادر على أن ينقص لوالد عريس بنته ثلث خراجه هوالآخر، فتصبح التسعمائة عندنا ستمائة، ونضع نحن أيضًا أصابعنا في عيون والي الجيزة ونائبه وجيشهما الذي لا يشبع ولا يملأ عينه إلا التراب!

ـ هل للمسألة عندك أنت وجه آخر غاب عني؟

ـ هل البنت حلوة وأنثي؟

ـ من أدراني يا جدع أن معيارك في حلاوة النسوان هو معياري؟

وجلجلت مرة أخرى الضحكات الإدريسية العالية، وسأل الأب الابن:

ـ ما معنى أن تكون الحلوة في رأيك أنثي؟ هل معناه أن تكون من الأشكال التي تبعزق عليها مال العائلة وتزور من أجلها في حساب الداخل والخارج؟ أم تكون من شكل البنت نور بنت المرأة محسنة؟

وتظاهر بالتطلع من المشربية عندما رأي اصفرار وجه ابنه، عجيب أن يتكرر هذا الموقف على هذه الصورة، ففي هذا المكان نفسه انزنق أمام أبيه مثل هذه الزنقة، قسمة ونصيب يا عصب إدريس، وانتظر حتى هدأت نفسه ووجد ابنه كلمتين يقولهما:

ـ كل هذا مسحته من دفتري.. خذها مني كلمة شرف.. من هي العروسة ومتي القران؟

ـ أبوها لا ينتظر غير كلمة منا.

ـ أبوها؟ هل أعرف الرجل؟

ـ خالك عثمان!.. يعني بنت أخ زوجتي.. هدية العمر!

ـ هل رأيتها بنفسك؟

ـ تؤكل أكلا ولا يبقي منها العاقل عظمة واحدة!

ـ وهل تعرف اسمها؟

ـ فرط الرمان!

ـ اسم سخيف!.. ولا مؤاخذة!

ـ يعني اسم زوجتي أنا على مزاجي؟ حياة النفوس!.. لكن ما قيمة الاسم يا مغفل؟ يا ولد افتح عينك وافهم الدنيا!

سكت حمزة.. إن كانت فرط الرمان تشبه عمتها حياة النفوس فهي إن شاء الله من الجميلات.. ومن العفيفات الصابرات أيضاً وقبل كل شيء. لن تكون من صنف زوجة أبيه الأولى التي لا يزال الناس يذكرون من قديم الأيام عشيقها الفلاح الصغير الذي انتهت علاقتها به يوم صلبه أبوه على شجرة في حوش الأبعدية وخصاه.. آه يا أبي المسكين!.. حسبت حسبتك من جميع الوجوه فاخترت لي ابنة أخ زوجتك التي لا ينسيك طهرها عهر الأولي.. أنت لا تنسي لأن الناس لم ينسوا.. لا يزالون بعد كل تلك السنين يتكلمون، رغم موت الغلام وطلاق الفاجرة.. نتزوج.. ما المانع..نسمع كلام الوالد ونرضيه.. وهل يمنع فرط الرمان من خبصة هنا وخبصة هناك كلما عرضت فرصة وسقطت أنثي؟

وصمته كان مفضوحاً فوق ما يتصور، فارتجف عندما بغته الصوت الأبوي الذي يبطن نعومته دهاء حازم:

ـ هناك شرطان لهذا الزواج، والشرط نور..

ـ اشترطهما خالي؟

ـ الشرطان لي أنا، وتمهل قبل أن تتعهد باحترامهما طول عمرك.. أنا لا أضربك على يدك، لكن الرجل يمسك من لسانه.. وكلمة الرجل هي الرجل.. أول الشرطين أن تصون لأهلك شبابك ووقتك ومركزك، وكفي آل إدريس ما شربوه من الخبص طوال ستة أجيال.. الخسارة.. والعذاب.. ما قولك؟

وغالَبَ حمزة شعوره بالضيق لانكشاف سريرته دائماً أمام السلطة الأبوية الفاهمة:

ـ أنا نفسي زهقت من النسوان التي لا تستحم إلا من العيد للعيد، فإذا كان الشرط الثاني أيضاً من هذا الصنف السهل فكن من الآن واثقاً من كلمتي.

وأدهشه وجه أبيه في تلك اللحظة وطغي على مشاعره المعقدة غيظ مفاجئ من عجزه عن كشف سريرة أبيه ولو في موقف واحد، وود لو كان له نصيب أكبر من الفراسة الإدريسية، وكان في وسعه أن يعرف سبب هذه الاختلاجات في الوجه الأبوي، أو سر ذلك الكمد الذي لون الوجه كله بخضرة زيتونية، لكن الصوت الأبوي نفسه احتكر كل دهشته عندما خرج من بين شعرات الشارب المتهدل مضطرباً متكسراً وعاجزاً عن حمل الكلمات القليلة في سياق ساطع الوضوح شأن الوصايا الإدريسية:

ـ الشرط الثاني.. يا حمزة يا ابني.. أين المصحف.. نعم يلزمنا مصحف.. شوف يا ابني.. البنت نور.. دعها في حالها.. من اليوم.. من هذه الساعة.. واحلف لي.. هات المصحف.. الله يهديك يا ابني.

وصارت دهشة حمزة ذهولا وهو يرى قطرات العرق الكبيرة متدحرجة من جبين أبيه وصدغيه إلى رقبته وصدره، وقال له في امتثال مشفق:

ـ والله العظيم ما لمستها يا أبي.. أما بعد اليوم فلن أشعر بوجودها.. وأنا مستعد للمصحف استعدادي للزواج من بنت خالي الآن!.. اطمئن من هذه الناحية.

مسح إدريس عرقه وأشار إلى الدفتر الكبير:

ـ طيب يا حمزة.. ربنا يهديك يا ابني.. اقفل عليه الخزنة واذهب الآن إلى الصوامع وراقب إصلاح السور الشرقي بنفسك.. انخس البنائين الكسالي لينتهوا من العمل كله قبل المغرب.. وقريباً إن شاء الله يتم الاتفاق على كل شيء بيني وبين خالك عثمان.

نهض حمزة منطوياً في الإرادة الأبوية:

ـ أنا من الساعة رجل جديد، وسترى بنفسك.

وانتظر عليه أبوه حتى أقفل الخزنة ثم اعترض خروجه بالوصية الأخيرة وهو يحتويه بنظرته:

ـ هل أكتفي بكلمتك أم يلزم اليمين؟.. لكن لا!.. اذهب.. أفضل أن أري فيك الرجل الجديد حقاً، ولا يكون خوفك من اليمين الباطلة هو سبب احترامك لاتفاقنا.. مع السلامة يا ولدي.. اضرب شيخ البنائين إذا لم تنهض همته!.. أريد السور كاملا قبل غروب الشمس.

خرج الابن في دهشة وأمسك الأب بين يديه رأسه الذي شاع فيه الصلع.. وانتزع منه الصداع آهة طويلة شاكية.

وتناول حمزة كرباجه من فوق كنبة في الشرفة قبل أن يهبط في اتجاه الصوامع.. هل يكون معنى اهتمام الوالد الزائد بالبنت نور، من دون بنات ميت جهينة اللاتي يكفي منظر الفطيرة لركوعهن، هو رغبته الشخصية فيها؟

وضرب حمزة فخذه بمقبض الكرباج.. وهل يكون هذا عدلا وهو داخل في الشيخوخة وأنا شمورت العائلة الذي يصح له العشق ويليق عليه؟.. هل هذا عدل يا سيدي الوالد؟.. أنا أباشر إصلاح السور وأنت يا أهتم يا موجوع طالع نازل؟ هل هذا يرضي ربنا يا عالم؟

ورأس إدريس لا تزال بين يديه في سكون البيت الواسع، وشيء من الطمأنينة يرتد إلى قلبه.. الولد أغبي من أن يكون قد فهم شيئًا.. ولعله يعتقد أني أصرفه إلى الزواج ليخلو لي الجو مع بنت محسنة!.. آه يا ولدي المسكين!.. بنت محسنة.. نور.. النغزة في خد نور.. كيف يكون ولدي أنا من بلادة المخ بحيث لا يتنبه إلى الخدود المنغوزة؟.. ألا يرى وجهي؟ ووجهه؟.. ووجه نور؟.. أحسن!.. أحسن!.. ومن صباحة ربنا ندبر له الزفاف ونغرقه إلى ركبه في العسل!.. يا رب اعم عينيه عنها.. عنها.. عن نور.

ورفع إدريس رأسه فدخل في مجاله البصري معبر الترعة واهتزاز خشبه العتيق تحت ثقل خطيب الجامع، فتمطي الملتزم متثائبًا واستقبل كرش الشيخ هريدي المقبل عند اقتراب موعد الغداء بزراية هازئة.. حتى المرعوش لما مات دفنته يا شيخ هريدي في بطنك!.. ستبلع الولي كما بلعه بطن جميزتك.. صار لك النصيب الأوفي في الولي وموالد الولي.. تعال.. تعال اطفح والتمس كيلة ذرة وادلق ما عندك.. هات ميت جهينة في زكيبتك وادلقها على الأرض بين يدي.. يقولون.. يفعلون.. هاتها من جذورها.. هات السهرات والمصاطب والأسواق وصحن الجامع والطرح والشوارب والقيل والقال عن نور ومحمد ابن غالب.. ماذا تقول ميت جهينة الآن عن تباعدهما بعد طول الود وكأن شيئًا مجهولا ملأ قلب كل منهما فجأة بالخوف من قرب الآخر.. يقولون.. يقولون.

وجاء من خارج باب القاعة صوت تابع:

ـ سيدنا وصل!

فجاوبته كلمة الملتزم الذي تناول عمامته من فوق الكنبة وكبسها على رأسه.

ـ أدخله، وحضر له الكيلة إياها!

(١٢)

قرأ الصديقان الفاتحة لبطن الجميزة واستراحا إلى الظلمة التي تفرشها على جسر الترعة، ثم قال حسن وهو يغالب الضحك:

ـ الشيخ هريدي كاد يضربني أمس عندما سمعني أسميها جميزة المرعوش.. ظل يصرخ وهو قابض على طوق جلبابي.. جميزة الشيخ هريدي يا ولد.. اسمها من عهد الجدود جميزة الشيخ هريدي. هي الأصول تاهت يا ولد!

لم يرد محمد الذي كان ينكت الأرض بعود يابس في يده وهو غائب الفكر، فلمس حسن كتفه في إشفاق وقد عز عليه جمود ذلك الانطفاء في وجه الصديق:

ـ يا محمد! الحمل يخف ثقله إذا رفعه اثنان معًا.

فاضت أعماق محمد بزفرة شقت صدره إلى حنجرته في معاناة موجعة، وأخذ وقتًا حتى تكلم:

ـ حملي أثقل من الجبل!

حاول حسن أن يأخذ العود من يد صديقه:

ـ افتح لي قلبك.. جبال الكحل تفنيها المراود.

وتأمل الخطوط التي نقشها صاحبه في التراب، شبه دائرة تتوسطها عينان، ولا أنف ولا فم، لا شيء إلا عينين واسعتين ونقطة كبيرة تحت إحداهما.. نقطة تزداد عمقًا وحجمًا تحت رأس العود الضاغطة التي تحفرها بإصرار قانط.

ـ أراك على غير سنة الله في أنوف العباد عوجت المنخار تحت العين اليمني!

ـ ليس هذا أنفًا.. هذه نغزة!

ورفع محمد رأسه ورفت على ركن فمه ابتسامة ذليلة الشحوب:

ـ أقول لك الحلم الذي رأيته الليلة؟

ـ أنت أيضًا تحلم أحلامًا عجيبة؟!

ـ رأيت سوق ميت جهينة بالناس والبهائم كأنه يوم الحشر، والناس جميعًا في خدودهم نغزة مثل هذه.. وتحول الحلم إلى كابوس عندما أخذت كل بهائم السوق ترفع من الأرض

رءوسها فأري لكل بهيمة نغزة أيضًا.. يا للكابوس!.. حتى عندما رفعت وجهي إلى السماء وجدت في خد القمر نغزة!

لم يفهم حسن من مرارة محمد إلا صدي حزن دفين يجهل هو جذوره ومداه، لا بد أنه يتكلم عن نغزة نور، لا بد أن أمه لا تزال في عنادها، أمه رأسها كالحجر ناشفة، لكنه أحب لصديقه أن يستريح معه في حلمه الخاص الذي يكاد يراه كل ليلة.

وأفلح حتى ترك محمد العود من يده بعد أن طمس به معالم الوجه المنغوز وغيبها بقوة في أديم الأرض، ففي أحلام حسن رعب دموي وقسوة مريحة، وهو في كل ليلة، إلا الليالي النادرة التي يهنأ فيها بنوم طيب، يصلب حمزة ابن الملتزم على شجرة ويخصيه كما خصي أبوه في قديم الزمان بركات ابن عمه، والناس شهود، وكأن كل الغائبين عادوا ليشهدوا بما فيهم موتي الطاعون.. وعندما تؤدي البلطة عملها يزغرد صلبها بفرحة فولاذية، ويخفت بعد قليل عويل حمزة المسفوح الرجولة وتشرب الأرض كل ما سال من دمه، وإذا بالعيون كلها تتوجه نحو الأرض الرملية المترامية بقفرها الموحش وقد صدرت عن متاهاتها فجأة أصداء متجاوبة لصرخات انتصار رهيبة تظل تتعاظم حتى يلفظ الأفق شبحًا مقبلا في ركض خارق، صارخًا في البرية، هذا جده عبد اللطيف الأكتع عائدًا من العدم في ساعة القصاص، هذا هو، ساجد في النهاية على تراب الأرض الذي ارتوي بعد طول العطش من الدم الإدريسي.

ـ آه !.. الدم الإدريسي!.. قلتها يا ابو علي.. قلتها يا أخي!.. الدم.. الدم.

بهت حسن وتفجرت دموع محمد ولم يعد يبالي أن يرى صديقه بكاءه الرجولي الهائل، وطوقت كتفه ذراع الصداقة الممدودة وانحني على أحزانه المبهمة قلب حسن:

ـ يا محمد افتح قلبك.. تكلم.. لو في يدنا كل واحد مرود لأفنينا جبال الكحل كما أفني مثلها الذين قبلنا.. ما الذي يعذبك كل هذا العذاب؟

نطق في عيني محمد خزي عظيم.. معك حق يا ابو علي!.. معك حق.. هذا الحمل كاد يهرسني تحت ثقله.. لم أعد أحتمل السكوت.. لم أعد أحتمل.. أحسن من اليد الواحدة في شيل الحمول الكبيرة يدان متعاونتان واحدة من هنا وواحدة من هنا.. لكن كيف أقولها! كيف أقولها!

ـ إن كان ما يحزنك قلة أدب ابن الملتزم مع نور فاعلم أن بينه وبينها بلطتي وآخرة صبري.. ساعتها لن تفعل أنت شيئًا غير أن تباركني عندما أريك بلطتي والدم منها يشلب.

قهر محمد نشيجه لكن نفسه منكسرة بخزيها والكلمات على لسانه المر صعبة.. في صباه ضرب ابن الجارة بعود من شجرة التوت حتى أدمي ظهره، وجاءت الأمّان تسألان عن السبب.. قلت لهما إنه غشني في لعب السيجة.. وضربتني أمي إرضاء لجارتها فتحملت العقوبة بالرضي المذعن، حتى تعبت هي من جهد الضرب ومن دهشتها أمام امتثالي الهادئ.. لم تكن السيجة هي السبب.. ضربته لأنه ردد على مسمعي ما يبلغه من حديث جدتي ست العيلة

والملتزم القديم حمزة جد حمزتنا.. في صباي!.. من صباي كان العار داخل حائطنًا.. ومن ذلك اليوم كم دفنت وجهي الباكي في الأرض مسائلا نفسي إن كانت أمي هي حقًا أخت إدريس وإن كان إدريس إذن خالي!

ـ يا رجل!... لو صدقنا كل فرية دنيئة!

ـ في خد أمي لم أر النغزة الإدريسية.. كان هذا هو ما يطمئنني أحيانًا.. شائعة وخبث جهيني.. لكن ذيل العقرب يعاود اللذع في قلبي، ويخايلني وجه ابن الجارة!.. اسكت!.. اسكت!

وانهار محمد ونفضه البكاء في حضن صديقه:

ـ العار عشش في حائطي من قبل مولدي.. في قلبي!!

ـ يا رجل!.. أهذا كلام!.. أهذا هو ما يعذبك؟.. والله إني أنظر في وجه جدتك ست العيلة فلا أري امرأة بل وجه رجل شريف جاد عزيز النفس!

لكن الابتسامة المرة التي شاعت في وجه صديقه أوجعت قلبه، وسألته تلك الابتسامة الجارحة وكأنها تشفق عليه من هول الجواب:

ـ هل حدث لك ولو مرة واحدة أن تأملت وجه نور ممعنًا فيه نظرك؟ هل حدث لك هذا؟ هل تعرف خد نور الأيمن؟

حار حسن في مرمي السؤال لكن محمدًا أراحه في الحال وتدفق وجدانه كالسيل، وانحسرت كل سدود الخزي التي كانت تشده إلى الصمت.. لكأن حسن صديق العمر يرى النغزة في خد صديقه لأول مرة.. وارتعد وظل يرتعد وهو يسمع ولا ينطق والوجوه تخايله كلما ظهر في قعر الفظاعة اسم جديد.. يا ولداه يا عمي غالب يا طيب.. يا ولداه يا عمي عيسي!.. الخالتان الحبيبتان فاطمة ومحسنة!.. من متاع الضباع الإدريسية جيلا بعد جيل!.. حقيقةٌ هذه أم كابوس خولط فيه عقل محمد!.. نور بنت إدريس وأخت حمزة وأخت محمد!.. يا حسرة عليها!.. يا ولداه يا ميت جهينة!.. يا ولداه يا بركات يا ولد عمي!

ـ ما هذه المناحة يا جدع انت وهو؟!

كانا صادقين في انهيارهما، فصرخا معًا من الفزع عندما انتزعتهما هذه الصيحة الحازمة من قاع الكابوس، وعلى الخوف دخل في مجال رؤيتهما في الظلام قوام فارع منتصب أمامهما تمامًا:

ـ هل هذه عملة رجال يا حسن؟ وأنت يا محمد؟

ـ عمي خالد!

ـ عمي خالد!

ونهض الفتيان على ركبهما، كتفًا إلى كتف.

لا لا!.. ليس عمًا لمن يبكون بكاء النسوة وهم رجال بشوارب وفي حمي الطاهر ساكن الشجرة!.. وهو يعرف كما تعرف الجيزة كلها ما يبكيك يا حسن.. ويعرف ما يبكيك يا محمد لأنه شأنه كما هو شأنك.. وهو يعرف الدموع من قبلكما، لكنه عرف أيضًا وهو يتعلم الصبر كيف يبكي بلا دموع.. وكيف يكز على أسنانه وهو ينتظر الساعة.

ـ هل لنا ساعة؟

ـ نحن؟ ساعتنا نحن؟

آه! وحق سيدي المرعوش الذي يسمعنا آه! ساعتنا نحن! ساعة تنتفض قلوبنا مثل قلب واحد، وتزعق الدماء في عروقنا وتكونين معنا يا ستي زليخة أنت وروح عزة الساري في أرضنا، أوله في الصعيد وآخره في البحر المالح،وملء البر أنفاسه الطاهرة.

ـ مدد يا ساكن الشجرة!

(١٣)

عند الظهر وفق محمد في السوق إلى فأس جديدة أعجبته فاشتراها وخرج بها راضيًا عنها، هذه تعيش على الأقل عشر سنين، وإن يكن بائعها قد طمع في نصف درهم زائد عن الثمن المعقول لها، فإن صنعتها محكمة، وسنها البراق قاطع، ويدها من الزان الصلب.

واقترب من ظلال التوتة المعوجة وهو يفسح في خطاه وعجيج السوق يتخلف متضائلا مع كل خطوة، وظهر له خص المرأة ستيتة القرعة التي كانت مقعية أمام جحرها الطيني عند أعواد حطب لم يتم جفافها تحاول إيقاد نار، فلما رأت الفأس الجديدة على كتفه نادته ووجهها الضفدعي غريق بسمرته الداكنة المجعدة في دموعها التي جبدها دخان النار الفاشلة من عينيها المكحلتين بالعماص:

ـ تعال يا ابن فاطمة شوف لي الراكية ما لها!

زفر من الضيق، وقته ضيق، يعرف أنها من طول ما عاشرت الصمت في وحدتها لا تنقفل إذا انفتحت، ورئيس أنفار الحوض الغربي لن يصبر طويلا على غيابه، لكن المسكينة بِجرْمِها الضئيل وجفنيها المجردين من الأهداب وقراعها المتكشف رغم مزق الخرقة الملفوفة حول رأسها هبطت به إلى بطن الترعة، وهفت بقلبه شفقة على ساكنة الخلاء المستوحدة:

ـ يا خالة ستيتة العود الأخضر لا يشتعل.. أنا أجمع لك الحطب النافع.. النار تحب العود اليابس.. والراكية لها أ صول.

ـ نار في قلب كل من ينزع من قلبك الراحة يا ابن فاطمة الغلبانة!

كل لحظة يتأخرها قد تؤثر عند المحاسبة الأسبوعية مع عربي رئيس الأنفار في حجم مشنته وفي حياة أمه وأبيه الذي لا يكاد ينهض بعمل منذ ضعف بصره وانكسر في همته شيء خفي، مدفون في الصمت لا يفهمه أحد.. الراحة يا خالة ستيتة؟.. هل تكلمت عن راحة القلب؟.. لو تعرفين ما في قلب أبي وما في قلبي!.. لو تعرفين! وعاد إليها بقبضة مليئة فنظف الراكية قبل أن يكسر الحطب ويرصه فيها، وأخرج من جيب صدريته الزلطتين والفتيلة ودعا شرارة النار ألا تؤخره هي الأخرى بعنادها المألوف، وخايله وهو ينحني على الراكية وجه عربي الذي لا يزال في شيخوخته رذلا قاسي القلب.

وظهر لها وجهه من خلال سحابة الدخان المتصاعدة من جانب الراكية الآخذ في الاشتعال كما لو كان وجه طفل يغالب دموعه، فسألته:

ـ كيف حال أمك يا ضنايا؟

لمح في صوتها النبرة التي مست قرار نفسه عندما تكلمت عن الذين ينزعون الراحة من القلب، فسألها هو الآخر:

ـ كما تعرفينها قليلة الكلام أليفة الغم.. هل عندك لها كلام؟

ـ نار في قلب كل من نزع من قلبكِ الراحة يا فاطمة يا بنت ست العيلة وسليمان أبو طاسة!.. نار في قلبه!

لفع محمد فأسه على كتفه، لا وقت عنده لما تريد القرعة أن تخرم عليه من المواجع، وعندها الآن نارها، وعليه أن يحث السير نحو الحوض الغربي قبل أن يفقد عربي كل صبره ويطول لسانه.

ـ مع السلامة يا ابن الغلبان غالب، فأسك الجديدة تنفع للعزق وللذبح!

ـ فأسي القديمة انقطمت نصفين في الشغل، والريس قال لي اخطف رجلك للسوق هات واحدة جديدة لأن المخزن فارغ.. أذبح أي شيء يا خالة ولا فرخة عندنا ولا أرنب؟.. الفأس لأكل العيش وأنت ست العارفين.. تركتك بعافية!

انغرست أظافرها في بور رأسها وهرشته بالتذاذ عنيف:

ـ مع السلامة يا ضنايا.. سلم لي على أمك.. لو صبرت قليلا لأخذت لها معك زر بطاطة مشوي مسروق من زراعة الملتزم وقد الرطل في عين العدو!

اندفع محمد في خطواته النشيطة وهو قابض على يد الفأس فلم يلبث أن جاوز السنطة القديمة وهبط في مدق الطاحون، وملأت سمعه جعجعة الرحي عندما رأي فجأة عند الجدار فرساً شهباء يلمع بريق النقوش الفضية في سرجها وفي مقبض الصوت المتدلي منه، ووجد الملتزم موليًا ظهره فضاء الأرض البور ومتجهًا نحو الحائط، لكن الرجل اليقظ التفت على وقع الخطي الخفيفة المقبلة، وسارع بربط تكة سرواله الطويلة، وتكلم قبل أن يستدير ويواجه الفلاح الشاب حامل الفأس الجديدة:

ـ على مهلك يا محمد، لي معك كلمتان!

جمد محمد في مكانه، وأوجعته سخونة قلبه التي سرت في صدره حارقة ناهشة، هل ينهار على الأرض معولا ببكاء طفل مصدوم أم يطيع الفأس فيرفعها ويظل يضرب بها حتى يمحو وجود هذا الرجل من أمامه ويستريح مرة واحدة؟

كأن غيامة أمام عينيه تحجب عنه كل رؤية واضحة، وقبضته على يد الفأس شاعرة بالرعدة التي نفضت كيانه كله، دون أن يفهم في جيشان أعماقه الهائل حقيقة مشاعره، أو يجد ما يقوله والرجل يقترب منه على مهل.. وكأن حدة شره على غير العادة منكسرة!

تشنجت أصابع محمد على الفأس، لكن الرجل حرص على ألا يمد يده ووقف أمامه يتأمله في السكون الذي هبط فجأة عميقًا ومحتويًا اللحظة ومكانها ومبتلعًا كل شيء، حتى هدير الطاحون الذي كان منذ هنيهة يملأ الجو كأنه خوار بهيمة تشتكي من ألم مستمر.. لم

يحدث من قبل أن اقترب كل منهما من الآخر إلى هذا الحد.. لم تعد بينهما إلا مسافة ما تمتد الأيدي للمصافحة.. ها هو أمام الفأس مباشرة.. قد زحفت الغضون إلى وجهه كما زحف بعض الشيب إلى ما بقي من شعره القليل، والتجاعيد المنحفرة في خده لم تدع فيه نغزة ظاهرة كما توقع محمد، لكن فكه الممطوط يشبه الفك الذي يراه محمد كلما انحني على ماء هادئ وتأمل صورة وجهه في صفحته الصافية.

ـ قل كلمتيك.. ماذا تريد مني؟

وأدهشه صوته الأجش المرتجف الذي ألقي السؤال فجأة كأنه صوت إنسان آخر أكثر مما أدهشه الرجل الذي لا يزال يبحث عن كلمتيه وفي وقفته حيرة وفي عينيه قلق، وارتعدت الفأس على كتفه عندما لاح في خياله على غير انتظار وجه طيب تعلن نظرته الفارغة عن اقترابه من العمي الكامل، لكن ملامح ذلك الوجه ظلت تفقد طيبتها متشكلة بنقمة هائلة تتوهج كالحمي في دم محمد.. تكلم!.. ماذا تريد!.. ألا تخاف مني ونحن وحدنا وهذا عظم جبينك وذاك سن فأسي؟

ـ أريد لك كل خير.. كل خير.

ـ وأنا لا أريد منك شيئًا يا جدع انت!

صفعت الكلمة الوجه الإدريسي الهرم، لكنه استقوي على انفعاله وملك زمامه:

ـ اسمعني أولا يا محمد.. من مصلحتك أن تسمعني.. ألا تحترم من هم أكبر منك سنًا؟

ـ عندي شغل في الحوض الغربي ولا أريد أن يخاطب لسانك لساني أبدًا.. غور من هنا يا جدع انت أحسن لك!

وانحرف بخطوته وهو في ضيق من عجزه، لكن الملتزم تحرك وفرد ذراعه:

ـ الحوض الغربي... كلامي معك فعلا عن الحوض الغربي يا محمد.. عربي شاخ ولم يعد لي فيه نفع هناك.. أريد أن أريحه في حراسة الصوامع.. وأنا محتاج في رياسة الحوض الغربي إلى ولد سبع راضع من بز أمه.

لسعته اللفظة الأفعوانية، وانتفض في وعيه صوت القرعة كأنه يسمعه لساعته، الفأس للذبح كما هي للعزق، للذبح، لطحن العظام في قلب اللحم بخرزة الفأس الصلبة قبل تقطيعه بسنها الحادة، للعار، للثأر، للعرض المهتوك ألف مرة.. لكنه ظل جامدًا يتلقي كلمات الرجل الناعمة:

ـ لماذا لا تكون لك حياة جديدة ويسر وراحة بال وعزة؟.. وتكون لك دار مبنية وعروسة مخبية بنت ناس طيبين لا تعرف سكة الغيط والجلة.. أدفع لك مهرها بنفسي.. أريد لك الخير يا محمد.. أنت شاب قوي وطيب وتستحق حياة أنعم.

ـ طيب و.. ابن حلال؟!

لفظتها كبرياء رجولته الدامية بمرارة بلغ من فظاعتها أن ظهر قائلها هادئًا وراء ابتسامته الخزيانة المتلظية المقهورة، فجمد الكهل وتحجر.

وفي جموده العجيب ودع محمد آخر رجاء في الشك فها هو اليقين، أنا ابن هذا، أنا أخو نور التي يريد بعروسه بنت الكرام المستورة أن يمنع زواجنا دون أن يكشف نفسه، أنا ابن هذا.. أمي!.. أمي!.. أمي وهذا!.. وكل ما رآه من ألوان الفعل الجنسي على الطبيعة في إنسان ميت جهينة وحيوانها تشيطن ماثلا في خياله بهيئة شخصين اثنين غائبين في شبق، هذا الكافر ابن الكافر و.. أمه فاطمة!.. ورحي الطاحون شغال.. شغال.. أين كان هذا الصوت منذ بغته وجود الرجل عند الحائط؟.. إلى هذا الحد إذن كان منحصرًا في مغالبته لإرادة القتل.. ما الذي يشل يميني؟ لماذا لا أقتله وأستريح؟

فأسه في بحور من الدم تطيح بعدد من الرءوس الواحد بعد الآخر، وأمه مع الجميع، لكن قبضته على يد الفأس ميتة!

ـ هل انتهيت؟

أفاق إدريس من جموده هوالآخر:

ـ رد عليّ بعد يومين.. فكر في الموضوع.. نلتقي هنا مساء الاثنين.. فكر في مصلحتك وشاور يا محمد.. شاور.. أمك.

لئن لم يبطش الآن فمتي؟ متي؟

صهلت الفرس في ملل وأتلعت عنقها في اتجاه فارسها بنظرة في عينيها سأمانة، وقصدها الملتزم والفأس هامدة في جمودها على كتف محمد.. ولون الدم يملأ الدنيا أرضها وسماءها!

ولوح الفارس بالسلام من فوق سرجه المفضض، والسوط مطوي في يمينه الملوحة، ثم نخس المهماز جنب الفرس النشطة للانطلاق.. وسقطت الفأس إلى الأرض فلم يبالِ بها محمد!

كأنه يريد استبقاء الفرس بشدها من ذيلها، وفجأة امتدت ذراعاه لولا أن اندفعت الفرس بفتوتها في ركض متوثب مرح.. ومرت برهة قبل أن يجد نفسه مندفعًا وهو يزأر وراء الفرس السريعة.. ملعون دمك!.. ملعون دمك!.. لا أريد منك شيئًا يا نذل!.. أنت غريب.. غريب.. أنا أكرهك.. أكرهك.. أبي غالب! أبي غالب!

وسقط على وجهه فساخت روحه في الأرض، فلما رفع رأسه رأي الأفق محتضنًا الشهباء وراكبها، فدفس وجهه في الطين.. كيف لم أقطعه يا أبي غالب؟.. كيف لم أقطعه؟.. أرجال نحن أم نسوان يا أبي غالب!.. يا أبي غالب!

(١٤)

رجال الحوض الغربي لا يعودون إلى الدور إلا بعد الغروب، فما إن رأي محمد من بعيد جدته أمام الدار متكومة في الشمس حتى توقع أن يحاصره فضولها عند رؤيته عائداً في ساعة الظهر، وبحث في الحال عن جواب مقنع يقذف به إليها في طريقه إلى الداخل فيسكتها، فلم يكن يجهل معنى أن تعصر ست العيلة من يقع في يدها حتى تنتزع منه الحقائق كلها قبل أن تخلي سبيله، ومتي حزمت أمرها معه كان يعود بين يديها الصبي المضطرب الذي لا تقوم له أكذوبة ولا تنفعه حيلة.

ـ إيش قطع شغلك من الظهر يا محمد؟

تباطأت خطواته دون أن يتوقف:

ـ الفأس انكسرت والريس سمح لي بشراء واحدة جديدة، قلت أمر أخطف رغيفًا من المشنة!

ومرق من الباب وهو يتحاشي النظر نحوها، وحمد الله عندما دخل إلى صحن الدار المكشوف دون أن تحكّم جدته رأيها على مزيد من الجدل، وكان باب الزريبة مواربًا يتسرب منه لهاث أمه القوي المنتظم مع كل ضربة من الفأس، من صباحة ربنا قبل خروجه وهي تقطع أرض الزريبة، تشتغل بعناد، تميت نفسها في الشغل.

وعند باب الزريبة تريث ثم رأي أن يسند فأسه إلى الحائط قبل أن تراه أمه التي شعرت به قبل أن يدخل عليها فاستقبله منها وجه شاحب مطرق وأجفان منكسرة:

ـ خير يا محمد؟

ـ كنت في السوق.

لم تكف فاطمة عن قطع الطينة العطنة المستعفية على فأسها الصغيرة، والعروق النافرة في قبضتها المتملكة من يد الفأس تزداد مع كل ضربة زرقة وبروزًا، والفأس تضرب بإصرار، ومع كل ضربة يرى حز السروال حول وسطها ظاهراً من تحت القميص الأسود البالي، ويسمع زفرة أمه في جهدها البدني: «هوه.. هوه.. هوه..».

كانت عنده ألف كلمة يقولها، لكنه سمع صوته يقول لها:

ـ كنت أشترى فأسًا جديدة!

ـ على حساب الأبعدية؟

ـ الريس عربي عارف إن المخزن فارغ.

ـ أبوك هناك.. هل قابلته؟

ـ ماذا يفعل في السوق؟

ـ يبيع الجدي ويشترى الطحين.. ويلين رجليه!

كادت دمويته المحمومة التي استفزتها كلمة «أبوك» تدفعه إلى أن يقول لها في غلظة «قابلت في عودتي الملتزم إدريس!» لكن نظرة الخوف الذليلة التي لحظها في نظرتها الركنية أخضعته فجأة لدفعة غريزية جديدة رطبت صوته بعطف خشن مرتجف!

ـ لا نفع لنا في الزريبة بعد بيع الجدي فارفعي وسطك يا امه وخذي نفسك!

لان جسمها وعدلت وسطها ساندة خاصرتها الموجوعة بقبضتها، وفي وجهها الممصوص آهة خرساء، لكأن كابوساً انزاح من قلبها وكشط معه من هواء الزريبة حدة رائحته الزخمة:

ـ فداك الجدي يا بني، ورغيف في المشنة أحسن.

ظهر في فتحة الباب وجه ست العيلة مفعماً بالقلق:

ـ ما تلفع يا حبيبي فأسك وترجع لأكل عيشك!

مشنتهم الفارغة تخايلت له وهو يكز على أسنانه سامعاً وراء أذنيه ضرب الدم في رأسه.. يا شيخة!.. فمك الأهتم مزرور على ألف سر.. تريدين أن تأخذي بنتك في حمايتك إذا كان وراء عودتي غير المتوقعة أذي ينالها مني.. والدم يضرب وراء أذنيه ضربات مدوخة: «جبان.. جبان.. جبان..».

واختفي وجه الجدة فانحني ظهر أمه وعاد لهاثها ينتظم مع ضربات الفأس:«هوه.. هوه.. هوه..».

قبل غالب كان هناك جدي سليمان أبو طاسة، فهل مات عارفًا؟.. ومن أيضًا من رجالك يا ميت جهينة؟.. رجال؟!.. نحن؟.. وتفجر خزيه العظيم فجأة في وجه الأم التي سقطت الفأس منها واعتدلت مرة أخرى بشهقة فظيعة عندما سمعت من ابنها ذلك الصوت المتغير المخيف:

ـ قابلت في عودتي إدريس الملتزم!

حرام عليك يا ولدي.. لم ينطق لسانها لكن كلمته نظرتها الذليلة.. إن كنت عرفت فافعل ما تشاء لكن لا تسبني ولا تجرحني.. والله والله يا محمد ما كنت تنعم بهذه الصحة في شبوبيتك لولا ما كان.. أمك مسكينة! مسكينة!... والله ما حملت امرأة من عذاب الدنيا مثل ما حملت أمك، ولا عرفت أمك لشيء مما كان لذة.. حرام يا ولدي.

ـ قال لي شاور أمك!!

نفضها رعب فظيع عند صيحة ابنها القاسية، وتلجلج لسانها وخانها النطق، لكن وحيدها كان قد اندفع مع لذة التنفيس الشفوي الحريفة:

ـ يريد أن يمشيخني على الحوض الغربي ويدفع لي مهر عروسة مخبية من بنات الأكابر، وقال لي شاور أمك!

استندت الأم على الحائط ثم خانها جلدها فجثت متهاوية في وضع جامد متضائل، لكنه سمع همستها المطموسة:

ـ يا ضنايا يا محمد.. يا ضنايا يا محمد.

صوته الآن باتر مثل سن الفأس:

ـ ها أنا أشاور أمي، ما قول أمي في كلامه.. كلام الـ .. ملتزم؟

لكن قسوته الطافحة غاصت في ندم لم تمتلئ نفسه بمثله طول عمره، ولم يعد في نظرتها إليه غير حنان مشفق كبير.. مسكين يا ولدي مسكين.. ارحم نفسك وارحم العمي في عيني غالب وارحمنا كلنا وافهم.. افهم يا محمد.. هل لنا حيلة؟.. ما كان لنا كلنا في كل ما فعلنا في دنيانا، همٌ أكبر من همِ اللقمة.. اللقمة يا ضنايا.. رغيف المشنة يا محمد يا ولدي.

تحركت قدماه الثقيلتان نحو الباب وهو يتحاشي النظر نحو أمه:

ـ أنا راحل عن ميت جهينة بعد ما أسلم الفأس الجديدة للمخزن!

ـ راحل؟!

وأطلقت المرأة المنسحقة صرخة فظيعة وهي تثب في اتجاه الباب قاصدة أن تسده بجسمها، وجاءت صرختها بأمها حاسبة أن الولد قد فلق بالفأس رأس أمه.

ـ ماذا فعلت يا ولد؟ هل مددت يدك على أمك؟

لم يعد يحتمل، قبضت يمناه على طوق جلباب جدته ونفضها في قبضته.. أنت الأخرى!.. لا تنقصنا إلا مشورتك!.. لم يقل لي شاور جدتك، لكن لو كان أبوه حياً لقالها!!

ـ هل جننت يا محمد؟

ـ أفتيني أنت يا أس الخنا أفتيني.. هل أهاجر يا ستي أم أتمشيخ وأخلف من بنت الأكابر صبياناً وبناتاً؟!

ـ ماذا يقول ابنك يا فاطمة؟!

لكن فاطمة تهاوت على طينة الزريبة غائبة عن الوعي، وخلفتها في قبضة حفيدها الذي لطمها فجأة على وجهها ولمعت في عينيه نظرة مخبولة:

ـ هل أشرب من دمكم كلكم ولا أتوقف حتى يحملوني إلى المشنقة وأنا ألعن مشنتكم ورغيفكم أم أهج كما هج في قديم الزمن عبد اللطيف الأكتع!... دبريني يا رخيصة يا أم الرخيصة... ملعونة مشنتكم! ملعونة مشنتكم!

ـ تضرب ستك يا محمد؟

لفظها فوق ابنتها قبل أن يقفز إلى صحن الدار، واختطف الفأس التي كان قد تركها عند الحائط، وابتلعه الباب الخارجي وهو يزأر من باطن عروقه:

ـ أشرب أم لا أشرب؟ أشرب أم لا أشرب؟... أشرب أم لا أشرب؟

(١٥)

الله جميل، الله كبير، الله جميل، الله كبير، والليل في زقاق العميان مليء بنبض الإيقاع الجماعي الصادر من حوش بيت الشيخ الدلاتوني، والضوء الخافق في فتيلة المسرجة المعلقة في البوابة يحتوي العكاز القميء المستند إلى الجدار الخارجي والحجر الجرانيتي الكبير والأعرج الجالس فوقه في نوبة حراسة يقظة، والفاسوخة الكبيرة المتأرجحة في مقدمة طاقيته تلمع كلما عكست شعاع نور، والله جميل، والله كبير.

وفرد الغلام ساقه العاجزة وهو يتشمم رائحة الهواء قبل أن يرى القصعة التي ظهرت في البوابة محمولة بين يدي زكريا النقاش، وظهرت لثته خالية من بعض الأسنان عندما تبسم للثريد:

ـ مرحبًا بعيش الشيخ الدلاتوني وملحه!

وضع زكريا القصعة في حجر الأعرج وهو يمسح بنظرته الزقاق الذي يبدو في امتداده السردابي المنتهي في الظلام كما لو لم تكن له نهاية:

ـ يوسف لم يظهر؟

اهتزت الفاسوخة على جبين الأعرج وهو يضرب بأصابعه الطويلة في جنب القصعة:

ـ لا تقلق على يوسف.. لن يتأخر حبيبك.

ـ إنه يكره الوثب فوق الأسطح للوصول إلينا، ولا بد أنه كالعادة اشتبك مع الطواف!

وهم زكريا أن يعود إلى الداخل عندما أحسّ خروج إيقاع الذكر من النغم البطيء الممهد إلى فلك الدوران السريع الذي يحب أن تنخطف فيه روحه متقربة من المدد، لكن سمع الغلام المرهف كان قد سجل بزوغ شخص من قلب الظلام:

ـ صدقتني؟ ها هو حبيبك في الله!

وعندما كشفته مسرجة البوابة ظَهَرَ وجه يوسف كالعادة مبشرًا بالمرح:

ـ قسمتي ونصيبي!... حكاياتي مع الطوافين بدأت من صغري ولي معهم تاريخ، لكن هذا الجلف هو أعجب من رأيت من هذه الطائفة!

ـ ألم يقبض المعلوم؟

ابن المتختخة يريد أن يكون اللحم الذي نرسله له مع قصعته المعهودة من السمين الملبس وأن يحمر في سمن بلدي!

وتجلي في الداخل صوت قوي على رقته بضبط الإيقاع ويبشر بانجذاب مطهر:

ـ مدد.. مدد.. مدد.. مدد.

وزلط الأعرج كرة كبيرة من الثريد قبل أن يعبر عن افتتانه بشيخه في انبهار طفولي:

ـ صوت يضيء زقاق العميان!

ولقفت البوابة صديقيه النقاشين فمسح آخر فتات القصعة قبل أن يريحها على الأرض بجانب كرسيه الجرانيتي ويعود إلى وظيفته الليلية التي يعيش فيها حياته كاملة، فهو لا يخدم قضية يفهمها ويؤمن بها ولا يعرف معنى دروس الشيخ التي يفسر فيها لمريديه معاني الجهاد وهو يذاكرهم في شئون معيشتهم، بل يخدم شيخه المحبوب بولاء كامل سعيد، ويحب ذلك النحيل الأسمر الصادق الذي يربي بالنظرة وبالكلمة أولاده زهرة شباب الخيامية.. الله جميل، الله كبير، والإيقاع يتماوج هابطًا من القمم الخاطفة إلى مدار الرتابة الهادئة، والظلمة تلفظ فجأة هدير عاصفة هابطة من سقف البيت المجاور، زاعقة في ليل زقاق العميان:

ـ يا حي يا جبار! غيري يناجي جمالك أما عبدك الضعيف فينادي جبروتك!

وارتطمت بالأرض غير بعيد من الحجر قدمان حافيتان، وظهرت اللحية السوداء فتلقاها الغلام بابتسامة حب، هكذا يغلب أبو ذقن سودة في كل الليالي باب الزقاق المقفول ويقظة الطواف عنده في انتظار الرشاوي، وهكذا علم مريدي الشيخ أن يفعلوا كلما وصلوا إلى الاجتماع بعد صلاة العشاء، وجلجل صوت المجذوب عند المسرجة:

ـ اهدنا إلى النقمة يا حي يا جبار!

فظهر له في البوابة مجذوب ثان خارج كالشعلة من رقصة الروح الشفافة، وجاوبه بصيحة مثل صيحته مجلجلة:

ـ يا رب! بارك في عيش الشيخ الدلاتوني وملحه!

وتلقاهما في الداخل سكون يزداد في كل لحظة عمقًا وخطرًا، فأرهف الأعرج سمعه وخفق قلبه في انتظار صوت الشيخ الذي لا يملأ غيره كل هذا السكون الذي يجيء دائما بعد كل دورة من دورات الذكر المتباعدة، وطالت فترة السكون قبل أن يروي وجدانه الظمآن ذلك الصوت الرقيق الآسر:

ـ نتذاكر الآن يا أولاد الخيامية في أحوال بلدنا مهتدين بنور القلب، والله هو النور لمن يبصر بقلبه، وفي معنى النور تتوحد كل صفات الله الحسني، والبشر خليقة نور، وفي النور يريدهم ربهم، في نور الحق وكرامة الواجب وسواء السبيل، فليكن النور رفيقنا وهادينا،

ولتكن صلاتنا: أن اللهم هبنا القدرة على أن تشرق أنفسنا البشرية بحقيقتك النورانية، واضرب بنا الظلمة، واجعل الموت إن وجب حبيباً إلينا.

وتدفق من البوابة المفتوحة بحر كبير:

ـ آمين! آمين! آمين!

لم يعد ليل زقاق العميان كما كان، لم يعد يطيق الجلوس على حجره ولم يستعن على حركة الوقوف السريعة بالعكاز، والصوت الخلاب عطر الوجود وملأه دون أن يقوي الأعرج على الغوص وراء معاني الكلمات التي كان بعضها يبدو له لغزاً رهيباً يشيع في صدره كله سخونة انشراح، ثم لم تعد المعاني تعنيه وهام قلبه وراء جلال الصوت، لكأنه محمول على قمة موجات متلاحقة في نشوة، وفارت أعماقه سافلها وعاليها ولم يعد هناك وجود حقيقي للعكاز ولا للضياع.. وبوحي الصوت وحده تعملقت نفسه شاعرة بأن في وسع أولاد الشيخ لو خرجوا من هذه البوابة أن يمحقوا الشقاء ويفتحوا الجنة.. وفي حب الشيخ لم يعد خائفاً ولا جباناً.. هناك لحظة لم يكن قبلها شيئاً، وهو من بعدها شجاع وقوي، إن رمي به الشيخ الدلاتوني الشمس ذاتها فهو قادر على أن يخرق عين الشمس.

والصوت ينصب في وجدانه بلا كلمات نغماً خالصاً إذ يعيش بالتذاذ نهم تلك اللحظة التي كلمه فيها الشيخ لأول مرة وشملته نظرته، يوم جاء أبو ذقن سودة والنقاش الأحمدي إلى بيت الشيخ بالمملوك الأسير والحصان الأسود.. يا أعرج! نحن في جهادنا في حاجة إلى ثمن هذا الحصان الأصيل وفي حاجة إلى من يبيعه لنا في سوق إمبابة، وقد ندبتك لهذا العمل الصالح لأني أري فيك كفاءة له!.. انتقاه وهو يرى عكازه والتواء ساقه واصطفاه على أشداء معافين من أولاده كانوا حوله في هذا الحوش نفسه.. لم يكن رأي من قبل هذا الصنف من مشايخ الأزهر، والذين عرفهم كانوا أهل دنيا مستخفين تحت العمائم، لكنهم مفضوحون كاليأس وكالذنب.. يا أعرج! هل جئتنا بثمن الحصان؟.. يا أعرج! كان حدسي فيك صادقاً وأنت منذ الساعة موقد مسرجتنا وحامي بابنا وصاحب بيت معي في بيتي، يا أعرج! ما أحلي الكلمة على لسان الشيخ! لكأنه إذ يقولها في كل مرة يعطيني ساقاً سليمة ونفساً راضية!

وفاسوخته الكبيرة لمعت عاكسة ومضات النور كأنها ماسة سوداء مشعة، وهو خفيف كما لو كان قد نبتت له أجنحة، لكنه في عز رضاه رآهم فجأة يتواثبون من أسقف البيوت الخفيضة ومن فوهة الزقاق في أعداد كبيرة.

وانتفض قلبه عندما رأي البصاصين في الطليعة والسيوف بارقة!

لكنه في ذهوله استطاع قبل أن يتلقي على وجهه لطمة باغتة أن يزعق بالنذير:

ـ القصعة بردت! القصعة بردت!

وتلوي على الأرض من الألم وهو يراهم مارقين من البوابة في اندفاع شرس.. وسمع في اللحظة نفسها ذلك الصوت القوي على ما به من رقة وهو يلقي في الداخل المضطرب بكلمة

الساعة، حاسمة بليغة:

ـ الموت إن وجبت ساعته حبيب إلينا!

أكثر من عشرين مملوكًا مثل المملوك الذي شهد مصرعه بيد المجذوب والنقاش قبل أن يحفر له معهما في أرضية بيت الشيخ قبره المجهول، وفي الحال وقع في الداخل شيء بشع تتزايد فظاعته بعجيجه المتلاطم وبخفائه غير المنظور.

وهم الغلام الأعرج المضروب أن يعتدل مستنداً بيمناه إلى برودة الحجر عندما رأي فوق رأسه سيفًا وشوارب ورطانة مشئومة:

ـ أعرج لئيم أزعر!.. شيخ دلاتوني مثير أحقاد، شيخ دلاتوني إن شاء الله مذبوح!

ورفسه المملوك في جنبه رفسة مدوخة، لكنه قبل أن يغيب عن الدنيا لمح اثنين من رجال الشيخ يمرقان من البوابة وعرف أحدهما من طاقيته التي يشيع فيها لون الغزل الأخضر، وتمني النجاة لصديقه يوسف النقاش والرجل الآخر عندما رأي في كعبهما أحد زبانية الوالي شاهراً سيفه، والأمنية التي كانت آخر عهده بالوعي انطلقت هي الأخرى كالسهم العلوي وراء المطاردة الحامية التي اندفعت نحو الظلام، وكأنها تلقي في قلب يوسف قوة جديدة، فما إن رأي باب الزقاق مواربًا ورأس الطواف بارزًا حتى جمع عزيمته كلها وناوله في بطنه رفسة أسقطته وفتحت الطريق إلى شارع الخيامية الكبير.

وما يدري يوسف أين غاب زميله الهارب معه، لكن وقع خطي المملوك المسرعة وراءه كان يدوي في أذنيه مثل قرع الطبول، وكشفت له حركة عفوية من يده أنه فقد في المطاردة طاقيته الجديدة.

وعند ناصية حمام الخيامية توقف المملوك عن متابعته، ورآه يوسف في لفتة أخيرة يستند بكتفه العريضة إلى الحائط وهو في لهاثه يكاد يقع من طوله، لكن قلب يوسف الوثاب مع قفزاته الطائرة لم يطاوعه على الطمأنينة حتى أيقن بالنجاة ومرق من فتحة حائط العطفة وعندها حل عليه التعب مرة واحدة.

ياه! كل هذه المسافة من زقاق العميان إلى عطفة النعناعة، في نفس واحد!

والتقط أنفاسه في شبه حلم قبل أن يتحسس في الظلام طريقه إلى حجرته، في إعياء وذهول، وخالط حزنه شعور بالراحة وهو يلوي الأكرة الخشبية في يده عالماً أن وجهًا ينتظره وراء الباب بسامًا طيبًا، كأن لم يكن منذ قليل يرى الموت بين عينيه ويتلو الشهادتين في قلب المعركة الطاحنة!

ـ حبيبي مالك؟ وجهك مخطوف مثل الكركم!

مسكينة يا أحب النساء! صبرت طويلا على الحرمان من الذرية محتفظة بأملك في بقية العمر، وها هو رجلك في هذه الليلة السوداء قد قطع الخلف وضاع منه الأمل!.. لم يتكلم

فيه شيء غير الابتسامة المرة التي شاعت في وجهه، وشعر بيدها تمسك يده وبصوتها يرق له في حنان:

ـ تعال يا يوسف.. اجلس.. ولا تتكلم حتى تأخذ نفسك.. الله يلعن من عكر دمك!

وركعت أمام رجلها المنطرح على الحصيرة، وأخذت بيدها رأسه التي كان يسندها على الحائط وسقته من كوز الماء الذي جاءت به على عجل، ثم وضعت الكوز على الأرض وطوقت عنق الرجل المحبوب بذراعها الدافئة وهي تدني وجهها من وجهه الذي سكنته تلك الابتسامة الممتقعة العجيبة، طامعة في قدرتها المألوفة على التسرية عنه وفك عقدة لسانه:

ـ طلع لك عفريت؟

لا يتحرك لمزاحها بالاستجابة السريعة المعهودة لها، وما وقع له أخطر إذن من أن ينفع معه مكرها البسيط!

لعل زكريا بطبعه الحامي وقع في ورطة جديدة مع شيخ النقاشين، فمالت مكاسب على كتف يوسف بصدرها:

ـ هل حصل شيء لا سمح الله لزكريا؟

لكأن الاسم وحده كان التعويذة التي فتحت القمقم، فجأة وجدته مجهشًا بالبكاء في حجرها، لم تره باكيًا بهذا الانهيار الطفولي في كل عشرتهما، لا بد أن زكريا يا حبة عيني وقع من فوق السقالة وانقطم وسطه!.. وتكلم يوسف ووجهه مدفوس في حجرها وشهقاته تنفض جسمه كله:

ـ زكريا؟.. زكريا؟.. لن نري منذ الليلة زكريا!

ـ يا مصيبتي!.. ماذا جري للجدع؟.. قل يا يوسف!

غالب نشيجه وهو يرفع رأسه فرأت في عينيه حزنًا فظيعًا أخافها، واستحثته على الكلام في جزع ملهوف:

ـ ما له زكريا؟ مات يا يوسف؟ مات؟

في البداية لم تفهم من كلامه المضطرب شيئًا، ولزمها بعض الوقت قبل أن تدخل معه من بوابة الشيخ الدلاتوني وترى كارثة الحوش البشعة.. وكان يجهل الكثير مما حدث ولا يعرف مصير صاحبه على وجه التحديد.. ومصير الآخرين أيضًا ظل غامضًا.. كل شيء حدث بغتة.. هناك من استطاع مثله أن يهرب، ومن سقط من الضرب، ومن وقع في الأيدي الفظة التي ظهرت فجأة بالخناجر والدبابيس والسيوف.. لكنه قبل أن ينفد بجلده رأي زكريا متهاويًا تحت ضربة وحشية من دبوس غاشم ودمه يغطي وجهه، وعندما هم أن يعود إلى زكريا دفعه الشيخ نفسه نحو طريق الخلاص قائلا له: إن من الغفلة أن يقع الكل ولا يبقي منهم أحد.. ورأي بعض رفاقه يتسلقون الحيطان إلى الأسطح والشيخ يتصدي للجند الذين كان سلاحهم يحيد عن طريقه في شيء من رهبة..ولعل الشيخ الآن في قبضتهم إن لم يكن

لقيٍ حتفه وهو يدافع عن أولاده.. لا أدري.. جريت وجري ورائي كلب منهم كأن بيننا ثأراً... لا أدري... كل ما أدريه أن الضربة ماحقة.. لا حول ولا قوة إلا بالله!

شيء فوق احتمالها، كأن قلبها يغوص في بحر من الدموع:

ـ هل يأتون وراءك إلى هنا؟

ـ لا أدري يا مكاسب.. كيف أعرف!

ـ نترك لهم الربع ونقضي الليل في مكان آخر؟

ـ أين؟!.. الصباح رباح.. إن لم يأتوا قبل أذان الفجر دبرنا أمورنا على أن نختفي مع الصبح إلى أن تتجلي إرادة الله.. هاتي الكوز مرة ثانية.. يا رب خذ الشيخ الدلاتوني في حمايتك! احفظه يا رب من كل سوء!.. آه يا أولاد الزنا!.. آه!

ولاحت لخاطره قمم النخيل في ميت جهينة وهو يشرب من يدها، وخايلته صور الذين سبقوه إلى الهجرة:

ـ أرض الله واسعة!

ووسدته فخذها ومسحت بيدها على رأسه:

ـ له في ذلك حكمة!

(١٦)

الطاووس الأسود الجليل شيخ طواويس البساتين المعلقة طوي ذيله الجميل في انكسار ورعب، والأزهار النادرة التي جاءت بذورها الغالية من بلاد بعيدة فسقاها ماء النيل روعة على فتنتها الأصيلة داستها مراكيب الجواري الفزعات وأقدام العبيد الحافية، لقد عاد الرعب، لقد أقبلت الأنياب المفترسة مرة أخرى في إعصار من صهيل الخيول تضرب حصارها حول دار الملك في قلعة الجبل، لقد بدأ طومان باي حركته الجديدة في طريقه إلى السلطة!

وبهته كبير طواشية قانصوه وهو يدخل عليه بالنبأ القاصم مخدع عروسه الجديدة، ورأت الجارية سيدها المهاب ذليلا في حال الضآلة الباكية والخوف المهين:

ـ هذا غير معقول.. مستحيل. طومان باي؟!

ـ بنفسه يا كوكب الشرق البهي!

ـ ماذا يريد أكثر مما عنده؟

والمرأة، على خوفها، كانت في الثلاثة أصفاهم فكراً:

ـ يا مولانا السلطان! وهل فيما يريده موضع لسؤال؟ يريد ما أراده كل من حاصر هذا المكان، الصنجق والخاتم السلطاني والكرسي!. وهان عليها قدره عندما توسل إليها هي في كلامه كما لو كانت هي الجلاد:

ـ ألم أترك له حكم البلد الفعلى يمرح فيه على هواه؟.. الكلمة كلمته والمشورة مشورته.. هو في عهدي أكبر مما كان الدوادار خير بك في عهد بلباي.. أليس كذلك يا أغا؟

والتفت إلى الطواشي وأطبقت يداه على صدر عباءته الصفراء المدندشة بالأحمر والأسود:

ـ هل أنت واثق أنه طومان باي؟.. لعله جانبلاط أتابك العساكر أو أي ابن لئيمة آخر؟.. لماذا لم ترسل على الأسوار بصاصين يتقصون أخبار الحصار وزعيمه؟

ـ الحرس رأوه بأنفسهم.. هو طومان باي يا مولاي السلطان.. الله يلعنه!.. لكن.. ماذا نحن فاعلون يا كوكب الشرق البهي؟

ـ جئني في الحال بناظر بيت المال!!

انتظرت المرأة حتى ترجرج الأغا مزايلا القاعة ونهضت أمام سلطان مصر، الذي كانت منذ اشتراها تتأمله بمكرها الصامت وتنفذ إلى مكامن الرخاوة في شخصه، وسألته وهي لا

ترى من وجهه المدفون بدموعه ومخاطه في المنديل الموصلي غير أذنه وصدغه ولحيته التي لا يزال السواد فيها يغلب البياض:

ـ عفوك إن تكلمت بغير إذنك السلطاني.. ما نفع ناظر بيت المال الآن؟!.. أين وزيرك يا مولاي؟

ـ وزيري؟!.. أنا منذ جلوسي على الكرسي لم أر أي وزير.. فقط أصابع يمناي ورمت من كثرة ما دمغت الخاتم السلطاني بالحبر الملوكي ومهرت به كل ما طلبوا مني أن أوافقهم عليه.. أصابعي ورمت.. انظري.. هل هذه أصابع سلطان.. حديث العهد بالسلطنة؟

تقدمت الجارية منه خطوة وهي في عجب شديد يكاد ينسيها خوفها من المصير المجهول إذا اقتحم الأمير القوي القلعة وملكها:

ـ أجلسوك؟!.. توافقهم؟!.. توافق من يا مولاي السلطان؟

ـ كلهم.. من طومان باي فوق لأصغر أمير!.. كل هذا الزحام يجب أن يرضي.. هل كنت تحسبينها حكاية سهلة؟

كادت تهز كتفيه في غضب، وعنف له صوتها:

ـ هل الحرس كاف للدخول في قتال ساعات؟

ـ لم يقبضوا جمكياتهم من الشهر الماضي وأظنهم عاتبين!

لفظت المرأة احتقارها في وجهه:

ـ وأين كبير الحراس؟ أطلبه في الحال وحاسبه.

ـ في آخر مرة طلبته رفض الامتثال للأمر وقال: إنه لن يقابلني إلا يوم يكون معي متجمد الجمكيات المتأخرة وترضية كافية لجبر انكسار خاطر الجنود وأمراء المئات والعشراوات والطبلخاناه!

ـ اجبر بخاطره وأعطه من الوعود ما يشاء.. وأظهر لطومان باي أنك ستقاتل.. أعتقد أن في وسعك الحصول بعد ساعات فقط على هدنة وتفاهم على شركة معقولة!

تأملها قانصوه في ذهول، لكن سحرها العابر تبخر بغير إبطاء، والرجاء الذي بثته كلماتها لم يعش صداه في قلبه غير هنيهة ثم أطبقت من جديد غيامة اليأس المنهزم.. لا لا.. أنت لا تعرفين طومان باي مثلي.. ما دامت عزيمته قد صحت آخر الأمر على أن يأخذ الزمام في يده فلن يقف في طريقه أي شيء.. كل القوي الآن تحت إبطه.. عندي من أخباره الأخيرة شيء كثير.. ووالي القاهرة صديقه فتك له في هذه الأيام بكل من توسم فيه قدرة على الحركة، لم يرحم مماليك ولا أبناء بلد.. خيولهم أول أمس فعصت الخارجين من الصلاة في الأزهر، ولا يزالون ينشرون الفزع في الأحياء المجاورة للمسجد.. طومان باي دك الأرض جيداً قبل أن يأتي في طلب عنقي.

ـ وكنت تعرف كل هذا؟ وأنت ساكت؟!

ـ لا تتكلمي فيما لا علم لك به!.. ويح هذا الطواشي اللعين، لم يجئني إلى الآن بناظر بيت المال.. لكن لعل طومان باي وضع يده عليه أول ما وضع!.. لم يعد هناك أمل.. لم يعد هناك أمل.

ـ هناك أمل إذا قاتلت.

ـ هل جننت؟ أقاتل طومان باي؟!

ـ قاتل يا مولانا فالقتال الذي يحتمل الهزيمة يحتمل النصر.

ـ اسمعي أنت!.. في الأمور أسرار لا تعرفينها.. هاتي لي من ملبسك أوسعه وأخفاه لجسم لابسه، والحقي بي في الحمام تجدينني حليقاً وجاهزاً.

خيل إليها أن الجبان في فزعه قد بلغ الهذيان، وسألته في قلق:

ـ جاهز؟!.. للقتال يا مولاي.. في ملابس النساء؟!

ـ أسرعي يا ثرثارة فكل دقيقة الآن لها ثمن!

فهمت مراده وفاض صوتها بمرارة أسيفة:

ـ وتأخذني معك؟

لم يهتز لسؤالها البارد كنصل الخنجر:

ـ إلى أين؟.. اتركيني لمصيري.. ماعليك إلا أن تستقبلي طومان باي وتقعي في عرضه، والقلعة على كل حال هي القلعة.

زعق الاحتقار في سؤالها المتهكم:

ـ وإذا سألني عنك؟ هل أقول له أنك حلقت شاربك ولحيتك وعملت امرأة؟

لم يعبأ بسخريتها الجارحة واندفع نحو الحمام في ركن المخدع وهو يشير إلى خزانة ثيابها:

ـ هاتي كل ما يلزم من الرأس إلى القدم، وليكن الخمار أثقل ما عندك! وجاءت بما طلب وقذفت إليه بالكومة الكبيرة من وراء الستار المضروب على مدخل الحمام دون أن تلفظ كلمة، ثم قصدت نافذة وأطلت في فتور مستسلم على البستان فرأت المآزر الصفراء حول خصور العبيد السود تخفق كأجنحة كبيرة وهم يتدافعون في كل اتجاه في فوضي مخبولة، ورأت طومان باي ذائع الصيت مقبلا في أناة وسط كوكبة من رجاله الشامخين، يحف به استقبال ودي طروب من حرس الرجل الذي يشد الحزام النسوي المزركش في تلك اللحظة حول خصره، بعد أن حلق شاربه.. وفي هدوء بليد عادت إلى ركن المرآة

الكبيرة وأسقطت عنها عباءتها وسوت أطراف شعرها على كتفيها وتأكدت من شفافية غلالتها الداخلية من الأمام ومن الخلف، وصلت أمام المرآة صلاة جركسية قصيرة:

ـ ليعشقني الجديد من النظرة الأولي، وليكن أعلى همة وأذكي أمام الجمال قلباً وإرادة، آمين!

ورأت ـ في المرآة ـ ستار الحمام وهو يتكشف عن شكل امرأة عجيبة تسألها بصوت ملهوف رجولي:

ـ للآن لم يظهر الكلب ناظر بيت المال؟!

قبل أن تطاوع نفسها على الضحك وقعت على الباب رجة وانفتح عن كبير الطواشية وهو يفسح الطريق بتحايا ذليلة يبدو فيها كأنه يجيء بالتراب من الأرض في كل مرة ويضعه على رأسه، فطوحت بطرف الغلالة الحمراء عن فخذها الشاهق البياض قبل أن تركع على إحدي ركبتيها:

ـ مرحباً بسيد البلاد الأعظم!

تأملها طومان باي كما جحظت لمرآها عيون أصحابه، ثم مد بصره في هدوء هازئ نحو تلك المرأة الأخرى العجيبة الهيئة التي تنتفض عند ستر الحمام، فقالت له الجارية دون أن تنهض من ركوعها الخادم لجمال منظرها:

ـ إليك الرجل المطلوب وإن يكن في زي امرأة، فهذه القبيحة المضحكة يا مولاي هي عبدك الباسل قانصوه!

ووقعت في المخدع العبق بشذا البخور السوداني لحظة من صمت خارق كان في الإمكان أن يحدث فيها أي شيء حتى مشهد الدم، ثم رج المكان من عنف الضحك زلزال، كأن لمسة من جنون هبطت فجأة على الجميع، وكانت عينا طومان باي في عيني الجميلة وبينهما لغة الضحك.. هذا رجل حقيقي.. وسبحان الله ما أحلاها!.. وما أذكاها! باعت واشترت في اللحظة نفسها!.. وعنف الزلزال عندما وثب قانصوه فجأة ومرق بهيئته الغريبة وهو يتعثر في ذيوله فأفسح له الجميع وهم يمسكون بطونهم التي أوجعها الضحك بأيديهم، وسرعان ما علت صرخاته في البهو عندما سقط في أحضان سيوف عابثة تريد هي الأخرى حظها من المرح في ساعة النصر.

لم يخب إذن حدسها الغريزي، وها هو السيد الجديد يتقدم منها وعلى شفتيه ابتسامة طيبة:

ـ لست سيد البلاد كما تقولين، إنما أعزل باسم أمراء البر سلطاناً خائباً. لنولي السلطان القادر الذي يختارونه، وقد أخطرتهم جميعاً قبل الحركة أني أنتخب أتابك العسكر.. أنا رجل بلا غرض شخصي، والله شاهد!

صوته رخيم وفيه عندما يشاء رقة رجولية نادرة، فمست كلمته قلبها في صميمه:

ـ ما اسم الحلوة..؟

نفضت شعرها وهي واقفة أمامه وقالت له في نعومة:

ـ قبل اليوم لم يكن لي اسم ولا حياة، فهبني الحياة وأعطني اسما يكون هو اسمي مدى العمر!

ضمنها وضمنته فالتفت إلى رجاله بصدر منشرح:

ـ هاتوا السلطان الجديد وامسحوا له التراب عن الكرسي قبل أن تجلسوه..!

ومرة أخرى زلزلت الأرض ضحكًا واستراحت يد الجارية في يد طومان باي الدافئة، قبل أن يقول لها مغرقًا نظرته في نظرتها:

ـ لنا عودة في آخر الليل إلى هذا البخور الجميل الذي تحرقينه في مباخرك، وسيكون معي الاسم وما للاسم من كرامة ومحبة!

(١٧)

انظر! انظر يا يوسف! سقاطة هذا الباب «بسم الله الرحمن الرحيم»، بهيئة شيطان.. كانا قد خلفا العمار وراءهما ودخلا في رمال معادي الخبيري وصارت كل حياتهما في ربع الخيامية ماضيا نائيًا في البعد كأنه مرت عليه أربع وعشرون سنة لا أربع وعشرون ساعة، فالتفت إليها في هدوء وطمأنها:

ـ ما أدرانا! أهل الفضل لم يخلصوا من الدنيا ولعلنا نجد وراء هذا الشيطان راحة عابرة وشربة ماء!

لكنها أمام الوجه الملتحي المنحوت في حديد السقاطة ظلت خائفة من فشخة حنكه وجحوظ عينيه وخبث ابتسامته، فمد يوسف يده نحو السقاطة وهو يلمس بيده الأخرى كتفها:

ـ ما أشد خوفك من قطعة حديد!.. كنت أقل خوفًا عندما كاد أعراب المقطم يسلبوننا حياتنا لما لم يجدوا معنا غيرها!

وأدهشه أن رآها تنتفض دون مبرر ظاهر، كما لو كانت قد مستها من الإرهاق حمي:

ـ طاوعني يا يوسف!

ـ أنا عطشان، ولن نتوقف بعدها حتى نعبر الليلة إلى بر الجيزة.

ـ لنطرق أي باب غير هذا.. قلبي غير مرتاح له!.. طاوعني يا يوسف.. طاوعني.

ضحك من خوفها ورده إلى ما صارت إليه من تعب:

ـ إن أعطونا أو لم يعطونا فلن نخسر شيئًا.. واطمئني فلن تفتح لنا أمنا الغولة!

نظرت إليه عاطفة على طيبة نفسه وآسفة لشحوب وجهه:

ـ أما زلت بعد كل هذا تؤمن بوجود ناس طيبين؟!

كل هذا؟ رأي في كلمتها حصاد يوم وليلة من الخيامية إلى الجبل والصحراء، الخوف من العيون واستغفال البصاصين، وجثة الرجل العجوز المطروحة جلدًا على عظم عند عتبة حمام الخيامية، والسلاح في صدور أولاد البلد، ومماليك السلطان الجديد يستبيحون المدينة كالعادة احتفالا بالنصر، واللصوص الضاحكين خارجين من الحوانيت المنهوبة، وأولاد الشيخ الدلاتوني معلقين على الأسوار والأسبلة، والجياع اليائسين هاجمين في أفواه المخابز ثم هاربين أمام النصال الباطشة، والحرس السكاري على بوابات القاهرة، وضراوة أعراب

الأطراف وأفاعي الرمال التي انتزعت من صدر مكاسب أعلى صرخاتها التي ينخلع لها قلبه، فأطبقت أصابعه على السقاطة وطرق بها الباب في قوة وإصرار.. نشرب ونشكر ونواصل في الحال مسيرتنا إلى النيل، إذ ينبغي أن نكون في ميت جهينة قبل الفجر!

صوت امرأة من وراء الباب يسأل الطارق عن غرضه، ورنين سلاسل تحك في ظهر الباب قبل أن تسقط إلى الأرض.

وظهرت لهما امرأة شقراء ثلاثينية، وبياض صدرها شاهق في فتحة الرداء الواسعة:

ـ ماء؟ أمن أجل الماء تزعجان البيوت؟

يهودية غنة هذا الصوت وسحنة هذه المرأة، فما أسرع ما شد يوسف كم صاحبته وهو يرفع صوته كما فعلت المرأة بجفاء لا يقل عن جفائها:

ـ سامحينا! لم يعد بنا عطش!

لكن عباءة سوداء يعلوها شعر أحمر غزير ظهرت في اللحظة نفسها في آخر الطرقة الحجرية التي كشف عنها الباب المفتوح، وسمع يوسف ومكاسب صوتًا عجيب النعومة:

ـ راشيل! توبي عن اللكاعة عند الباب يا راشيل.. من تكلمين؟

همت أن ترد الباب دون أن تتكلم، لكن الرجل ذا الصوت الناعم كان قد تقدم ونحاها بيده ووقف يتأمل الغريبين الواقفين ببابه في دهشة لا تقل عن دهشتهما من خلو فمه من الأسنان رغم أنه لم يبلغ آخر الكهولة، وظهر في وجنتيه وتحت عينيه نمش غامق:

ـ ماذا تريدان من راشيل؟

في هذه المرة سبقت المرأة إلى الكلام وهي تزفر من نفاد الصبر:

ـ لا نريد شيئًا منها أو منك!.. كنا نريد شربة ماء لكن لا داعي لأن تنزل لنا بالسم الهاري!

كأنه لا يعرف الغضب، وفي عينيه الصفراوين ابتسامة باردة:

ـ الطيبات لله، هاتي لهما يا راشيل القلة الحمراء!

وضحك نثار النمش في وجهه وهو يلاطف مكاسب التي بدت له أصعب مراسًا من رجلها:

ـ السم غال يا شاطرة والماء أرخص!

«سم يلهفك» زفرتها مكتومة، على حين كان الرجل الذي كرهته من أول لمحة يتحول إلى زوجها بنظراته الصفراوية ويتأمل ساعده القوي البارز من كم الجلباب وهو يشير إلى داخل البيت:

ـ لا بد أن تأكلا لقمة!

ـ نريد أن نشرب فقط.. أين قلتكم الحمراء التي سمعنا عنها؟

ـ أكلنا بسيط لكنه نظيف.. تفضلا.. الناس لبعضها يا ابن بلدي!

في هذه المرة كانت مكاسب هي التي شدت كم يوسف وهي تضرب الأرض بقدمها في قلق.. أنا لا جائعة ولا عطشانة!.. ولا يزال يوسف يبلع ريقه منذ سمع كلمة الأكل، وهو يعرف أنها أجوع منه ولا يرى لانكماشها أمام الرجل الودود معنى:

ـ نشكرك.. الماء يكفينا.. وراءنا مشوار طويل قبل اشتداد الظلام.

لكن الرجل شد يوسف من ساعده في إصرار جاهداً أن تكون ابتسامته في وجه المرأة جاذبة مطمئنة:

ـ أنت ابن بلد.. لا تكسف خاطري.. رجل مثلي لا يكاد يرى أحداً غير صاحبته المولعة بفتح الباب كلما شمت رائحة رجل يعبر الطريق إلى بحر النيل.. الأكل مع مثل هذا الرجل يعتبر إحساناً من الآكلين ادخلي يا بنت الناس مع زوجك... الناس لبعضها والدار أمان.

انصاعت مكاسب لضغط زوجها على ذراعها دون أن يزايلها توجسها حتى دخلت في أقصي الطرقة على أعجب ما رأت في حياتها، أكوام من السلال والصناديق والأحقاق والقناني من كل الأحجام والألوان، ورائحة فاغمة تتقبلها الرئتان بمعاناة متضررة، ونادي الرجل الناعم زوجته التي لم تظهر، أو لعلها ليست زوجته:

ـ هاتي يا راشيل العيش والغموس، لأن ضيوفنا أيضاً سيأكلون!

غمت نفس مكاسب، طالما سمعت عن هؤلاء الذين يلاعبون العقارب وينامون مع خنافس وعناكب في حجم الديكة، وسمومهم عزيزة إلا على القادرين على دفع ثمنها، ونزعت نفسها إلى الخروج بانبعاث باطني حاد، ناقمة بعض النقمة على رجلها الذي لا يصبر على جوع يوم واحد.. وفجأة دنت من الرجل تحت المسرجة المدلاة من السقف الخفيض وسألته في جرأة دهش لها زوجها:

ـ ماذا تفعل بكل هذا؟!

ـ أقول لك إذا قلت لي أنت الأخرى شيئاً!

ـ أنا؟!

ـ آخذة رجلك إلى أين في هذا الليل ومعكما كل هذا الخوف في عينيك؟ هل وراءكما مطارد؟

ـ لماذا تريد أن تعرف؟

ـ ولماذا تريدين أنت أن تعرفي أسرار هذا المكان؟

اندفعت مكاسب في الكلام متجاهلة إشارات زوجها:

ـ سر هذا المكان مفضوح فهذه كلها سموم والعياذ بالله!.. هل تنكر؟ ضحك وهز كتفه وهو يمد يده إلى أحد الأرفف، وتناول من مقدمته قنينة صغيرة من زجاج أصفر مطموس وتأملها في راحة يده دون أن تزايله سكينته التي تنطبع على الجدران وما بينها:

ـ هل تعرفين ما هذه؟ هذه آخر وصفة!.. لم أجد حيوانًا واحدًا أجربها فيه.. يبدو أن الناس من جوعهم أكلوا القطط والكلاب، وحتى السحالي اختفت وكانت تملأ علينا هذه الرمال.. لا بد من تجربة الطبخة الجديدة قبل الاطمئنان إلى قوتها الرهيبة.. لا بد من التجربة.

وفي هذه المرة أحس يوسف مع مكاسب وقع النظرة الصفراء على جسمه القوي، لكن الرجل طوي يده في هدوء وهو يستدير متجهًا نحو ستار داخلي:

ـ لحظة واحدة من فضلكما.. أري ماذا تصنع راشيل البليدة طوال هذا الوقت وأحضر لكما الموجود عندنا.. البيت بيتكما.. لحظة واحدة.

إحساس المرأة أنه مختبئ وراء الستار ومرهف سمعه، فجعلت كلامها في أذن يوسف همسًا:

ـ يا رجل قم بنا قبل أن يعمل فينا عملة سوداء!

لم يكتم عنها أنه يتسلي بخوفها من المكان وأهله:

ـ يعني نقع من الجوع في بقية المشوار أم نبلع هنا لقمتين تصلبان طولنا لحد بر السلامة!

ـ سيضع لنا في الأكل سمًا.. لقد أخذ الزجاجة معه!

ـ هل يبدو علينا أننا من كبار الوجهاء؟.. لماذا تتكلم النسوان كلامًا غير معقول دائمًا؟

ـ في عرضك يا يوسف!.. يريح الله قلبك طوال العمر إذا أرحتني الآن وقمت معي.. قلبي مقبوض، وقلبي لا يكذبني أبدًا.

ـ يا ولية اعقلي! هذا رجل يقع من زقة أصبعي!

ـ قم بنا.. في عرضك.. شد الحزام على بطنك!.. هانت!.. فات الكثير وما بقي إلا القليل!

ولا أثر لراشيل، والذي ظهر بعد قليل يحمل الصينية هو الوجه المعدس، فوضعها بينهما في تواضع:

ـ عفوًا لحقارة ما في بيتي من مأكول!

بلغ يوسف ريقه لرؤية الخيار والجبن والخبز الأبيض، ونطقت نظرته إلى امرأته بتوسل، لكنها أغمضت عينيها فجأة وتقلصت عضلات وجهها كما لو كانت تعاني وجعًا داخليًا مبرحًا، ثم هبت ضاربة الصينية بما فوقها في اتجاه الشعر الأحمر.

وملئت نفس يوسف إحساساً بأنه يجب أن يخرج معها في الحال قبل أن يفيق الرجل من ذهوله، فوثب كما وثبت، وبوثبات مشتركة خاطفة تلقاهما الدرب الرملي مرة أخرى وأباح لهما امتداده الأفعواني نحو الغرب.

لكن ما من أحد جري وراءهما في الظلام، ولا ظهر على مدى الشوف شبح إنسان آخر.. ولم يقل أحدهما كلمة.. لا وقت للكلام ولا قدرة عليه.. في صمت صار الرجل والمرأة إرادة واحدة شاعرة بالنجاة من شر مجهول وساعية نحو شط النيل.. آه يا معداوي!.. كن على البر الشرقي وخذنا للبر الثاني!.. وهما يجريان لمست يده ردفها فابتعثت اللمسة غير المقصودة لفتة من عنقها كشفت له ومضة حب برقت في ركن العين الباسمة فنورت قلبه والبر بعيد يا معداوي!.. البر بعيد!

(١٨)

مع أهل البيت العتيق الذي لا يزال يحمل اسم سليمان أبو طاسة جلس حسن بعد الصلاة يستمع للمرة الثالثة أو الرابعة إلى حديث يوسف عن المنسر الذي وقع مع امرأته في كمينه عند حدود الأرض البور، فقالت امرأته لأولاد الليل في وجوههم: ما صدقنا خلصنا من الحرامية حتى نقع في منسر؟

وفي هدوئها المألوف تنهدت ست العيلة:

ـ ومع ذلك تركوكما تدخلان البلد بسلام.. رجال الليل في هذه الأيام ما أكثرهم، لكن إيش تأخذ الريح من البلاط!

حاول حسن أن يكون صوته طبيعيًا وهو يتكلم:

ـ لا بد أن الفجر رآهم راحلين عن ميت جهينة إلى لقمة أطري.. الحمد لله على سلامتك يا معلم يوسف، نورت ميت جهينة يا بنت مصر يا جريئة!

ضحكت زوجة يوسف، فسألتها فاطمة وهي منحشرة بين أمها وضيفتها التي طلعت من الكمين مثل الشعرة من العجين:

ـ للآن لا نعرف اسمك؟

ـ اسمي مكاسب وصنعتي حب يوسف!

تأمل حسن القاهرية الجريئة وهو يفرك بين أصابعه آخر كسرة صغيرة من خبز الإفطار التقطها من ثنايا الحصيرة المهلهلة، ثم توجه إلى زوجها بسؤاله:

ـ وهل كشف الرجال لك عن غرضهم في ميت جهينة؟

ويوسف لا يضيق بالأسئلة بعد أن شبع وارتوي، ولا يمل اجترار التجربة الأخيرة في هجرته التي حفلت بالتجارب المثيرة:

ـ أقول لك يا سيدي.

لكن صوتًا هينًا قطع عليه اندفاعه إلى الحكاية، إذ قال غالب الذي كانت كل حواسه منذ فقد بصره مركزة في أذنيه:

ـ وهل يكون لهم غرض غير النهب؟

والتقط يوسف خيط الحديث في الحال:

ـ لو رأيتم أشكالهم الفظيعة وأصواتهم المخيفة.. تكون ماشياً في أمان الله مع امرأتك فتسمع صوتاً رهيباً يسألك من المقبل من الشرق؟.. تتوقف أقدامكما عن السير، وتدعو الله في سرك ألا يكون السائل من عيون الملتزم إدريس، وترد في الحال معلناً اسمك كما فعلت أنا عندما سري ذلك الصوت في سكينة الفجر دون أن يبين مصدره بين أشجار السنط عند الجبانة.. وتسمع سؤالا ثانياً: ومن الشخص الآخر يا يوسف يا جهيني؟.. الجماعة الحريم!.. هل معكما سلاح؟.. ولا كسرة خبز يا عم!.. تقدم إذن!.. وعندما دخلنا في الظل برز لنا الرجل قصيراً وعارياً إلا من سروال طويل، والسكين الرفيعة الطويلة مرشوقة في حزامه، ولحيته طويلة في وجهه الذي لا يبين منه غير بريق عينين واسعتين تحت حافة الطاقية الغزلية. يا نهار أغبر يا اولاد!.. من أين أقبلتما؟.. من مصر، وهذه بلدي وهنا أهلي، لكني لم أتشرف بمعرفة حضرتك؟.. وما إن قلتها حتى ظهر الرجل الثاني وهو يغالب الضحك قائلا لصاحبه دون أن يبدو عليه أي اهتمام بوجودنا: ألم تسمع؟!.. دعهما يتشرفان بمعرفة حضرتك، وحضرتي.. كان أنحف وأطول من صاحبه، لكن كل شيء كان مبهماً في ظلال السنط، ولم يبدد مزاحه ما في شخص صاحبه من حزم جاد.. يا عم أنا قريب غالب الجهيني وجماعته، وقصدنا بيته وضيافته!.. وماذا تحمل لأقاربك من مصر؟ حلي؟!.. ولعله قالها ساخراً من حالتنا التي خيبت أمله في غنيمة طيبة.. لا أدري!

هم حسن أن يقول شيئاً لولا أن وثبت المرأة القاهرية إلى الكلام:

ـ عندها زايلني خوفي يا جماعة.. شهقت وأفلت مني لساني.. حلي؟ حسرة علينا!.. فتشونا!.. والرجل الطويل ضحك من كلامي ومن استغفار يوسف لجرأتي: سامح المرأة، حتى الخبز اليابس القليل الذي كان آخر ما معنا لهفه في الطريق أولاد الحرام.. يسامحني؟! يعني يا ربي نقوم من حفرة نقع في نقرة، ونخلص من حرامية نقع في منسر!.. قلتها بالصوت الحياني.. وإذا بثلاثة آخرين يطلون علينا من كتف سور الجبانة القبلي، بالسراويل والسكاكين هم أيضاً وأحكموا الحلقة.. خرجتما من مصر بكسرة خبز يابسة؟ ماذا كنتما تفعلان هناك؟.. تتسولان على الأبواب؟ تنقر لها وهي ترقص وتلم النقطة؟!.. لا يا سيد الناس!.. أبواب مصر الآن لا تفتح للسائلين وليس وراءها صدقة.. هناك يأكلون لحوم القطط والكلاب الميتة، ومن هناك خرجنا بالهدمة والستر، لا يفضح الله لك ولية!

لمس حسن ذراع الضيف، وهمس في أذنه عندما التفت إليه:

ـ تعال نترك قعدة النسوان ونتمشي لحد الطاحون، لي معك كلمة!

ـ الطاحون؟.. آه !.. هل أجد هناك عمي عيسي؟

ـ وتجد خالدا ومحمدا وأصدقاء آخرين كثيرين، وأقول لك في الطريق كلمتي!

ضاق الأعمي بالهمس الخافت القريب من أذنه، وتحسست يده مكان القلة فرفعتها إليه مكاسب وقالت له لما ارتوي ورد القلة شاكراً:

ـ يا عم ما أعظم هدوءك وأنت تسمع عن وجود أولاد الليل حول البلد!

شاعت في وجه غالب الطيب المعتم ابتسامة باهتة، وانكمش عنقه بين كتفيه:

ـ يا بنتي! قالوا للعريان البلد فيها هوجة قال على الله يقع عليّ في الزحمة قميص!!

وقف حسن مستأذنًا في الانصراف فنهض يوسف وهو يقول لمكاسب في رقة:

ـ أنت الآن من أهل البيت.. أبو على يأخذني معه لنسلم على حبايبنا وأحكي لهم ما جري لنا مع أولاد الليل.. وندبر أمر معاشنا!

انتظر عليه حسن حتى بلغا باب الدار فأوقفه وقال له في هدوء وعلى وجهه ابتسامة مطمئنة:

ـ هل فيك من يكتم السر؟.. اسمع!.. هؤلاء الذين رأيتهم عند الجبانة ليسوا لصوصًا، بل هم من أخوالي في جرجا، ولهم هنا شأن ينبغي لك أن تعرفه قبل أن تتوهم أنهم من رجال الليل!.. هس!.. اسكت.. لا تتكلم قبل أن نبلغ الطاحون!

(١٩)

جبان! جبان!.. لفظتها كبرياء محمد الطعينة وهو يرى القلة الباقية من كلاب ميت جهينة تزرع السكك والمسارب وفي عيونها وقدة مسعورة.. جبان!.. جبان!.. ما الذي أمسكه في البور الشرقي عندما احتواه العار وبعد ما صحت نيته على الهجرة؟.. وسد محمد أذنيه بيديه وهو يجري في الخلاء في اتجاه الطاحون والشجر حوله مهزول ورمق الحياة فيه شاحب، والدواجن القليلة منكمشة عند كل سقيفة أو جحر خوفًا من الجوارح المحومة دانية من الأرض، وفي عيون الحمير والجمال أحزان عجيبة وهي ترفع رءوسها عن الأرض المتشققة في يأس ضامر مثلها.. وفعص بشقوق قدمه كتلة هائجة من ثعابين صغيرة رفيعة حمراء مثل دود الطين كانت تتلوي في بطن الأرض العطشي.

ونبض في قلبه إحساس مبهم بالخوف من الأرض التي صورت له شقوق طينتها اليابسة فرحة الجدب والأمحال بأن النيل لم يوف أذرعه، وما إن بلغ الترعة حتى توقف عند شطها، وعاين وهو يلتقط أنفاسه المبهورة منسوب الماء فيها ووجد انخفاضه زائداً عن اليوم السابق، حتى لقد وسعه في بعض المناطق أن يرى قاع الترعة من خلال شبر الماء الضنين الساري بحمولته الهزيلة من أوراق النبات اليابسة وقطعان أبي ذنيبة الضئيلة، الحي منها والميت.. وانداحت في أعماقه موجة من رهبة عندما رأي فوق حائط الطاحون بومة، بارزة في ضوء الصبح بمنقارها الشرس وعينيها المرعبتين، على غير عادة بوم ميت جهينة، لكنه ما لبث أن سمع من داخل الطاحون صوتًا لا يعرفه يقول:

ـ الأهالي في منفلوط وغيرها قطعوا الطريق وذبحوا الملتزمين ودحروا تجريدة الوالي، ونعم الرجال!

رجال يتكلمون عن الرجال، كيف يظهر بينهم بكل أحماله من العار هو العاجز عن الثأر؟.. إن عبد اللطيف الأكتع الذي تنعقد الأسمار حول هجرته القديمة كان أشجع قلبًا عندما مضي بلا عودة وخطفه الزمن وطواه.. لكن خطاه سعت بالرغم منه إلى باب الطاحون، فنهض حسن في الحال من بين الرجال المتحلقين حول الرحي الجامدة واندفع إليه في شوق واحتواه في صدره في عتاب يهزه الفرح:

ـ يا رجل!.. أربعة أيام بلياليها ولا حس ولا خبر.. شغلتنا عليك!

قاوم محمد نهاية الخزي التي همت بها أعماقه الممزقة، أن يبكي الرجل وسط الرجال، وجاء رده همسة خائرة في سمع صاحبه الذي يشد بذراعه حول كتفيه:

ـ جدك عبد اللطيف يا حسن كان أقوي مني.. هو مضي في البرية على وجهه إلى الأبد، وأنا لبدت في بور الشرق دون أن أقوي على مبارحة حدود الجيزة.. نفسي خذلتني..وأنا خزيان!

ـ هون عليك يا محمد! هون عليك! لله في عودتك حكمة، فادخل وخذ مجلسك وسط الرجال.

ورحب به يوسف في مبالغة تريد أن تنفخ في خوره الظاهر من روح المكان نسمة منعشة:

ـ أهلا بالرجل الذي كان ينقصنا!

جلس متهيباً في طرف الحلقة، خمسة رجال لا يعرفهم، هل يعرفون حكايته؟ هل يعرفون؟

وهمس حسن من وراء كتفه:

ـ أخوالي... في زيارتنا!

وقال أطولهم قامة مستأنفاً الكلام الذي قطعه وصول محمد:

ـ وهل يكون مسلماً من يصبر على الضنك والمظالم وصوامع ملتزمه المليئة بالغلال أعلى صوامع رأيناها من جرجا إلى الجيزة؟

كان المتكلم كهلا نحيلا حاد النظرة، ولشخصه مهابة طبيعية لا تفارقه في حالتي الكلام والسكوت، وتأمل محمد وجهه الأسمر وصرامة ملامحه الدقيقة، وسحرته قوة نظرته الفذة، والأربعة الآخرون حافين به كالصخور السمراء، منتظرين كلماته في صمت مفعم بالإكبار:

ـ أليس كذلك يا محمد يا ولدي؟ أين القمح والفول والشعير؟ وأموالنا وأعراضنا أين هي؟

احتبس صوت محمد في حلقه فتولي يوسف الرد في تهيب:

ـ نحن هنا عصبة من رجال أشداء لكنهم لا يدرون ماذا يفعلون، فماذا نفعل يا سيدنا؟

وقعت لحظة صمت جلجل فيها الرد في باطن يوسف قبل أن يعلو في المكان أي صوت... يا يوسف لا تنس أني زليختك!.. صوت الشيخة، من أعماق الصبا، غضاً كأنه يسمعه لساعته.. وتمثلت له صورتها بين عينيه كما رآها في طفولته يوم ضربت عيسي بمقرعتها على مؤخرته طالبة منه أن يكون وجع هذه الضربة معه يوم ينصب قامته في وجه الباطل.

وسأل الرجل الطويل الأسمر بصوته النافذ إلى القلوب:

ـ أين بقيتكم؟

فقال حسن بصوت ينضح بالثقة:

ـ نحن كثيرون، وعندنا حد الكفاية من البلط والفؤوس والمناجل والنبابيت والسكاكين أيضًا.. وأول جرأة تكفي لتوليد ألف جرأة.. وفينا خالد وحده بألف رجل.. لكن الطاحون ضيق والبصاصين أكثر من البراغيث.

وأرهف محمد سمعه لجواب الرجل المهاب:

ـ أعرف يا ولدي.. أعرف.. لأنك لم تكتم عني شيئًا من كل ما عند ميت جهينة من ثارات، وأعجب لسكوتكم إلى اليوم.. أتسألني ماذا أنتم فاعلون؟.. رأيي أن الإنسان ليس من حقه أن يخذل إرادة الله فيه.. رأيي أن يرفع البر عينيه للسماء وأن تقولوا يا إرادة الله كوني مع شرف النساء وعزة الرجال.. إرادة الله فيكم!

وصخرة من الصخور الأربعة تكلمت بعد السكون الذي هبط على حجر الرحي والذين من حوله:

ـ وكرمنا بني آدم.. فليكونوا كرامًا!

وأحس محمد بنظرة الرجل الطويل تنفذ إلى حبة قلبه وهو يخصه بالكلام فجأة:

ـ يا محمد! لا عار على السبع إن نهش اللحم الحي، لكن العار للمنهوش لو لم يهجم هو الآخر على السبع بعد أن تزايله الرهبة من بطشه وفتكه، ويهجم قاتلا أو مقتولا.. هل ترى غير هذا حلا يا من اختارك ربك لبلوي لم أسمع بمثلها أبدًا؟

أحس محمد أنه ما من كلمة يسعها أن تخرج من حلقه المتصلب، فابتسم له الرجل:

ـ من أجل أنك مختار لهذا الامتحان فإني أكبرك وأري لك شأنًا!

وصوت باب الطاحون دهمهم على غير انتظار:

ـ من أنتم وماذا تفعلون هنا؟

سكتوا لظهور صاحب السؤال، ثم كان الرجل الطويل أول من قطع لحظة السكوت الحرجة، وكان كلامه هو الآخر سؤالا وقوراً موجهًا بلفتة الوجه وإيماءة اللحظ إلى رجال ميت جهينة الثلاثة:

ـ من الفتى وما معنى سؤاله؟

فتي متعاظم يلتف حول وسطه حزام جلدي تلمع فيه نقوش فضية، وفي يده سوط مطوي، ورأي يوسف وجه محمد الذي فر منه لون الحياة، وشعر وهو ينهض أن أي شيء يمكن أن يحدث فجأة، الآن، في رجع البصر:

ـ هذا ابن ملتزمنا، وكبسته لنا الآن ذكرتني بجده حمزة الكبير الذي سمعنا أنه كبس الطاحون هو الآخر في يوم قديم على خالد وعيسي وصاحبهما المرحوم خليل.. جيل ورا جيل والهم يا ولداه ثقيل!

وعادت نظرته القلقة تحتوي محمد، لكنه لحظ الرجل الطويل الهادئ وهو الآخر صاح للجحيم المتفجر في عيون محمد وحسن ومستشف لخطورة اللحظة، قبل أن يقول في هدوئه العظيم:

ـ هذا هو عرفناه، فما معنى سؤاله؟ هل من حق أولاد الملتزمين في الجيزة أن يسألوا الناس ماذا يفعلون دون أن يلقوا عليهم أولا بالسلام؟

ضرب الشاب فخذه بمقبض السوط وقال في وقاحة:

ـ عجبًا لطاحوننا لا ينزل به إلا كل غريب مريب!

هل تطق الشرارة؟

تصفح الرجل الهادئ الوجوه قارئًا علامات المصير، لم يكن يجهل القتلة البشعة التي لقيها ابن عم حسن على يد السفاح والد هذا الذي يسد مدخل الطاحون بجسمه الفارع، ويعرف أن سكين حسن لا تزال منذ وفاة أمه تنتظر الساعة الموعودة، وفي قلبه كانت تعيش كل مواجع محمد.. يا ولداه!.. منذ ظهر ابن الملتزم، وهو في جمود كامل، ونظرته ثابتة على الفتى لا تتحول.. كل ما وراء الجمود، كل العذاب في حكاية محمد ونور التي طار ذكرها في الصعيد إلى آخره.. ما أبشع هذا الشيء القليل من الشبه بين استدارة الفكين ونغزتي الخدين.. وإنه لدم واحد ذلك الذي يجري الآن في شرايين محمد ضاربًا طبول النقمة، وفي شرايين هذا الولد الذي جاءت به إرادة المصير لتجرب ميت جهينة هي الأخرى الوقوف على أقدامها والتحديق في عين الشمس، ولتطق من خلاله الشرارة.

هل تطق الشرارة؟ هل يطاوع المسكين محمد صاحبه حسن فيعود ابن الملتزم إلى أسوار أهله وهو مقلوب بالعرض فوق سرجه، ودم رجولته نازف كما نزف في الزمان القديم دم بركات الزكي؟ وتزغرد اللهاليب؟ ويرى الباطل هنا أيضًا وجه الحق؟

وقال الرجل وهو يتجه إلى الخارج في وقار جعل حمزة يفسح له الطريق في رجفة:

ـ ها هم الغرباء يخرجون فلا يبقي معك غير حسن الأكتع ويوسف الجهيني ومحمد أبو غالب أولاد بلدك، وإن حجر الرحي ليصلح نطعًا للسيف قبل السكين!

طقت الشرارة، وزعقت في الطاحون الدماء الهائجة، والرجال الخمسة يخرجون على مهل.. ولم يبعدوا بل أجالوا أبصارهم في الحصان المنتظر قبل أن تستقر نظراتهم آخر المطاف على ظلال بستان الملتزم التي تتراءي على مدى الشوف، وفوقها شموخ قمم الصوامع في زرقة السماء الصافية.

ولا صوت في داخل الطاحون.. لا صوت بعد تلك الصرخة المنكرة الواحدة.. لا صوت!

(٢٠)

أصوات، أصوات ترج الأرض من كل صوب، راعدة.. لم ينتظروا حتى يرد على إعلان الحرب الذي جاءه مضرجًا بدم ابنه.. أعادوه إليه جثة مقلوبة على الحصان، كما لو كانوا واثقين من انشغال القاهرة بهرب السلطان قانصوه متخفيًا في زي النساء، ويسطو المماليك على البيوت والأسواق إشهارًا لسخطهم على تأخر جمكياتهم.. ولن ينتظروا وقد زاد عددهم بورود الغرباء الذين جاءته عيونه بأخبارهم.. زادوا الضعف أو ضعفًا ونصف في تقدير بصاص آخر من عيونه المفتوحة على ضمير ميت جهينة وأحشائها.. ولا بد أنهم يعرفون أيضًا أن الحمار والي الجيزة يغط في النوم.. كلما اقتربوا ظهر تحت الشمس سلاحهم.. معه سلاح، على آخر الزمن، فلاح ميت جهينة!

من فوق الأسوار تطلع سليل آل إدريس وغيظه يغلي، ورجاله رابضون بسلاحهم وراء البوابتين القبلية والشرقية، ومن وراء كتفيه سيف حارسه وعمامة الشيخ هريدي.. ورسوله إلى والي الجيزة لا بد أن يكون الآن في حضرة الوالي يطالبه بالنجدة العاجلة.. رجاله ما أكثرهم والسلاح ما أوفره، فليأت فلاح ميت جهينة بنبابيته وفؤوسه، ولتصل في الوقت نفسه نجدة الوالي، وأنا وأنتم والزمن طويل يا أولاد ميت جهينة!.. سيجيء العسكر وتنسحقون وساعتها أعلمكم كيف تخصون الذكور.. وتمدون أيديكم الوسخة على الغالي وحيدي.

وهبطت نظرته إلى سرة الحوش الواسع حيث أرقد الرجال حمزة وغطوه بملاءة بيضاء مضرجة بدمه في منتصفها، لا أدفنك يا حمزة حتى أشفي غليلي، ثم تعيشين يا ميت جهينة في مأتمه أربعين ليلة أو لا أكون إدريس ابن حمزة الكبير!

والرعد يقترب، من أين جاء كل هؤلاء في ساعتين؟

والأرض على مدى الأفق تشغي تحت شمس سبتمبر بناس كالنمل يا شيخ هريدي، فلا تقف ورائي كالصنم وادع لنا ربك أن ينفخ في صورة الحمار والي الجيزة، لكنه لم يسمع الرد، لأن طلائع الجموع صارت من الدنو بحيث هددت الأسوار، فالتفت إلى حارسه:

ـ لو دخل علينا هذا النمل لأكل طوب الصوامع قبل خزينها وأكلنا نحن أيضًا.. سنحارب يا عبد الجبار وننتصر.. أنا أعرف كيف أكسرهم.

غطي الهدير الزاحف على الهمهمات المتهدجة، والكفان ضارعتان إلى السماء، لكن المعنى الناطق في وجه الشيخ هريدي هو الخوف، فالتفت إليه الملتزم رافعًا صوته ليعلو على الأصوات الهادرة المتدفقة من حول الأسوار، وقطع ضراعته في استخفاف:

ـ أهل بلدك الذين تؤدبهم حضرتك في الجامع!.. تفضل!

ـ يا سيدي الملتزم نفخة من حضرتكم تطيرهم بإذن الله!

ـ انتظر وسأفرجك عليهم.. انزل أنت يا عبد الجبار للرجال وحمسهم وقل لهم: إن التجريدة في الطريق.. والموقف في يدنا.. وبعد ساعات أدفن حمزة وألبسك الطرح يا ميت جهينة.

وهبط الحارس في السلم القصير، لكن زعقة إدريس أوقفته عند نهايته:

ـ لينقل ولدي إلى الداخل، ولينبه على الحريم ألا تعلو أصواتهن في هذه الساعة.. قل لهن بنفسك وعد إليّ في الحال.

واستطاع الشيخ هريدي أن يبلغ مسامع الملتزم بصيحته الذليلة المرتعشة:

ـ فرقعة كرباج حضرتكم تنفخهم يا سيدي الملتزم!

أخفي إدريس رأسه التي كانت ظاهرة فوق السور من ناحيته الشرقية وتطلع من إحدي طاقاته المربعة الصغيرة فخيل إليه أنه يحلم.

هذه الفأس التي تنعكس الشمس على سنها الجديد في ومضات براقة، ترتفع بها يد محمد بن فاطمة!.. محمد! محمد!.. وفاطمة نفسها في يدها منجل أبتر وكتفها في كتف ابنها!.. ومد وجزر من رجال ونساء من كل الأعمار.. والسكين الطويلة في يد الولد حسن الأكتع.. الآن أعرف أنك فاعل هذا بابني.. الآن فهمت.. تعال تعال.. تعال حيًا.. أريدك لي وحدي أيامًا وليالي.. وحدنا.. أكويك وأشويك.. ومقاطف مليئة بالحجارة ومناجل وفؤوس.. وسكاكين وبلط.. وفؤوس وفؤوس، فؤوس.. وعدد كبير من النساء.. عجيب هذا يا بلد!.. عجيب.. والآن ها هم أربعة منهم يرفعون جذع شجرة مقروط ويقتربون به من البوابة الشرقية، يا والي الجيزة!.. إني ساع في عزلك يا والي الجيزة بعد انتهاء هذه الغمة... البليد.. النائم.. لكن الباب خشبه مثل الحجر الأسواني، والجنزير الذي يمسكه حمولة سبعة رجال لا أربعة!.. لن يدخلوا هنا أبدًا.. وستصل التجريدة قبل أن تلين لهم خشبة واحدة في البوابة.. وما إن يؤذن الشيخ هريدي لصلاة المغرب في الجامع حتى أكون داهسًا في فرشتهم فلا يقيم أحد في عيني عينيه.. التجريدة الآن ينبغي لها أن تصل .. الآن.

وعاد وجه محمد في الزحام يلوح ويختفي تحت بريق فأسه المرفوعة وهو يطلق صيحات ضائعة في هزيم المجموع.. ما أكثر الغرباء في هؤلاء المجانين.. حتى المجذوبون ظهروا والعميان جاءوا.. ووجه محمد مرة أخرى قريبًا كل القرب من كتف أمه.. وجذع الشجرة يدق الباب الشرقي في إصرار، فجازف إدريس بسلامته وأطل من فوق السور في استطلاع تحتى خاطف فرأي قطاعًا من وجه أحد حاملي الشجرة المقتحمين، وشهق من دهشه لما عرف فيه وجه غالب الأعمي زوج فاطمة.

ـ طيب يا والي الكلب، إن ما جعلتك عبرة!

وعبد الجبار بالسيف ورجاله على أهبة، لكن همة الوالي وجبت!

واستدار إدريس في درء السور حتى واجه الغرب في قلق، وتطلع مستروحًا عبير العسكر على مدى الشوف.. وصار الزئير يزلزل نفسه وإن ظهر لرجاله آية في ضبط النفس، ودعا على الوالي النائم أن يقع في يد أمير يقظ.. وفي انحناءة راكضة عاد في درء السور إلى مرصده الأول، بعد أن اطمأن بنظرة ألقاها في داخل الحوش إلى أن جثة ولده قد أدخلت إلى البيت، وأن البوابة المتينة هازئة بدقات الشجرة المقهورة.. سيكون مأتم حمزة أربعين ليلة يا ميت جهينة وأفعصك فعصًا.. وإن عشت يا والي لا تهنأ ولا تسعد.. أين التجريدة.. الآن وقتها... ومن يدري إلى متى تصمد البوابة... يا شيخ هريدي!.. يا هريدي!.. أين اختفي آكل العصيدة؟.. أنت يا شيخ النوائب؟

هل عجيج الخارج آخذ في الخفوت أم هو واهم؟

من الطاقة ظهرت له وجوه أخرى كأنما يحملها مد وجزر.. يا بنت القرعة!.. حتى أنت يا ستيتة!.. والمرأة محسنة أيضًا.. أم نور... وزمانك يا عبد اللطيف يا أكتع عدت أنت الآخر من البور لتصرخ عند سوري معهم.. طيب!.. نعيش ونشوف يا ميت جهينة.. الأيام بيننا.. والليالي.. ودقوا الباب دقوا، دقوا حتى تتعبوا.. لا أكون ابن حمزة الكبير إن لم أفك حصري في مراقدكم.. ومن مرصده لا يرى الآن غير طرف قميص أزرق وحركة كتف قوية عنيدة.. عاجزون وشجرتهم عاجزة، ودليلهم المغفل الأعمي.

ورجاله رابضون بسلاحهم حسب إشارته، والعواء الخارجي الذي انتهي إليه الرعد الأول آخذ في الذبول والانحسار، والبوابة صامدة.

ولا غبار ولا عسكر في الأفق الغربي، لكن كأن الضاربين بالشجرة هالهم هذا الانكسار فضاعفوا من عزيمتهم حتى وضحت في سمعه أصداء ضرباتهم في صلب الباب، وانخلع قلبه في فجأة قاسية عندما انخلع الباب وارتطمت مصاريعه بالجدران،وظهر في فتحته عملاق يرفع في يمناه سكينًا هائلة وتطق من عينيه شرارات خارقة، وسمع إدريس كل كلمة في الصيحة المتهللة التي انبثقت مدوية من قلب خالد:

ـ خشي يا ميت جهينة سلمي على الملتزم وصوامعه!!

التحم عبد الجبار بخالد عند مدخل البوابة، لكن الطوفان في الحال غمر التحامهما وطواه في القتال الكلي، فوثب إدريس وهو يستل سيفه من حزامه إلى طرف الجانب الغربي من السور العلوي ورمي الأفق بنظرة لائمة.

وفي حركة يائسة رد السيف إلى غمده وانحني في عودته إلى مرصده الذي يطل منه على جزء كبير من الحوش دون أن يظهر منه شيء، وسابت مفاصله في ركوعه عند الطاقة، وشعر أن احتماله للضجة الشنيعة لن يطول .. في الحوش دماء وصرعي وأكثر من ثلاثمائة حنجرة.. اضرب في المخ يا ولد!.. سد سكة الصوامع!.. مدد يا ساكن الجميزة.. إرادة الله فيكم!.. مدد يا شيخة زليخة!.. الضبع الكبير مختبئ مع النسوان يا جدعان!.. مدد يا روح

عزة مدد!.. اضرب يا عبد الجبار.. سكة الصوامع مفتوحة! مدد يا أم بركات! مدد يا أم حسن! في المخ يا ولد، في المخ!.. الصوامع!.. الصوامع.. إرادة الله فيكم!.. لا.. لن يحتمل.الآن يعرف أن المعركة خاسرة إلى حين، ولعل التجريدة لن تصل قبل الغد إن وصلت.. وأهم ما ينبغي عليه في هذه اللحظات البشعة هو أن يحفظ حياته بأي ثمن، للانتقام الكبير بعد وصول النجدة... يجب أن يعيش هو... يعيش ويعيدها أرانب في الجحور، هذه الذئاب التي تسمي آل إدريس ضباعاً.

حتى ستيتة العجوز سمع صوتها المشروخ وهي تصرخ من قبة الفرن التي اعتلتها في الركن القريب من مكمنه:

ـ يا مرعوش هد لنا جدار الصومعة!!

وهذا الصوت الذي جاوبها من أقصي الحوش بزئيره العالي يعرفه إدريس فهو صوت محمد:

ـ حلال علينا! حلال يا ميت جهينة!

لا يعرفون، المناكيد، لا يعرفون أن في أعماق بيتي مخبأ جاهزًا نأمن فيه على أعناقنًا أنا والنساء، حتى نسمع منه عجيج سلاح التجريدة ونخرج لاستقبال الرايات الصفراء الخفاقة على أسنة الحراب.. عندما تصل التجريدة بعد قليل.. في الحال.. لا يمكنهم أن يتأخروا أكثر من هذا ويتركوا البر يفلت من أيدينا.. وأمام المد العظيم رأي رجاله يتقهقرون، ولحظ في بعضهم عند استشعار الانكسار لمحات مخزية من الحرص على الحياة.. هذه هي كل حدود بسالة رجاله، والمصير ناطق في الحوش وسينطق بعد قليل عند الصوامع. والمقاطف التي أفرغت في الأيدي الضاربة كل حمولتها من الحجارة المشطوفة ستعود مليئة بقمح الأدارسة وعدسهم وفولهم وكنوزهم إلى جحور ميت جهينة، وتصدق نبوءة مرعوشهم.. البصاص قال له: إن البلد تتكلم عن رؤيا ظهر فيها المرعوش للبنت نور وبشرها بأن يوم الخميس الأول من رجب سنة ٩٠٥ هجرية سيشهد بيوت ميت جهينة فائضة بالغلال.. وتخبز ست العيلة العيش الأبيض. وتخرج صواني العشاء لكل الناجين من المقتلة.. وبالزغاريد تفقعها معها النساء، وفاطمة في النساء، تحيي ميت جهينة ليلة نصرها اليتيمة قبل أن تلبس الحداد عمرها كله.

حتى إناث الفلاحين يقاتلن أحسن من رجاله الجبناء الخونة، في عز الظهر.. وسدد من فرجة الطاقة نظرة جانبية فلمح غالب يخنق واحدًا من حرس صوامعه أوقعته حركة المد والجزر في متناول قبضتي الأعمي.. والمرأة الشابة الغريبة التي كان قد لمحها منذ برهة وهي تناول يوسف نذير الشؤم قطع الحجارة تثب الآن من وراء كتف يوسف في جرأة وتصرخ عند مكان خالد صرخات مبهمة وهي تشير إلى السور العلوي، وخالد يتوقف عند صرختها عن القتال ويستشرف المكان الذي تشير إليه المرأة، وصدره المشعر يخفق كالمنفاخ، ويده الممسكة بالبلطة تشلب دمًا.

لك يوم يا والي الجيزة نقف فيه أنا وأنت أمام الأمير المقطع ونتحاسب. وساخ قلبه بسخونة مرهقة وهو يزحف في رعب على يديه وركبتيه في اتجاه السلم الداخلي.. وآخر ما رآه من الحوش لون الدم طاغياً على الأرض الإدريسية التي وطئت حرمتها الأقدام المتشققة.. انزل يا إدريس، انزل يا إدريس، صوت زوجته من أسفل تناديه في جنون، وعويل تحتى منسحق، تطغي عليه فجأة صيحات من الحوش مجلجلة متعانقة:

ـ فتحناها فتحناها!

ـ صوامعنا!

ـ فتحناها!

ـ كله من فضلة خيركم!

ـ إرادة الله فيكم!

ـ أبشر يا ساكن الجميزة!

ـ يا محمد أين أنت؟

عند مسقط السلم رفع إدريس صلعته التي سقطت عنها العمامة في زحفه الأرضي المذعور فرأي على الدرجة الرخامية العليا ستة أقدام حافية مطينة تسد السبيل، وشعر وعرق في أربعة سيقان وفي أقصي اليمين كشكشة سروال امرأة.

راكع بارز البطن مثل صوامعه وهو يخطف نظرة عبر الأبدان الثلاثة إلى الوجوه.. بلطتان وفأس، بائع الخروب ابن مصر والبنت والولد!!

عيون فيها هول، البنت والولد، بلطة وفأس!

وخرس لسانه عندما أراد أن يتكلم، أن يقول لهما إن كل ما هنا ملك لهما وأنه أبوهما، لكن نظرة قلق في عيني صاحبهما اللتين تكشفان الغرب جعلته يرهف مسامعه، فيسمع وقع سنابك الخيل المقبلة.. ومن تحت، من قاع البيت حيث جثة ابنه مسجاة وسط النساء، تعالت فجأة زغرودة.

ثم نبع سفلي من الزغاريد.. لقد جاء العسكر!

صرخة عاتية، وبالبلطة المرفوعة في يديها تقدمت نور وثبتت قدميها ونصبت طولها:

ـ لكن قبل أن يدهمونا تقبل يا أبتاه التحية!!

وأخذت نفساً كبيراً في شهقة عالية، وضربت ضربتها.

جدول المحتويات

القسم الأول الـطـــــــاووس
(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
(٨)
(٩)
(١٠)
(١١)
(١٢)
(١٣)
(١٤)
(١٥)
(١٦)
(١٧)
(١٨)
(١٩)
(٢٠)
القسم الثاني الطـــاعـــــــون
(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
(٨)
(٩)
(١٠)

(١١)
(١٢)
(١٣)
(١٤)
القسم الثالث الطاحـــــون
(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
(٨)
(٩)
(١٠)
(١١)
(١٢)
(١٣)
(١٤)
(١٥)
(١٦)
(١٧)
(١٨)
(١٩)
(٢٠)